

www.ibtesama.com/vb

أرى .. أسمع .. وأتكلّم

رولا خرسا

FARES_MASRY

www.ibtesama.com/vb

منتديات مجلة الإبتسامة

الدار المصرية اللبنانية

www.ibtesama.com/vb

FARES_MASRY
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الابتسامة

أرى أسمع وأنكلم

بيانات الفهرسة أثناء النشر
(الإدارة المركزية لدار الكتب)

خرسا، رولا

أرى ، أسمع، واتكلم/ رولا خرسا :

. ط 1 . - القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2007

247 ص ؛ 20 سم .

تدمك -144-427-977

1- المقالات العربية

41

أ - العنوان

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت - تليفون: 23910250

فاكس: 23909618 - ص.ب 2022 - القاهرة

e-mail:info@almasriah.com

www.almasriah.com

تجهيزات فنية: الإسراء - تليفون: 33143632

طبع: آمون - تليفون: 27944517 - 27944356

رقم الإيداع: 13359 / 2007

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: رجب 1428 هـ - أغسطس 2007 م .

أرى.. أسمع.. وأنكلم

رولا خرسا

الدار المصرية اللبنانية

FARES_MASRY
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الابتسامة



FARES_MASRY
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الابتسامة

إهداء

إلى أُمِّي :

أكثر من أجنبي دون شروط

روا

FARES_MASRY
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الابتسامة

مقدمة

في البدء كانت الكلمة، والكلمة مسئولية، وعلى رأى عبد الرحمن الشرقاوي، الكاتب الكبير، بعض الكلمات نور، وبعض الكلمات قبور، والكلمة تعنى البحث والإفصاح، ومن يكتب إنما يفعل بحثاً عن حقيقة ما، عن اكتشاف ما، لذلك فلا يجب أبداً أن نؤمن أن ما نقوله كله صادقاً، لأننا لا يمكن - على رأى جبران خليل جبران - أن نقول "وجدت الحقيقة"، بل نقول "وجدت بعض الحقيقة"، والكتابة متعة ومشاركة وفتح لأبواب مغلقة، بدلاً من الاكتفاء بالعيش داخل النفس مسجونين فيها، لا نجد من يفهمنا أو يستمع إلينا، في زمن صُمَّت فيه الأذان لعلو الأصوات كلها، وصراخها في ضوضاء وهمجية وفوضى، في زمن لم يعد فيه للجمال الخارجى الحقيقى مساحات واسعة، بل ضاقت تلك المساحات حتى أصبح الأمر يتطلب منا عملية بحث دقيقة، في زمن أصبح فيه الخل الوفى كالعنقاء من عجائب الدنيا ومستحيلاتنا، في زمن صعب كهذا، لا بد أن نبحث داخلنا عن الراحة والسعادة، ولا سبيل للبحث في مكان آخر، وعندما يخرج ما بداخلك بصدق وعفوية لا بد أن يشعر المتلقى بأنه يعرفك منذ زمن بعيد، وبأنك أصبحت الصديق.

كتابى هذا هو الأول، رغم أننى أكتب منذ أن تعلمت إمساك القلم، جمعت فيه مقالاتي، بناء على نصيحة صديق شاعر، أشكره على النصيحة والتشجيع، ووجدت الفكرة صدى وتشجيعاً عند زوجي، وهو من أستاذه دوماً في تفاصيل حياته الصغيرة والكبيرة، فتوكلت على الله، وقد نشرت في جريدة "المصري اليوم"، واحدة من أكثر الصحف احتراماً وحرفية وموضوعية في وقتنا الحالي.

والمقالات كما ستلاحظون متنوعة، بعضها كان تعليقاً على كارثة أو حادث، وبعضها انطباعات شخصية، قسمتها بشكل يميز بينها، ولا أنسى قبل أن أختتم هذه المقدمة القصيرة، أن أحكى حكاية اسمحوالى بها: عندما كنت في السنة الثالثة من المرحلة الإعدادية، كانت مدرسة اللغة العربية سيدة رقيقة تدعى "مى"، كانت حفيدة أحد الشيوخ المشاهير، لست أذكر إن كان محمد عبده أو رفاعة الطهطاوي، إلا أنها دعتنى يوماً إلى منزلها، وأرتنى صورة جدها الكبيرة المعلقة في صدر الغرفة، "مدام مى" كما كنت أسميها، كانت مؤمنة بشكل كبير أننى في يوم من الأيام سأتميز في مجال الإعلام والكتابة، لدرجة أنها يوماً وأمام الفصل كله قالت لي: أرجو أن يكون كتابك الأول مهدى لي، ومرت السنوات، وفي كل مرة أفكر في الكتابة أتذكرها، حان الوقت كي أشكرها، وأعترف أن كلماتها هذه كانت دافعاً كبيراً، وأعطتني ثقة كبيرة، وأرتنى طريقاً ربما لولاها، لما كنت اكتشفته أو فكرت فيه، فشكراً لها، وشكراً للعناصر النسائية الأخرى التي تحرك حياتي: صديقة عمري، وأختي، ولو سمح لي بإضافة فهو عرفان

أرى.. أسمع.. وأنكلم

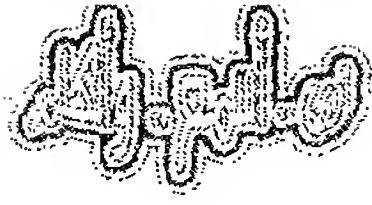
لأبى الذى أوجد المكتبة كحجرة أساسية فى المنزل، وزوجى الذى عرف دومًا أن عملى هو مفتاح شخصيتى.

أشعر وكأننى فى حفل توزيع جوائز الأوسكار السينمائية، وأنا أكتب ما أكتب، كل ما أرجوه أن يحوز الكتاب على إعجاب القراء، وأملى فى ذلك كبير، فقد عملت بها قاله مثلى الأعلى فى الحياة "عمر بن الخطاب" (رضى الله عنه)، والذى قال: "الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت فى القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان". أرجو أن تستقر كلماتى فى قلوبكم، وكتابى فى مكتباتكم.

رولا خرسا

القاهرة - يناير 2007

FARES_MASRY
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الابتسامة



1

شئون مصرية

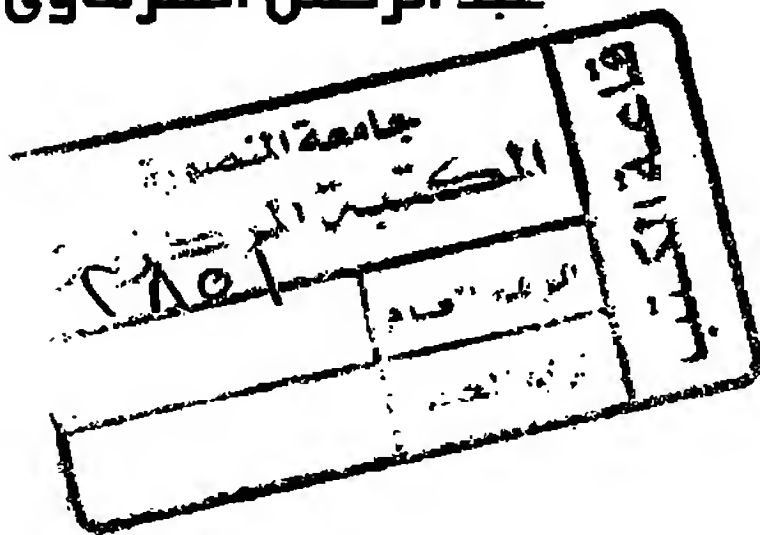
الكلمة حصن الحرية

إن الكلمة مسئولية

إن الرجل هو الكلمة

شرف الرجل الكلمة

عبد الرحمن الشرقاوي



FARES_MASRY
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الابتسامة

الغلاية والموث

لماذا تصيب الكوارث دائماً الغلاية؟ لماذا يدفع الفقراء وحدهم الثمن؟ إذا ما تابعنا النشرات والأخبار سنجد المجاعات تضرب البلاد الفقيرة.. والكوارث الطبيعية والزلازل.. أحياناً.. أما الحروب فدائماً من نصيب البلاد الفقيرة.. تتعارك القبائل الإفريقية وتشهد بلادها انقلابات متكررة.. وكأنهم ينتقمون من الحكام والدنيا بسبب الفقر.. أما في مصر فتحضرني كارثتان شهدتهما بنفسى.. كارثة قطار الصعيد، وتفجيرات شرم الشيخ الأخيرة.. قطار الصعيد أصاب ركاب الدرجة الثالثة، وهى بالمناسبة مقارنة بالقطارات الأوروبية أو اليابانية درجة خامسة وعشرين، مع قليل من التفاؤل.

ولو كانت في تلك البلاد، لوضعوها منذ زمن في متاحف ليشاهد الزائرون كيف كانت القطارات زمان، وبقليل من الخيال سيضعون تماثيل فوقها وحولها تفعل مثلما يفعل الركاب هنا، وسيضعون تحتها تعبير "صدق أو لاتصدق: هكذا يركب الناس القطارات في مصر".

قطار الصعيد في كارثته الشهيرة، التى تعود إلى ثلاثة أعوام مضت، حسبما أذكر، حدثت يوم وقفة العيد، كان القطار مكتظاً بالركاب الكادحين، الذين يعملون في القاهرة في أعمال يومية، مثل

العمال الفواعلية، أو المهنيين أو السائقين، الذين يتركون قراهم ومحافظاتهم، بحثاً عن لقمة العيش وتبتلعهم المدينة بإيقاعها السريع، ويعملون ويعملون وهم يحلمون بيوم الإجازة الأسبوعي، أوبعيد يعيدهم إلى منازلهم، حيث يحصلون على لقمة هنية وخدمة نظيفة، وابتسامة حانية من الوالدة أو الزوجة، التى تقتات طوال الأسبوع على القليل مدخرة "حتة الزفر" سواء كانت لحمة أو فراخ للزوج الغائب، وهذا يكون فى المناسبات الخاصة بطة، أو إوزة تم تزغيطها حسب الأصول، حتى سمت فأصبح ذبحها مطلوباً ومحتفى به، ركاب قطار الصعيد كانوا كثيرين واتشحت قراهم بالسواد وقتها، وبدلاً من العيد نُصِبَتْ سرادقات العزاء.

وفى تفجيرات شرم الشيخ، المصاب الأكبر كان من نصيب العاملين البسطاء فى وسط سوق شرم الشيخ القديم، وفى موقف السيارات، وفى مدخل الفندق: عمال نظافة وسائقون وعمال يقضون سهرة الجمعة مع أصحابهم، للتخفيف من مشقة حرارة النهار، الذى يلون جلودهم بسبب ساعات العمل الطويلة، تحت شمس يوليو الحارقة.

أستطيع أن أتخيل بعد هذه التفجيرات، ما حدث فى فندق غزالة المعروف بأن معظم رواده من المصريين.. دخلت السيارة المفخخة وعلى الباب عامل أمن بسيط، اعتقد أن ذهابه إلى شرم الشيخ سيفتح أمامه أبواب رزق عديدة.. ودخلت العربى لتصيبه وتصيب عمال النظافة، وموظفى الاستقبال، والجارسونات الذين وراء

أرى.. أسمع.. وأكلم

كل منهم حكاية وحلم، والموت على أهل الغنى والفقير مصيبة.. إلا أن الموت عند الفقراء أحياناً لا يعنى فقط الاشتياق والفراق، بل يعنى فقد العائل والسند.

ذهبت إلى الأنقاض، والتقيت رجال الدفاع المدني.. ووجدت أحدهم يمسك قطعة متفحمة ويضعها في كيس شفاف، مثل الذى نضع فيه مشروباتنا، وسألته: ما هذا؟ فأجابني: قطعة آدمية متفحمة نأخذها لإجراء تحليل الحامض النووى للتعرف على صاحبها.

تخيّلوا.. منذ أيام قليلة كانت قطعة الفحم هذه شخصاً آدمياً!! يحب ويكره ويسعى.. يعود لمنزله في نهاية يوم طويل.. يقبل والدته وأولاده.. يحلم بأن يراهم أحسن الناس، وربما كانت لشاب في مقتبل العمر يعمل ساعات إضافية لزيادة الدخل، وبانتظاره خطيبته تحلم بعش زوجية سعيد.. أو حتى ربما كانت لرجل عجوز يعانى من متاعب الشيخوخة، إلا أنه يحلم بالشفاء ويطلب في صلاته من ربه عمراً مديداً وصحة من حديد. صحيح أن الأعمار بيد الله، ولكل أجل كتاب، ولكن أعود من حيث بدأت: لماذا تتحالف الدنيا ضدهم؟ ويغتال أحلام ذويهم الموت؟

أحب أن أنظر إلى الأمر هنا من نقطة إيمانية بحتة، مفادها باختصار: أنه إذا كان موتهم في الدنيا يعنى موتاً وخراب ديار، فمن المؤكد أن الله رحيم رءوف بعباده، خصوصاً الفقراء منهم، والفقراء يدخلون الجنة حسبما يقال.

لا أجد في الكارثة إلا نقطة الضوء هذه للإجابة عن تساؤلي: لماذا

تختار الكوارث الفقراء دائماً؟

حرام... ومعلّش

شابة مصرية جميلة، حملت متاعها وطفليها، واتجهت إلى مصر تاركة الولايات المتحدة الأمريكية - حيث تقيم - لقضاء إجازة، كانت تحلم بالاستمتاع بكل لحظة فيها، وسمعت عن حفل فنى فى قرية ساحلية شهيرة، فاصطحبت صديقتها الأمريكية وذهبت، بعد أن اطمأنت إلى نوم طفليها الصغيرين بصحبة والديها، كانت سعيدة جدًا تتمايل على نغمات الموسيقى الشرقية، التى تفتقدها كثيرًا فى مقر إقامتها فى الولايات المتحدة، ومشى فوق الرمال حافية القدمين لتلامس سلكًا كهربائيًا مكشوفًا وتصعق، فتسقط على الأرض، والنبض لا يزال فى عروقه، سارع أقاربها بحثًا عن طبيب فوجدوا العيادة مغلقة، طبعًا، فمواعيد العمل الرسمية انتهت، وكأن المرض له ساعات وأوقات رسمية وغير رسمية، إذن سيارة إسعاف.. ياناس، لا يوجد، فالقرية غير مجهزة، وتنقل السيدة فوق عربة نصف نقل لتصل إلى المستشفى، وقد أسلمت روحها إلى بارئها، وماتت شيرين، وهذا هو اسمها حسبما قرأته فى الصحف فأنا لا أعرفها، وليستيقظ أولادها باحثين

عنها مرددين: أين أمي؟

طفلان: ليلي (4 سنوات) وزين (سنتان)، حكم عليهما ألا يتذكرا في المستقبل والدتهما إلا عبر ملامح ضبابية، ويعتمدان لإنعاش الذاكرة على الصور وأحاديث الأقرباء عنها، وكيف أنها كانت تحبهما، وتود لو يتعرفا على بلدهما الأصلي وجذورهما: مصر.

لم تكن شيرين تعرف أن القدر ينتظرها بسيف الإهمال، ليسلطه على رقبتها، ويكتب نهاية أجلها، والإهمال هي الكلمة المفتاح في كل القضية، فهل سيتوقف العامل أو الكهربائي الذي ترك السلك الكهربائي مكشوفاً أمام ما حدث، هل سينظر إلى أولاده ويقول لقد تمت أولادهما؟ لا أستطيع أن أحكم، فأنا لا أعرف الكهربائي أيضاً، المشكلة في حالة بأكملها، وهي الاستسهال، فعدم إنجاز العمل بشكل جيد شطارة، ومن يضحك على الآخرين بعدم القيام بما يجب عليه القيام به، وينجح في أن ينجو بفعلته إنسان ذكي، ومن يغش في الميزان والبضاعة "مفتّح"، خصوصاً إذا تعلق الأمر بحياة الناس ومصائرهم.

أنا لا أدّعي أن هناك شراً مبيّناً، كل ما أقوله هو انعدام "السيستم" system أو النظام، ففي كل أنحاء العالم حوادث نقرأ عنها، ونقول لسنا وحدنا في هذه الدنيا الذين يعانون الإهمال، إلا أن الإهمال عندنا حالة عامة، نتهاون في أبسط الأمور مرددين اللفظ العبقرى "معلّش"، نرفض معاقبة المهمل مرددين اللفظ العبقرى الآخر "حرام"، لا يجب أن نخرب بيت أحد، فالعقاب لدينا مرتبط بالحرام، ولو عاقبنا مقصّراً أصبح "مفترين" جبارين غير مقدرين أن وراءه عائلة

يصرف عليها، وتعتمد عليه دون التوقف لحظة أمام سؤال مهم: لماذا لم يضع هو مسئولياته أمام عينيه ويحافظ على أكل عيشه وخبز يومه؟ نردد دائماً أننا لا نريد أن نكون سبباً في إيذاء أحد، حتى يقع الإيذاء على من نحب، هي إذن حالة عامة في بلادنا، نجدها على كل المستويات، ومن يعاقب مقصراً، ينظر الجميع إليه على اعتبار أنه شخص معدوم الإحساس والشعور، ونخلط المشاعر بالواجب والصبح بالخطأ، كل شيء لدينا يختلط. مع أننا أشطر من يعرف كيف يجلد من يقع، السكاكين تظهر وتكثر فقط عند وقوع الضحية، والتأكد من أن أنفاسها أصبحت معدودة، وبعد كل "الحرام" و"المعلش" تظهر كلمة في غاية القسوة هي "يستاھل".

أنا لا أستثنى نفسي، فأنا أيضاً ممن يرددون يومياً "حرام ومعلش"، أخاف من توجيه العقاب، وإن كنت لا أتوانى عن اللوم، وأعتبر أن الكلام كاف، إلا أنني لست أبداً ممن يقولون "يستاھل" العقاب، يستحقه.

أما زين ويلي فأقول لهما: والله مصر جميلة، أرجوكم لا تذكرها دائماً بالحادث الأليم، ولا تعتبر أن المصريين قد قتلوا والدتكم، فتطالبان بالعودة إلى الولايات المتحدة حيث الأمور أكثر نظاماً، وحيث يعاقب المهمل ويحاسب، والله مصر جميلة، معلش يا ليلي، معلش يا زين، باسم المصريين جميعاً أعذر، أرجوكم اقبلا اعتذاري، سامحونا، وعذرنا أننا قبل أن نهمل في حق والدتكم، أهملنا في حق أنفسنا.

كل مرة أشوفك فيها... يبقى نفسي آه.. آه

عشنا أيامًا في حالة جميلة، إذ نجحت الأغنيات الوطنية التي قدمت في فترات الانتخابات الرئاسية، وانتخابات مجلس الشعب، في خلق إحساس جميل لدينا، قد لا تكون نجحت في تحريك الكثيرين للخروج والمشاركة الفعلية في الانتخابات، إلا أنها نجحت في جعلنا نشعر بحالة من الحب الشديد للبلد، كنا بعد كل أغنية نقول: الله، عاد زمن كنا سمعنا عنه وعشناه أطفالاً، واختفى في نهاية السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات، فمعظم الأغنيات الوطنية التي قدمت في تلك الفترة، كانت - على قلتها - باردة دون حماسة، وبدأت تكثر أغنيات السلام وتمجيد السلام، وأنا كي - "لا أفهم خطأ" - مع السلام، وأتمنى أن يعم العالم وأن تختفى من نشرات الأخبار صور الحروب والجوع والدمار، وإن كان هذا مستحيلًا، فلو صرف العالم من المال على كل الأدوية والعلاج ما ينفقه على الحروب، لكانت الدنيا أفضل كثيرًا، فالدول الفقيرة تشتري السلاح لتحارب بعضها البعض، وتمدها به الدول العظمى، وهي قليلة ومتحكمة في سوق السلاح، مثلما هي متحكمة في أمور كثيرة أخرى، وهذا على كل الأحوال ليس موضوعنا.

الموضوع هو ببساطة تامر حسنى وهيثم شاكر، شابان فى مقتبل العمر، حاولا التهرب من أداء الخدمة العسكرية، سُنّبت التحريات إن كانا زورا أم لا، إلاّ أننى أصدق تامر حسنى فى اعترافاته الأولية التى قال فيها: إنه اعتقد أن المزور سوف يأتية من أحد الكبار، بشهادة إعفاء صحيحة لأنه محق، كل شيء ممكن يحل بالفلوس، أصدقه حقيقة لأننى لا أعتقد أنه من السذاجة بحيث يورط نفسه فى قضية تزوير، هو فنان يعيش أيامًا تعتبر الأحلى فى عمره، واسمه يلمع فى كل أنحاء العالم العربى، وأغنياته نردها جميعًا، من أول "عيونه دار" لغاية "عينى بتحبك" أغنيته الأخيرة، ففى أغنياته إحساس عالٍ وهى بعيدة عن الابتذال، جعلت الكثيرين يرددونها ومنهم أنا.

تامر حسنى غنىّ أيضًا مع مدحت صالح، ومجموعة من الشباب، أغنية وطنية هى واحدة من أجمل الأغنيات الوطنية التى قدمت فى السنوات العشر الأخيرة "لو كنا بنحبها"، وصدقناهم جميعًا، وكنا بعد كل أغنية نقول صحيح مصر تستحق منّا مجهودًا أكبر، وبالربط بين القبض على تامر حسنى، والأغنيات الوطنية أجدنى لا ألومه على الإطلاق، لأنه مرآة لجيل بكامله، وأجيال كثيرة قادمة تربت على فكرة السلام، وأردد مرة أخرى أنا مع السلام، ولكن كثرة موضوعات القراءة على مر السنوات، التى تتحدث عن السلام وتقصر الكفاح على أيام طيبة والفراعنة، والإشارة إلى انتصاراتنا كأنها من الماضى، أما المستقبل فكله لن يكون إلاّ سلامًا، سلامًا سلامًا. إذا أجريت حوارًا مع أى شاب، وسألته هل أنت مستعد للدفاع عن

وطنك؟ سيرد ويقول "الحرب! لا سأهاجر" أو "لا نحن في سلام ولن تكون هناك حروب" أو "لا ياعم إحنا بالناش دعوة"، ويستثنى من هذا الأمر من يربطون الجهاد بالحرب، الدفاع عن الوطن بالواجب الديني، لذلك تجدهم في المظاهرات يرددون شعارات دينية، ومستعدين للموت في عملية أو في حرب.

ورأى هنا أنه لا يمكن لأمة تتربى على رفض الحرب، غير معترفة بأن هناك ما يسمى واجباً نحو الدولة، إلا أن تعزّر شاباً مثل تامر حسنى، مع أن ألفيس بريسلى في الخمسينيات أظن، أدى خدمته العسكرية وكان في إجازاته يغنى ويمثل، وفي لبنان منذ أعوام قليلة أدى وائل كافوزى الخدمة العسكرية، واستغل الفترة ليرتدى البدلة ويغنى أغنية تحفز الشباب على تقليده وأداء الواجب، ما حدث لتامر حسنى سيجعلنى كلما رأيت شاباً رددت في نفسى: كل مرة أشوفك فيها يبقى نفسى آه آه، وأغبر بقية كلمات الأغنية إلى كلمات عن الواجب نحو الوطن، حتى ولو اتهمت بأن دمي ثقيل.

وأعتقد أن الموضوع غاية في الخطورة، استبعاد أى احتمال للحرب من موضوعاتنا، أو مناهجنا الدراسية. حتى أكثر الدول استقراراً تفعلها، وإلا لما وجدت أميركا هذا العدد من الشباب، لترسله إلى أفغانستان والعراق، والبقية الموجودة على قائمتها، ولو حدث أى أمر طارئ، حتى ولو كان قادماً من الفضاء، فسنغنى كلنا مع هيثم شاكر "ارمى حمولك علياً"، ونرمى حمولنا على مصر، وبدلاً من

أن نشيل عنها، سنجد شبابنا يهرب دون أن "يشيل"، وتصبح كلمات مثل "لو كنا بنحبها لازم نصون أرضها، دم وعرق وكفاح يعلى فوق اسمها" ستصبح كلمات أغاني، وأبقى قابلنى لو لقيت حد يعلى أو يصون أو يشيل.

الرحمة

عرفت الوزير فاروق حسنى عندما كان فى أكاديمية روما، أثناء زيارة للقاهرة أقام أحد معارضه، وبها أننى كنت أقدم وقتها برنامجاً ثقافياً فى الإذاعة، فقد قررت إجراء حوار معه، ذهبت قبل إقفال صالة العرض بلحظات، تخيلتُ وقتها أنه سيقول لى وأنا حديثه التخرج فى الجامعة: عودى إلىّ فى يوم آخر، وسأجرى الحوار معك بعد مشاهدتك المعرض، إلاّ أنه لم يفعل، بل جلس معى على السلام وتحادثنا وأجريت الحوار، وشكرته على حسه وذوقه فى التعامل، ورغم أننى حدثته عن عدم فهمى للوحات السريالية فإنه لم يغضب، بل شرح وشرح بحماسة وحب صادق للفن، وفوجئت بعدها بفترة قليلة بتعيينه وزيراً للثقافة، واعتقدت أن الكرسي سيغيره، سيغير من نظره المحبة للفن، وسيراجع الفنان أمام الوزير، إلاّ أن السنوات مرت ودعيت مرات ومرات إلى افتتاح معارضه، وفى كل مرة كنت ألمح لمعة الفرح فى عينيه، عندما تشنى على إحدى لوحاته، أو تدخل معه فى تفصيلة حول لون ما أو شكل ما فى إحدى لوحاته.

لم تتحسن علاقتى منذ ذلك الوقت بالفن السريالى كثيراً، إلاّ أننى تعودت أن أحب الألوان والأشكال، دون أن أحاول فهم

ما يكمن وراءها، وفي كل مرة كنت ألتقى بالفنان فاروق حسنى، كنت أشعر بحماسة حقيقية لمشروعات كثيرة يتخيلها مقدمًا ويحلم بتحقيقها، لم أغرق في تفاصيل إنجازات، وفي حوارات من هذا النوع، إلا أن تقديمه لاستقالته استوقفنى، فنحن لم نتعود من الوزراء تقديم الاستقالة، عشنا أزمنة طويلة نسمع عن الإقالة، أنا شخصيًا ورغم حزنى الكبير على ضحايا بنى سويف، فإننى أرفض أن يتم خلط الأوراق، وإن كنت احترم تصرفه المتحضر بوضع استقالته بين يدى الرئيس ليقرر، من ناحية أخرى التقيت منذ أيام بالملحن منير الوسيمى، والد "شادى" أحد الذين ذهبوا ضحية الحريق الرهيب، لم أستطع أن أتمالك أعصابى وأنا أشاهد الأب المكلوم يبكى ابنه، الذى قضى وهو فى العشرين من عمره، عشرون سنة من التربية والتعب، وحلم ودعاء يتكرر كل يوم من الأم والأب: "يارب تكبر واشوفك راجل".

وتأتى إرادة الله سبحانه وتعالى لتقرر العكس، وبكيت مع الملحن منير الوسيمى على شادى، وقلبى أوجعنى فور تخيل مشاعر الأم وصدقها، وبدأت أفكر بعدها من المسئول؟ ولم أجدنى أضع اسم الوزير فاروق حسنى فى مقدمة الأسماء، وبالمصادفة قرأت فى الصحف عن حريق فى ملاهى الاسكندرية، وتذكرت حكاية السيدة القادمة من الولايات المتحدة، والتى تكهربت بسبب سلك مكشوف، وماتت، وحكايات عن أطفال ماتوا فى حمامات السباحة، بسبب ماس كهربى وعرفت أن الحالة عادية، الإهمال أصبح رفيقًا يوميًا يمشى

بشكل متوازٍ في حياتنا مع اللامبالاة، نبحث عن حقوقنا ولا نفكر في واجباتنا، ما حدث في بنى سويف، يحدث يوميًا وفي أماكن متفرقة، نسمع عنها أو لا نسمع، والطرق دومًا مختلفة، وإن كانت الأسباب واحدة، إهمال ولا مبالاة، ولا زلت رغم عدم قبول الرئيس لاستقالة وزير الثقافة وتكليفه بالاستمرار في عمله أسأل نفسي: هل كان ضغط الصحافة الفظيع الذى أدى إلى تقديم الاستقالة صحيحًا؟ أم أننا أصبحنا نبحث دومًا عن نحملة كل أخطائنا؟ ولماذا نُحاسب فقط عندما تكون الضحية في موقف ضعيف؟ لماذا الصمت في أوقات قوتها... وتنهال عليها السكاكين إذا ما وقعت؟ أصبحنا نستعذب الانقضاض على الفريسة ونجد لذة في قسوتنا، ونخبىء ضعفنا خلف مبررات لهذه القسوة، مع أن أكثر الكلمات ترديدًا في ديننا "بسم الله الرحمن الرحيم".

عرف الله سبحانه وتعالى أهمية الرحمة، وندرة أن يمتلك بنو آدم هذه الصفة، فلنرحم أنفسنا أولاً قبل أن نرحم الآخرين ونعاقب المسؤولين، ولكن لنكن متحضرين فنترك القانون يقرر ويحاسب، ولا يعلو مسئول فوق القانون، ولانتحول نحن إلى حكام وقضاة، في زمن عمت فيه الفوضى وهيمنت فضاعت معها الحقوق.

تساؤلات افتراضية

ترى فيم كان يفكر الدكتور إيهاب الشريف وهو معصوب العينين؟ لا يعرف أى مصير ينتظره؟ احترمنا فيه رباطة الجأش، ولو كان قد انهار لما كان جرؤ أحد منا على لومه، هل كان يشعر أن لحظته قد حانت؟ وأن قابض الأرواح قابع فى ركن ما ينتظر اللحظة المحددة من الخالق؟ ليكتب على آخر صفحة من كتاب حياته كلمة النهاية؟ هل كان يفكر فى الزوجة التى لم تتخل لحظة عن أمل عودته؟ لتأخذ بيده وتخفف عنه هوان وعذاب التجربة القاسية؟ هل كان يفكر بابنتيه، أول فرحة له: الكبرى إنجى التى اختارت الإعلام للدراسة، دون أن تعلم أن والدها سيكون فى الصفحات الأولى، عنواناً رئيسياً وصورة تتناقلها وكالات الأنباء؟ أم تراه كان يفكر بالصغرى هايدى حبيبة قلب والدها، فالصغير دائماً له معزة خاصة، لأن البشر بالغريزة يحبون من يشعرون أنه فى حاجة إليهم؟ أو لعله كان يفكر فى المسؤولين فى وزارة الخارجية المصرية، ويلومهم فى سره على إرساله للعراق بعد إسرائيل رغم حساسية مثل هذا الأمر؟ وحساسية العراقيين والمقاومة هناك لكل ماله علاقة بإسرائيل؟ يا ترى بما ذا كان يفكر الدكتور إيهاب الشريف فى لحظاته الأخيرة؟ وبمن؟ ربما كان مكتفياً

بالاستغفار وتذكر أن عليه أن يردد الشهادة كما علمه والده في الصغر، ولقد كان رجلاً مؤمناً يصلي الوقت بوقته، والمؤمن دائماً مصاب هكذا قيل، ولم يقولوا أبداً إن المؤمن مقتول، أو بوصف أدق: مذبوح.

من ناحية أخرى: من نعم الله علينا أننا لا نعرف متى نموت وأين؟ لا نعرف اللحظة أو المكان، ولم يكن يتوقع الدكتور إيهاب وهو يستيقظ ذات صباح، ليمارس حياته بشكل عادي، أنه سيخرج من منزله ليُخَطَفَ ويعامل بعنف، بل وتستغل صورته لتوصيل رسالة إلى حكومته، وتكون النهاية على أيدي مختطفيه.

بعض الناس من أمثالي يتشبثون بالأمل حتى اللحظات الأخيرة، فأنا من المؤمنين بأن أية معجزة ممكن أن تحدث وفي أى وقت، ورفضت تصديق قتل الدكتور إيهاب، إلا أن قناة الجزيرة أكدت أنها حصلت على شريط، يؤكد ما حدث دون دخول في التفاصيل، وإذا استمررنا في التفكير، واعدروني على أسئلتى الافتراضية الكثيرة التي أ طرحها اليوم، إذا ما تساءلنا: ترى فيم كان يفكر من أقدم على عصب عيني، ثم ذبح الدكتور إيهاب الشريف؟ سواء أكان أبو مصعب الزرقاوى أم غيره؟ ألم يتردد لحظة ويفترض أنه ربما لا يستحق الموت بهذه الطريقة؟ ألم يسأل نفسه: من يكون هو ليعلم نفسه قاضياً وجلاداً في الوقت نفسه؟ ألم يسمع بحديث رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم الذي يؤكد أن هدم الكعبة أهون من إراقة دم مسلم؟ ولما لم يقتد بإسلامنا الذي يحرم قتل السفراء؟ ورسولنا الكريم كان دائماً يحث على حسن معاملتهم، ولو كانوا آتين من بلاد أعجمية

وكافرة؟ لن أدخل في تفاصيل دينية، فأنا كغيري أقرأ وأجتهد على قدر ما أستطيع، وأدعو الله أن يلهم زوجة إيهاب الشريف وابنتيه الصبر. وفي تساؤلاتي اليوم الكثير مما مر في خاطرهن، إلا أنه لا أحد سيعلم فيم كان يفكر في لحظاته الأخيرة؟ نطق الشهادة وفوض أمره لله، ونطق قاتله النهاية، معتبراً أنه أدّى واجبه نحو الله، والإسلام بين القاتل والمقتول حائر، يجمع بينهما ويفرق.

علامات استفهام

أذكر جيّدًا منذ سنوات عدة، عندما كنت أدرس في جامعة القاهرة كلية الآداب قسم اللغة الفرنسية، أننا استضيفنا مجموعة من الفرنسيين الذين كانوا يزورون مصر للمرة الأولى، وطلب منا أساتذتنا أن نقوم بالترجمة لهم، وفعلنا. وبالنسبة لي لم يقتصر الموضوع على الترجمة، بل تعداها إلى حوارات عن الشرق والغرب، وسمعت عبارات من عينة: "كنا نعتقد أنكم تعيشون في خيام، وتتنقلون فوق الجمال والدواب".. ثرت وقتها بشدة ودافعت، إلا أنني لم أشعر بالنقص، بل اهتمتهم بالجهل، واليوم وبعد مرور سنوات عدة، لازالت حتى الصور الموضوعية للترويج للسياحة في مصر عبارة عن الاهرامات، وسائحين يمتطون الجمال والملابس البدوية، ويتسمون للكاميرا، وإذا مانظرنا إلى الوجه الآخر لوجدنا أننا في هذا، نتحمل جزءًا من المسؤولية إذ لازلنا نسوّق لمصر كبلد يحتوى على ثلث آثار العالم، وهو أمر جيّد بالطبع ورائع، ونعمة من عند الله ليتنا نحافظ عليها، إلا أننا بهذا لازلنا نعيش، ونطلب من العالم كله أن ينظر إلينا، كشعب يعيش في الماضي، في التاريخ، وأنا محبة للتاريخ بشكل كبير، إلا أن التاريخ أيضًا يشمل العلوم، ويتحدث عن إضافة العرب للعالم مثل علم

الاجتماع ومؤسسه ابن خلدون، وعلم الكيمياء والرياضة وفلاسفة مثل ابن رشد وشعراء ترجمت أعمالهم مثل عمر الخيام والقائمة تطول، إلا أن هذا هو التاريخ الذى يسطر فيقول:

إنه فى الوقت الذى كان الغرب يعيش فيه فى الظلمات، كنا نكتب وندون وننير الدنيا حولنا علومًا مختلفة: وأنا هنا أيضًا افعل مثل الإعلان الذى يصور الجمل والأهرامات وأعيش فى الماضى، ولكن الوضع مختلف، فأنا أقصد التذكير والربط، كنا أمهر التجار ودرسنا فى كتب التاريخ أيضًا رحلات الشتاء والصيف، وطريق رأس الرجاء الصالح، والتوابل التى كانت تأتى من الهند، والقطن المصرى الذى احتلت بريطانيا مصر من أجله، والفرق بين الفترتين كبير، أما اليوم فنحن فى تقهقر فظيع.

قررت ذات مرة فى نوبة حماسة وطنية انتابتنى، أن أرفع شعار "اشتر منتجات بلدك"، وبدأت فعلاً أرددها فى كل براجمى إلى أن التقيت بمسؤولين اقتصاديين، وبمجموعة من العارفين بالأمر وكان الاكتشاف الرهيب، اكتشاف ليس من نوعية اكتشافات جابر بن حيان أبو الكيمياء: ليس فى مصر منتج واحد مصرى مئة بالمئة، ولا منتج، حتى مايكتب عليه "صنع فى مصر". تكون العلبة مثلاً مستوردة أو الغطاء أو أى ملحق آخر، ولا أفهم السبب، مصانع الحديد والصلب التى درسنا عنها أيضًا، هذه المرة فى كتب الجغرافيا والقراءة، إما تباع أو تخسر، عجيبة، ومصانع النسيج لا نعرف عنها الكثير، ولكننا نسمع عن السجاد الأصفهاني والإيراني، المنسوجات القطنية، لا

أعرف سوى أن أسعار الأقمشة في ارتفاع كبير، وأنتك إذا دخلت أى محل لبيع الستائر لاكتشفت الأسعار الباهظة، وعند سؤالك فى كل هذه الأمور عن أسباب ارتفاع الأسعار؟ يبدأون فى حوار طويل عن الخامات المستوردة، والجمارك، وأسأل دومًا مالى الذى يجعل بلدًا مثل الصين يعانى كثافة ومشكلة سكانية ينجح فى تحويل هذه الطاقة إلى إنتاج؟ بلد معظم سكانه - وبسبب ظروفهم السياسية - لا يؤمنون بديانات سماوية ويصنعون سجاجيد الصلاة وفوانيس رمضان؟ بضاعتهم رخيصة جدًا، لا أتحدث عن الجودة، بل عن العائد، أما فى بلادنا ففى كل مصيبة يحملون الناس المسئولية، عدد السكان فى تزايد مستمر، صحيح لا يفعلون شيئًا لماذا؟

الآن مصانع تحت السلم بدلاً من أن يتم تشجيعها، مع فرض رقابة شديدة عليها، يتم إغلاقها، والسيدات اللاتى يربين الدواجن يمتن بانفلونزا الطيور، بدلاً من تعريضهن للخطر من الممكن توجيه نشاطهن إلى أمور أخرى منتجة، وفى الوقت الذى نتحدث فيه عن المشاريع الصغيرة والقروض الميسرة، تجد آلاف المعوقات، لست أدرى ما السبب؟ لماذا نفشل فيما نجح فيه الصينيون واليابانيون والألمان، الذين بنوا مدنهم ولحقوا بركب الحضارة فى أعوام قليلة، لماذا بناياتهم مخططة وبناياتنا عشوائية؟ لماذا يقفون فى الصف بانتظار دورهم، ونتسابق كى نأخذ مكان من يقف أمامنا؟ لماذا لم نعد نرى الصورة القديمة للعمال فى ملابسهم الزرقاء إلا نادرًا؟ لماذا نحرص على شراء آخر صيحة موبايلات مهما كانت مواردنا المالية

قليلة ؟ لماذا ننفق على الطعام أكثر مما تنفق شعوب كثيرة أخرى ؟ أسئلة كثيرة، إلا أنني أردد مقولة قديمة تقول: " إن من لا يملك قوت يومه لا يملك قراره"، ولازلنا نستورد كل شيء، من الإبرة - يقال عادة - للصاروخ، ولكن سيرة الصاروخ غير واردة أصلاً، وسؤالى وهو الأخير اليوم لماذا نجح طلعت حرب فيما نفشل فيه اليوم؟ وهل المصريون زمان - ولا نتحدث هنا عن ماض بعيد - غير المصريين اليوم؟ وماذا أفعل وفي رأسى تدور مئات الأسئلة التى لا أمتلك لها أجوبة؟ إلا أنها ملحقة بعلامات استفهام وتعجب فى الوقت نفسه؟!

الدين لله وحده

أذكر جيّدًا مدرسة الراهبات التي تربيت فيها، كانت الراهبات ترتدين أثوابهن المميزة ذات اللون الكحلي، وكن يعطين دروسًا ويشرفن على حياتنا اليومية بمنتهى الصرامة، تعودت منهن أن أعمل حسابًا لمن هو أكبر مني، أن أذاكر كي لا أعاقب أو أوبّخ، تعلمت أن الصلاة جزء أساسي من حياتنا اليومية.

كنت أدخل الكنيسة وأصلي مع زميلاتى فى الفصل، معتبرة أن هذا طقسًا يوميًا عاديًا، إلى أن كان يوم تغيرت فيه الأمور بالنسبة لي، كنت فى المرحلة الابتدائية، وأدخلت المدرسة نشاطات عديدة بعد الدراسة من بينها "اليوغا"، فأعجبت بالفكرة وبدأت بممارسة هذه الرياضة، "معلمتي" أو مدرّسة اليوغا، كانت سيدة شقراء جميلة لازلت أذكرها جيّدًا، فرنسية هادئة الطباع وصوتها يخترق أعماقك، كانت تعلمنا الرياضة وهى تحدثنا عن الدين، وكانت تستفيض فى الحديث عن الروح والجسد، وتقرن كلماتها بحكايات مسيحية عديدة، وبدأت علامات الاستفهام تكثر فى رأسي، وسألت أمي للمرة الأولى: ألسنت مسلمة؟

أفكر في الإسلام بعمق من قبل، وتوالت أسئلتى بعدها عن الصلاة وصيام رمضان، وبدأت أصلى مرادة سورة الفاتحة في كل صلواتي، حتى علمتني والدتي طريقة الصلاة الصحيحة فاتبعتها، إلا أن اكتشافى هذا لم يعن لى أبدًا أن أحول المسيحيين إلى عدو، بل على العكس، حاولت أن أفهم أكثر، وبدأت أدخل الكنيسة، لأدعو معتبرة أنه مكان مقدس، واكتشفت معها المساجد والجوامع، وبدأت أزورها أكثر كلما تقدم بى العمر، وأتيحت لى فرصة السفر، ومع الوقت أحببت دينى أكثر، لأننى شعرت - حتى ولو ولدت مسلمة - بأننى اخترت أن أكون مسلمة، وطفولتى التى كنت فيها محوطة بالكثير من المسيحيين جعلتني أكثر فهماً لهذا الدين المليء بالتسامح والمحبة، فالدين المسيحى، فى أصوله يدعو من يضربك على خدك الأيمن أن تدير له خدك الأيسر، وينبذ التعصب، والإسلام كذلك، رغم أنه دين يؤمن بقوة المؤمن، أفرد سورة فى القرآن الكريم أسماها "مريم" وجاء ذكر سيدنا عيسى عليه السلام عدة مرات، ولى زميل فى العمل مسيحى شديد التدين، ارتاح كثيرًا للعمل معه لثقتى المطلقة فى أمانته المهنية، فهو يعتبر إتقان العمل واجبًا دينيًا، وأليس هو كذلك؟ للمسلمين والمسيحيين؟ زميلى هذا يناقشنى فى أمور عديدة خاصة بالإسلام، وأفهم من كلامه أن هناك الكثير من المعلومات الخاطئة التى وصلت إليه وأشرحها له، وينظر إلى بتشكك، فأستمر فى إبراز البراهين والحجج بما يفتح الله على به، وبما أفهمه من أمور ديني، ويمجادلنى وأجادله، ونهتج حوارنا دائمًا بتساؤل: أرجو ألا تزعل على منى يا مدام رولا، فأقول له: أرجو ألا تزعل منى يا بهاء، ونبقى

صديقين، ونعمل معًا، أعترف أن الأمر غاية في الحساسية، وأنه لولا اتساع أفق بهاء وأفقى، لتحول الموضوع إلى خناقة، فالتعصب للأسف أصبح في الجانبين، وكان الدين هو دومًا انعكاسًا للحالة الاقتصادية السيئة، ففي كل مرة تكثر المشاكل يلجأ الناس إلى الدين، وليتنا نفعل هذا بشكل صحيح، أستطيع أن أزعم أنني إنسانة متدينة، فأنا والحمد لله مواظبة على أداء فروض ديني بشكل كبير، أتقى الله في حياتي اليومية، أدعو ربي صباحًا ومساءً، وأفخر وبشدة بأني مسلمة، إلا أن هذا لم يمنعني عند زيارتي لفرنسا، أن أحرص على أن ترى ابنتي ذات السنوات التسع، كاتدرائية القلب المقدس scare-coeur وتصادف وجود قداس، وطلبت منها أن تخفض صوتها احترامًا للمصلين، ثم قلت لها تمامًا كما كنت أقول لنفسي في طفولتي: ادعي... فنحن في مكان مقدس.. فهل أكون بهذا أخطأت؟.. لا أعتقد.. الخوف والتهديد لم يكن أبدًا من أي دين.. التهديد لا يأتي إلا من معتنقى الدين ومن الجانبين.. وكم من الجرائم ترتكب باسم الأديان.

عن الموت.. فعدراً

قرأت "زمان" قصة تقول: "إن عزرائيل ملاك الموت، أمره الله تعالى ذات مرة أن يذهب و يقبض روح سيدة.. فلما وصل وجدها في صحراء قاحلة ترضع طفلها.. فدمعت عيناه، إلا أنه نفذ أمر ربه رغم رحمته بالرضع. و بعد سنوات طويلة من عمر الأرض، أرسل الله تعالى ملك الموت عزرائيل ليقبض روح رجل.. فوجده شيخاً طاعناً في السن متوكئاً على عصاه، وكان موجوداً عند أحد الحدادين ليطلب منه أن يصنع قاعدة من الحديد يضعها أسفل عصاه حماية لها.. وكان يوصي الحداد بأن تكون القاعدة متينة كي تبقى العصا مدة طويلة.. وكأنه ضمن عمره.. عند ذلك لم يتمالك ملك الموت عزرائيل نفسه من الضحك متعجباً من شدة حرص هذا الشيخ على الحياة، وثقته بأنه سيعيش أعواماً كثيرة قادمة، جاهلاً أنه لم يتبق له على وجه الدنيا إلا لحظات: وتقول بقية الحكاية إن هذا الشيخ الذي أضحك عزرائيل هو الرضيع نفسه الذي أبكاه يوماً".

تذكرت الحكاية وأنا أسمع حكايات الناجين من العبارة الغارقة "السلام 98"، والتي سالت كثير من الدموع عليها، وسال كثير من الخبر عن أخبارها، واستوقفني موقف الناس أمام الموت،

الأم التي كانت تحمل رضيعها في يد وتحاول السباحة باليد الأخرى، وشربت ابنتها مياه البحر بسبب علو الأمواج وتلاطمها.. فشرقت.. واختنقت.. وأسلمت روحها إلى بارئها.. صمتت الابنة.. وكفت عن البكاء.. إلا أن الأم لم تقتنع أن التي كانت تصرخ منذ دقائق قليلة قد صمتت إلى الأبد.. فأصرت على حملها معها.. والسباحة بها حتى عثر عليها رجال الإنقاذ.. فأعطتهم الابنة أولاً قبل أن تعطيتهم يدها لينقذوها.. فصرخوا في وجهها بكل برود.. ابنتك ماتت.. وبين أخذ وعطاء.. وقعت الطفلة في المياه.. وتم إنقاذ الأم التي أرادت اللحاق بالجثة.. والاحتفاظ بها.. ولم تسلم الأم بمرارة الأمر الواقع.. إذ أصبح حلمها اليوم.. العثور على جثة الطفلة.. لدفنها.. وعلى العبارة نفسها كان نبيل.. شاب يعمل في الكويت.. عائد لزيارة أهله الذين يصرف عليهم شقا العمر كله.. نبيل ساعد الكثيرين و هو سباح ماهر، لذا استغنى عن جاكيت الإنقاذ وأعطاه لسيدة أصرت على التعلق برقبتة.. وشدت عليها من خوفها.. وصبر على تعلقها برقبتة أكثر من ثلاث ساعات.. وفي لحظة.. شعر أنها ستأخذه إلى أسفل.. فما كان منه إلا أن استغل أول موجة قادمة لينزع يدها عن رقبتة ويذهب بعيداً عنها.. تصرف بشري بحت.

قال لي: لم أكن أريد الموت كي لا يحزن والدي.. فالبعض يضعف والبعض يصبح أكثر قوة.. والبعض لا يحتمل الصدمة والبعض يصاب بصدمة.. كلنا نعيش ونحن نفكر بالموت معتقدين أنه بعيد عنا.. نسلم بأن الكوارث تصيب الآخرين ولا تصيبنا..

نتمسك بالحياة رغم لحظات المعاناة الحقيقية القليلة التي نعيشها..
ورغم أننا نقضى أيامنا في الشكوى، وعدم الرضا من أحوالنا وأعمالنا
وأولادنا.. فإننا نتمسك بالحياة لست أدري ما السبب؟ ربما الخوف
من المجهول الذي ينتظرنا؟.. أو ربما ضعف إيمان بما يجب أن نعتبره
دنيا الحق؟.. أم هي غريزة حب البقاء التي يعتبرها المحللون
النفسيون أهم الغرائز على الإطلاق؟.. نركض ونسعى و نحارب
ونخسر الدنيا وأحياناً الآخرة.. من أجل طموحنا وأهدافنا.. ولماذا
؟.. ولم ؟.. إننى أشكر الله على كثير من نعمه علينا.. وأهمها.. عدم
المعرفة بموعد و ساعة الموت.. فهي رحمة من الخالق تعالى بنا..
ورأفة.. وعذراً للموضوع.. فنحن ننظر إلى الموت كأمر سوداوي،
قابض للقلب.. مخيف.. وساعد على ترسيخ هذا المفهوم، ما يتردد من
عذاب القبر والتخويف والترهيب منه.. وهنا أحب أن أنظر إلى
الموضوع بشكل آخر، إذ قالت لى واحدة ممن عرفن حكاية السيدة مع
طفلتها " لا تحزنى يا مدام.. ليس هناك على الأرض من هو أحن على
العبد من ربه.. والله رؤوف رحيم.. وهو دومًا عند حسن ظن عبده
به..

نظرية "عزت"!!

كنت أعتقد في سنوات طفولتي أن هناك خطأ فاصلاً، وحداً قاطعاً ما بين الخير والشر، كنت أعتقد دوماً، ولا زلت، أن بداخل كل منا مخزون خير قد يختبئ أحياناً، أو يتوارى أو يتورط الإنسان في أمور ما، لظروف ما، فيجد نفسه في عداد الأشرار، وعندها ينزلق ولا يستطيع الرجوع إلى الوراء، والمجتمع عادة لا يساعد من اقترف ذنباً على التوبة، بل يرشقه بحجارة وطوب وأدوات هدم، لا بناء، ورغم مرور السنين لا زالت مسألة الشر تؤرقني، والموضوع ينام ويصحو، إلا أنه في أوقات يبرز بشكل كبير، يفرض نفسه وأجدني أمام علامات استفهام كثيرة، يعجز عقلي الآدمي عن الرد عليها، فيتعب ويسلم بجهله.

ومن بين المرات التي برزت علامات الاستفهام كبيرة، كانت منذ عامين تقريباً أو أكثر، لا أذكر على وجه التحديد، ذهبت فيها إلى النخيلة، وهي قرية في الصعيد، كانت قد تحولت لأعوام وأعوام إلى مستنقع للمخدرات، أقوى رجل فيها كان عزت جنفى، الذي كان يسمى بالامبراطور لقوته وسطوته، سمعت أقاويل متضاربة عنه، وكنت من أجل تصوير برنامجي التلفزيوني "في العمق"،

مع رجال الشرطة يوم قرروا القيام بهجوم على القرية والإيقاع به، بدأنا النهار مبكرين وأصر رجال الشرطة على بقائي بعيدة، إلا أنني أصررت على القيام بعملى، وما بين شد وجذب قدمت واحدة من أفضل حلقات البرنامج، والتي أعتز بها جدًا، صورت منزله الذى كان مكونًا من طابقين، والذى احتجز فيه الرهائن، حسبما قيل لنا، وصورت منزل أخيه، ولأول مرة فى حياتى رأيت زراعات نبات الخشخاش أو الأفيون المخدر، الذى يدمر عقول الشباب، والذى كان منتشرًا هناك بكميات كبيرة، وقامت الشرطة يومها بحرقه.

وأهم ما فى يومى كان فى ختامه، عندما تمت الموافقة على لقائى بعزت حنفى، الذى كان مصابًا ومجهّدًا، وفى سرير فى المستشفى، محاطًا بحراسة مشددة، حاورته على مدى نصف ساعة تقريبًا، نفى فيها بالطبع الكثير مما وجه إليه من تهم، ثم بدأ يحاورنى حوارًا فلسفيًا، تدخل فيه الكثير من الآيات القرآنية التى كان يحفظها بشكل جيّد، إضافة إلى أبيات شعرية استغربت من معرفته لها، فقال لى إنه محب للشعر، حريص على قراءته، الشعر الذى يكتبه المرهفون من الناس، الذين نصفهم بأنهم الأكثر رومانسية بين البشر، واستغربت حفظه للقرآن، لكننى استغربت أكثر منطقه فى الحياة، إذ أذكر أنه قال لى إن الله الذى خلق هابيل، هو نفسه من خلق قابيل الذى قتل أخاه، لتقوم أول جريمة فى التاريخ، وأن الله هو خالق كل شىء، فلما أجبته بأن الشر من صنع الإنسان لا الله، أجبني بكلمات عن أن الإنسان نفسه من صنع الله، وأداة فى يده.

وما بين شد وجذب، استغربت قناعته بأنه إحدى الأدوات المهمة في الحياة، إذ لا يجوز أن يكون على الأرض خيرٌ وطيّبٌ فحسب، لا بد من وجود الأشرار كي يعتدل الميزان، لن أدخل في تفاصيل أخرى قالها لي، إلا أنني استرجعت حوارى معه، عندما قرأت خبر إعدامه منذ أسبوع، تابعت أخبار مقاومته وإصراره على أن يكون إعدامه قبل أخيه، وكأنه لا يريد أن يتألم عند معرفته بالخبر، أو كأنه يريد أن يتحمل المسؤولية أولاً علّه بفرق اللحظات تحدث معجزة، وتذكرت حبه للشعر، ثم قرأت كيف أنه ردد قبل وفاته مباشرة "حسبى الله ونعم الوكيل" بغض النظر عن كان يقصد، فإننى تذكرت أيضاً ترديده المستمر لآيات القرآن الكريم.

ويرتبط الشر عادة - حسبها يقال - بعادات فنية، هتلر فشل كرسام فتحول إلى السياسة، ونجد الكثير من المجرمين من محبى الموسيقى أو نوع آخر من الفنون، وعزت حنفى كان محباً للشعر، وهذا لم يمنعه من الاتجار فى المخدرات، وعند سؤاله كان يجيبنى بأنه ليس الوحيد فى العالم الذى يفعل هذا، مقتنع أنه مخلوق لهدف، ألا وهو نوع من الشر ضرورى على سطح الأرض، نظرية قد نرفضها، ولكنها صحيحة بشكل أو بآخر، وإلا لبقى الشيطان عاطلاً عن العمل، وأنا أعتقد أنه فى هذه المرحلة من الزمان، أصبح للشيطان جيوش تساعد، لأن عدد البشر أصبح أكثر بكثير، وعملية الإغواء أسهل بكثير، المال أو النساء أو السلطة أبرز الأسلحة المستخدمة، ويشط تفكيرى لأبعد من هذا فأقول: لست أدري لماذا بعد قراءتى لخبر إعدام عزت

حنفى تخيلته كما سيحدث لنا جميعاً، حبس قبره، ويخضع لحساب
الملكين، ترى، أية حجة سيقدمها لهما، هل سيردد لهما نظريته – التى
يجب أن تسجل باسمه – عن الخير والشر؟ لست أدرى؟ علامة
استفهام أخرى لن أجد أبداً إجابة لها.

"طه" يعقوبيان.. وزين الدين زيدان

لست أدري لماذا تذكرت اللاعب الفرنسي والجزائري الأصل، زين الدين زيدان؟ وأنا أشاهد فيلم عمارة يعقوبيان، لا مجال للمقارنة، ولا يوجد بين أبطال الرواية لاعب كرة قدم، ولكن شخصية "طه" ابن حارس العقار استوقفتني كثيرًا.... " طه " الشاب المجتهد، الملتزم، المطيع لوالديه والبار بهما، يساعد والده في مسح السلام احترامًا لسنه... ويلقى من السكان السخرية والإيلام..... وعدم التشجيع... ويحاول دخول كلية الشرطة فيحرم بسبب وضعه الاجتماعي، فيتجه إلى كلية لا يعرف ماهي، لمجرد الحصول على الشهادة... ويحب فتاة تتركه لأنها من فئة المطحونين أمثاله... طه يتحول، ولأنه صيد سهل، إلى إرهابي تستدرجه الجماعات الدينية ويقع في يد ضابط... يعذبه ويهينه... فيقرر الانتقام... ومن هنا لن أدخل في تفصيلا أن أسباب انضمامه... الانتقام وليس الدين... وأن الدين كان مجرد مبرر... بل أتوقف عند نهايته... قاتل ومقتول والسبب... الظروف الاجتماعية السيئة التي لم تحترم قدراته واجتهاده، ومحاولاته المستميتة للخروج، وأن يطفو على السطح.... ليس سطح العمارة.. ولكن سطح المجتمع... المجتمع الذي لا يرحم... ويكتب على "طه" الغوص أكثر وأكثر في القاع.

تذكرت، وأنا أعرف أن الأمر بعيد جدًا، قد يبدو... زين الدين زيدان... ابن رجل جزائري فقير... هاجر إلى فرنسا وأقام في مرسيليا... المدينة التي تشتهر بكثرة الهجرة إليها... وعمل في أحد موانئها، ثم تزوج وأنجب عددًا من الأولاد كان ترتيبه الخامس بينهم.... وعانى زيدان الفقر كثيرًا في طفولته، لدرجة أنه كان يلعب الكرة حافي القدمين... كان يذهب إلى المدرسة كي يستطيع الحصول على ساندوتش هو غذاء تصرفه المدرسة للتلاميذ... ثم يبهر أترابه.... بلعبه لكرة القدم.... وعندما بلغ الرابعة عشر طلب شراء حذاء رياضي، وكان والده يمر بضائقة مالية إلا أنه لم يشأ أن يرد لابنه طلبًا، فعمل طيلة شهر كامل ليشتري له الحذاء، طالبًا منه أن يتحول إلى أسطورة في عالم الكرة، مثل نظيره الفرنسي ميشيل بلاتيني... وانضم زيدان في سن السابعة عشرة إلى فريق "كان" ولعب أمام فريق مرسيليا العريق وبدأ رحلة التألق.... لعب فيها في نوادي عدة آخرها في ريال مدريد الأسباني.... تزوج من فرنسية من أصل أسباني ورزق بثلاثة أطفال، وحقق لفرنسا نجاحات عديدة لدرجة أنهم يفكرون في إقامة تمثال له في مسقط رأسه مرسيليا، وإطلاق اسمه على أحد الشوارع هناك.

زيدان أو زيزو- كما يطلق عليه تدليلاً - أي مستقبل كان ينتظره لو بقي والده في الجزائر؟ لا يفهم من كلامي أي دعاوى لترك البلاد والذم فيها.... ولكن ما وصل إليه الغرب أمور لا تكلفنا كثيرًا... ونحن لانقوم بها.... مراكز الشباب أكبر مثال على ما

أقول.... مالذى نتوقعه من شباب لا يملك مكاناً يمارس فيه أى نوع من الرياضة؟ لأن أكثر من تسعين بالمئة من مراكز الشباب فى القرى والنجوع لاتصلح، لو وجدت أصلاً، ماذا نتوقع من الرياضة والاتحادات كلها مشاكل، السباحة التوقيعية والملاكمة أو ألعاب القوى وكرة القدم والقائمة طويلة؟ كيف نبني إنساناً "صحيحاً بدنياً" والعشوائيات فى كل مكان، تضم بؤراً للمخدرات والإجرام ولا تخلق لهؤلاء بديلاً؟ وكيف تطلب من الشباب أن يقدموا لبلادهم ونردد لهم أغنية "علّيا" الشهيرة " ماتقولش إيه ادتنا مصر، قول هاندى إيه لمصر" ونحن لانؤمن بهم ولانمنحهم أضعف الإيمان، الفرصة.

والرياضة أحد المجالات التى تمتص الكثير من الطاقة والغضب الذى يخلقه الملل، تخيل زين الدين زيدان لو ولد وأكمل حياته فى الجزائر، وظروف الجزائر تشبه بشكل كبير ظروف مصر، ومعاناتها مشتركة والظروف الاقتصادية والأبعاد والموروثات الاجتماعية تتشابه إلى حد كبير... لكان اليوم إمّا عاملاً فقيراً مثل أبيه أو لاعب كرة فى أحد مدن الجزائر، يحاول شق طريقه وإيجاد عقد احتراف مع نادى أوروبى، إلا أنه لم يكن أبداً ليصل إلى الخمسة والستين مليون يورو التى دفعت فيه مقابل انتقاله للعب مع ريال مدريد، لا أقصد أن أكون جارحة، فهناك استثناءات بالطبع، ميدو "أحمد حسام" وعمرو زكى وحسام غالى ومروان شماخ وحاتم الطرابلسى - التونسى، ونور الدين نيت - المغربى، والقائمة طويلة، أتحدث أيضاً عن الرعاية، عن الاحتواء، عن إحساس زيدان بأن فرنسا بحاجة إليه، فبعد

أن قرر الاعتزال عدل عن قراره كتحية واجبة لبلد احتضنت موهبته وشجعته، ولم تسأله عن أصله وفصله، زيدان وهو يلعب مبارياته مع البرتغال قرأ الفاتحة قبل بدء المباراة، ووضع كفيه على وجهه كما نفعل عامة، وعند إحراز هدف كان ينظر إلى السماء ليحمد الله.

لست أدري إن كانت قد وصلتكم مقارنة "طه" "بزيرو"، الظروف الاقتصادية للبلاد تلام وتتحمل المسؤولية، ولكن أمورًا كثيرة من الممكن أن تحل من جذورها، ولست أدري لماذا نعيش دون تخطيط ونتذكر أمورنا فجأة، ثم نهملها، وبدلاً من أن نغير حياتنا نحلم بأن يخرج من عندنا لاعب، بمهارة زين الدين زيدان، نعمل على تجهيزه، لن أدخل في تفاصيل عن الفساد في عالم الرياضة، ولكنني دائماً أقول، وصلت بنا الأمور لحد القول: يا أخى "نفع واستنفع" لأى مسئول مقابل ما يحصل عليه فليقدم ولو القليل، بدلاً من الاكتفاء بتسيير أمور حياته وتأمينها.

طه الشاذلى نموذج نجده كثيراً، وسنجدّه أكثر، لو لم نمنح للشباب فرصة التعبير عن مواهبهم، ونوجههم في طريق العلم، والرياضة ونقدم لهم التسهيلات والتشجيع اللازمين، لا أحب أن أكرر كلاماً قيل كثيراً، ولكن يبدو أنه أصبح قدراً أن نعيد ونزيد في أمور تعداها الغرب منذ سنوات، ونحن لازلنا نحاول تهجئتها، كم تتعبنى المقارنة ولكن ليس هناك سبيل آخر، والله يا أهل الكلام تعبنا من الكلام.

إلى الدكتورين: نظيف والطيب

رغم أن أحمد نظيف قد نفى التصريحات المنسوبة إليه، وهو يحدث الشباب في معسكر أبو قير الصيفي، عندما نسب قوله "إنه يجب ألا نتوهم الوقوف ضد إسرائيل بالسلاح"، دون دخول في أسباب عدم الاستطاعة من معاهدات سلام أو أسباب أخرى، وهى التصريحات التى نفى نظيف أنه قالها، فإن نشر هذا المعنى حتى لو تم نفيه يثير قضايا مهمة.

ومن الناحية الأخرى، ومع احترامى الشديد أيضاً للدكتور أحمد الطيب، رئيس جامعة الأزهر، فإن وصفه لأحد الطلاب عنده في مؤتمر صحفى بأنه "تلح" لأن الطالب مؤمن أنه صاحب رسالة وعليه الاشتراك في المظاهرات، لهذا فإن الدكتور أحمد الطيب يترك الطالب للأمن، لأن مهمة الطالب الأساسية هى تحصيل العلم وليس توزيع المنشورات، فإذا كان مسئولونا يفكرون هكذا، فما الذى نتوقعه من شبابنا؟

تخيّلوا لو أن السبعين مليون مصرى فقط قاموا قومة رجل واحد، ولا أريد لأحد أن يردد أقوالاً عن الأسلحة الاستراتيجية والصواريخ، وأنا هنا لا أدعو للحرب، وإن كنت أعتقد

أنها ما دامت حاصلة في لبنان فهي حاصلة في كل الوطن العربي، ولكن أن نقول إن مجرد التفكير في الوقوف أمام إسرائيل أو ضدها وهُم، فهذا أمر، مع احترامي الشديد يا دكتور، وبغض النظر عن صحة التصريح من عدمه، أرفضه، وعندما تأهب وفد شعبي للذهاب إلى لبنان، وكان مصحوبًا بوزراء وبرسميين، تمنيت أن أكون معهم، وكل من عرفت وسألت تمنى أن يشارك بالزيارة، أعرف الكثيرين ممن تبرعوا بأموال وبأشياء عينية لمساعدة الناس في لبنان، أي جيل - وهو الذي ينظر إليك ويعتبرك قدوة - تتوقعه؟

ولو أن إسرائيل التي لم نتعود منها عبر التاريخ أبدًا، أي حفظ للمعاهدات، لو أنها قررت يومًا بعد القضاء على لبنان أو تقسيمه كما فعلت في العراق، عندما زرعت ما هو أشر من الاحتلال، هي وحليفتها المخلصة أمريكا، الحرب الأهلية بين السنة والشيعة، أن تولى وجهها لمصر، ومن قال إنها لن تفعل، لن تزرع مثلاً في مصر حرباً بين المسلمين والأقباط؟

دكتور نظيف، نحن كنا سعداء جدًا بوصولك إلى ما أنت عليه، وزير شاب، على درجة عالية من العلم، يحترم التقدم العلمي والتكنولوجيا، أذكر مرة، وكنت أشارك في حملة مستشفى سرطان الأطفال لجمع التبرعات، أنك كنت مع وزراء آخرين وكنت من بين قلة ممن ارتدوا تى شيرت وجروا من أجل الخير، في الوقت الذي حرص فيه الوزراء الآخرون على الاحتفاظ بالبدلة والمشى ببطء كى لا يتأثر "البرستيج"، ركضت إلى جانبك سعيدة متفائلة،

فرغم ضالة التفصييلة، فإنها كانت تعتبر في مجتمع تعود على البدل والكرافات تغييرًا كبيرًا، وأصبحت رئيسًا للوزراء، فسعدت وسعد معي كثيرون بوصول شاب رئيسًا للوزراء، ولن أدخل في تفاصيل الوزارة، وما قامت به أو لم تقم، فالمجال ليس هنا، وأعود في الوقت نفسه إلى ما قاله الدكتور الطيب، من أن الطالب "التلح" هو الذي يخرج في مظاهرات، ويصر على موقفه، حرمانا إذن الطلبة من التظاهر لأن الفعل يعتبر عملاً تليحًا، وحرمانهم من الحلم حتى باحتمالات النصر في يوم من الأيام.

كيف نتصر ونحن أصلاً لن نحارب، ونحن أصلاً لا نستطيع أن نحارب، أنا يا دكتور مع السلام، ومع احترام الآخر وثقافة الآخر وديانة الآخر، ولكن بعض الأمور يجب أن نتعلمها من التاريخ، التاريخ يقول إن اليهود لم يحفظوا عهود نبيهم، هم أصحاب أشهر المجازر في التاريخ الحديث، قانا مرتين، و"صور" و"بعلبك" و"مرجعيون" و"الشيح" و"صيدا" و"غزة" و"دير ياسين"، وأسماء مدن كثيرة في لبنان وفلسطين ومصر، لم يرحموا يوماً أطفالاً أو نساء أو شيوخاً، لم يفرّقوا يوماً بين الشعوب، ما دامت الجنسية عربية.

الإسرائيليون هم الذين قال أحد قادتهم بعد قانا عام 96 لأحد جنوده: لا تشعر بالذنب، فلو مات عربي فغيره كثر، وهم دائماً يقولون هذا، المعنى ببساطة "العدد في الليمون" وماذا يفعل كل هذا العدد؟ والله يا دكتور لو قام فقط لأكل بنى إسرائيل و"قرقشهم" على طريقة أكلة لحوم البشر، ولكن الحكومات المتتابعة نجحت في إلهاء

المواطن عن أى أحلام بالنصر أو الفخر، أصبح ملهياً بقوت يومه، وقوت عياله، والأسعار فى ارتفاع مستمر والرواتب على ما هى عليه، ووعود ووعود، لا صناعة محلية ولا تصدير، فكيف نصبح أقوياء إن كنا لا نملك قوت يومنا؟ الصين واليابان حتى تركيا والسعودية، تحيل، السعودية، الصحراء المقفرة أصبحنا نشترى منها منتجات كتب عليها "صنع فى السعودية"، ما علينا، أذهب إلى موضوعات ليست محور حديثى اليوم، أعود فأقول: أى جيل هذا الذى سيخرج؟ وهو مؤمن بأن بلده غير قادر على المواجهة؟ وإن بلده أضعف من أن تواجه إسرائيل؟ أى بعبع هذا الذى نريه لأولادنا، ونخيفهم به فيتحول إلى كابوس يحلمون به.

أى سلام هذا المبني على جثث الأطفال والنساء والشيوخ؟ أى سلام هذا وعلى حدودنا يموت جنود بين الحين والآخر بسبب حادث عرضى أو "تصرف" غير مسئول؟ "حسب التصريحات الإسرائيلية، أى سلام سننجح فى إقناع شعوبنا به وهم يرون المذابح تنتقل من بلد إلى آخر؟ والجنسية للقتلى واحدة: عرب، لن تنجح السياسات أبداً فى أن تفرق بين الشعوب، ونحن يا دكتور قادرون على محاربة إسرائيل، وعلى الانتصار عليها لو أردنا، وشبابنا بخير، وأنا هنا لا أردد شعارات بل حقيقة، لن تنجح تصريحات المسؤولين فى تغييرها، وإن كانوا حقاً لا يريدون حرباً فأقل المطلوب موقف، فنزويلا سحبت سفيرها مشكورة، ولم نفعل، وبكى السنيورة، وكانت فى دموعه دموع كل العرب، والنصر آت من عند الله، مع تحياتى للدكتور نظيف والدكتور الطيب.

دماء ملوثة!!

بعينين تورمتا من كثرة البكاء، حاولت جاهدة إخفاءها بالماكياج، قرأت زميلتي نشرة الأخبار، كنت أعلم أن والدتها مريضة في المستشفى بعد وقوعها في منزلها، مما تسبب في شرخ حوضها، ونقلتها زميلتي للمستشفى للعلاج ووضع المسامير، وما إلى ذلك من طرق علاج لمن تقدموا قليلاً في السن، انتظرت حتى انتهت من نشرتها وسألتها عن صحة والدتها، وهنا بدأت في البكاء، وحكت لي تطورات ما حدث، وهو أمر بالنسبة لنا كبشر عاديين - نؤمن أن مهنة الطب هي الشفاء، وأن المستشفيات للعلاج - كان صادمًا للغاية، ما حدث هو أنه كان يجب وبسبب إصابة والدتها بالبرد، ألا تترك راقدة على ظهرها لأن هذا سيجعل "البلغم" يتجمع في صدرها، وأنا هنا أقول على قدر ما فهمت، بل كان يجب أن يجعلوها تجلس، ولم يفعلوا، وذات ليلة وزميلتي ساهرة قريبها، أحسّت بها تحتق فسارعت بطلب المساعدة، ونقلت في ساعتها والدتها إلى العناية المركزة، ووضعت على جهاز تنفس صناعي حتى الآن، لا شيء حدث، حتى الخطأ الذي تسبب في تدهور الحالة غفرته زميلتي ولم تعتبره إهمالاً، كان يسمح لها بزيارة والدتها ساعة واحدة في اليوم، وداخل العناية المركزة القرار الأول والأخير للطبيب المسئول.

وذات يوم وبعد أسبوعين تقريباً من وجود السيدة في غرفة العناية، وأثناء إحدى زيارات الابنة لها، قالت لها إحدى الممرضات: الحمد لله، الهيموغلوبين تحسّن، والبركة في كيس الدماء الذي أعطيناه لها، "كيس دماء؟" وسألت الابنة، ومن أين أتيت به؟، أجابتها: عادي.. من المستشفى، لاحظ الدكتور أنها تعاني من أنيميا وضعف، فطلب تزويدها بكيس دماء، وسكتت الابنة، ولم تعلق، وفي اليوم التالي وأثناء النظر إلى نتيجة التحاليل لاحظ الطبيب أن الأم قد أصيبت بفيرس سي، وانهارت الابنة، وعرفت أن السبب هو كيس الدماء الذي نقل إلى أمها، فالتحليل عند دخولها المستشفى كانت تؤكد أنها سليمة مائة بالمائة، واعترضت وصرخت، وكانت الإجابة من الجميع: المسؤولية تقع على المعمل وليس علينا، ولكن كيف تتعامل المستشفى مع معمل يمكن أن يخطئ، الإجابة: المعمل من أفضل معامل التحاليل في مصر، ومن المفترض أنه يقدم أفضل خدمة، ولكن من المستحيل تحليل كل كيس دماء لأن الأمر يتطلب مبالغ مالية باهظة لا تستطيع المستشفى والمعمل تحمله، وأصيبت السيدة بفيروس سي من كيس دماء لأحد المتبرعين المصابين، والله أعلم لو تبرع وهو يعلم بإصابته بالمرض أو لا يعلم، لو تبرع من أجل الخير، أو لا، وما الفرق؟ المهم أنه تبرع ولم يجر المعمل التحليل بسبب ارتفاع التكاليف، والكارثة، أنه يدخل يومياً عشرات الأشخاص إلى غرفة العناية المركزة، ونما العدد بسبب حوادث المرور، ومعظمهم من الشباب، الذين لا يزالون في بداية حياتهم، ويحتاجون إلى نقل دماء بشكل سريع ومن يدرى أى دم ينقل

و لمن لا يعلم فإن فيروس سى يسبب مرض الالتهاب الكبدى، وفى 85 ٪ من الحالات يكون الالتهاب مزمنًا، ولا يتخلص الجسم من الفيروس، وعند بعض المرضى يحدث التهاب كبدى مزمن نشط، ويدمر الكبد ببطء على مدى سنين طويلة، وبالتالي مع الوقت قد يؤدى هذا الالتهاب المزمن إلى تليف بالكبد وفشل كبدي، وفى بعض حالات تليف الكبد المتقدمة قد يحدث سرطان الكبد، وعادة لا يشكو مرضى الالتهاب الكبدى من أعراض مميزة، وعلى عكس الأنواع الأخرى من الالتهاب الكبدى وأعراضه غير محددة، وتكون عبارة عن إرهاق، آلام بالمعدة، وطفح جلدي، ولكنه ليس له أعراض واضحة فقد لا يعلم كثيرون أنهم يعانون من المرض، فيصبحون مصدر عدوى للآخرين، لأن الطريقة الوحيدة للتشخيص تكون عن طريق عمل تحليل دم، لذلك يجب على الأطباء والمرضى استخدام أدوات طبية معقمة خصوصًا الحقن وارتداء القفازات، الوضع نفسه للطباخين فى المطاعم أو المتعاملين مع الأطعمة بشكل عام، أعلم أن كل هذه الأمور معلومة، ولكننى أردت التنويه عنها، لمن لا يعلم.

ونعود إلى زميلتي، ووالدتها والفيروس سى، والإحساس بالعجز أمام المريضة خصوصًا إذا ما كانت الأم، والدم الملوث، وأسئلة كثيرة تفرض نفسها، وقع حظ السيدة العاثر فى فيروس سى، ماذا لو كان المتبرع من مدمنى المخدرات، وهم يلجأون أحيانًا للتبرع بالدم من أجل شراء ما يحتاجونه من مخدرات، ماذا لو كان مصابًا بالإيدز؟ وما معنى أن تكاليف التحليل عالية؟ وبالتالي المعامل لا تستطيع

تحليل كل الدم الذى يصلها، وسوف أُتهمَّ طبعًا بأننى أثير الهلع، لا بأس، أنا راضية، ولكن لست أنا من يثيره، والحل ليس فى إخفاء رأسنا كالنعام، وفيروس سى منتشر بين أفراد الشعب المصرى بشكل كبير، ويبدو أن ما يحدث فى المستشفيات سوف يساعد فى انتشاره بشكل أكبر.

الرقابة، مشكلة المشاكل عندنا فى مصر، شاطرة وماهرة فى الصحافة والأدب والسينما، أى ما يخص العقول، وغير موجودة فيما يخص الصحة والبشر، والأغرب والأعجب والمثير للغضب حقًا، ما قالته لزميلتى إحدى المرضيات: "لماذا أنت غاضبة يا مدام، الفيروس يأخذ وقتًا قبل أن ينتشر، ووالدتك سيدة مسنة لن تعيش طويلاً بأى حال من الأحوال". تخيلوا، هل تصدقون ما قرأتموه، أنا كتبت كى لا أصمت، اللهم قد بلغت، اللهم فاشهد.

العلم وأهله

لست أدري كيف يمكن أن نتقدم ونحن على هذه الحال؟ أموال البحث العلمي بالملايين، وبراءات الاختراع توضع في الأدراج، والعلم الذى نادى به فى أشعارنا تحول إلى مناهج عقيم، لا تتحدث إلا عن السلام والسياحة والبيئة؟.

لست ممن يعتقدون أن الماضى هو الزمن الجميل، وأن المستقبل هو بالتالى الزمن القبيح، ولكننى ممن يتوقفون أمام كل شيء، وهذا دفعنى لوضع كثير من علامات التعجب فى حياتي، فلو راجعت مكتب التنسيق بعد ظهور نتائج الامتحانات، ستجد أن الأغلبية من الطلبة يريدون دخول كليات نظرية، وكلية العلوم التى من المفترض أنها تخرج العلماء، الذين يسرون بالبلاد إلى الأمام، ينظر إليها على أنها كلية من لا مستقبل له، والحق يقال، معهم حق، مآل خريج كلية العلوم مدرس كيمياء أو فيزياء، ولو ساعده الحظ وكان مدرسًا شاطرًا سينجح فى استقطاب التلاميذ إلى مجموعات أو دروس خصوصية، وحول حياته إلى منبع لا ينضب من المال، ونسى السبب الرئيسى الذى من أجله دخل كلية العلوم، اللهم إلا إذا كان الآن قد عرف السبب، وأصبح الآن هناك من يحدد هدفه من البداية، وفى

كليات العلوم لا تجد ما تحتاج إليه من أساسيات عملية، من معامل مجهزة على أحدث مستوى وأدوات وما إلى ذلك، ولست أدرى كيف لا تفهم الدولة أن هذا الأمر أحد أهم ما يجب أن يوضع في عين الاعتبار؟ لماذا يسافر طلابنا ويتفوقون في الخارج؟ وهنا يدفنون أحياء بتحويلهم إلى موظفين؟ ولماذا بدلاً من تشجيع الطلاب على الابتكار نسخر منهم ونفقدتهم أية حماسة أو ثقة بالنفس؟ النموذج القدوة أصبح اليوم مسخاً مستورداً من بلاد عدة، يا ليتنا أخذناه من الغرب، لم يحدث، بل أخذنا أسوأ ما في هذه البلاد وشعوبها، ملابس غير متسقة مع ثقافتنا مما تدنى معه المستوى الاجتماعي، وثقافة الكاسيت و التيك أواي.

تجد عائلة محدودة الدخل وتصر على أكل التيك أواي، وكأن البامية والملوخية تذكرانها بظروفها الاقتصادية، والتيك أواي هو طريقة الصعود لأعلى، وإذا ما عدنا للبحث العلمي، لا أستطيع إلا أن أعود لماضي بعيد، وأذكر، لعل الذكرى تنفع، علماء المسلمين الذين أسهموا في نهضة علم المعالجة بالعقاقير؟ بل ويعتقد أن كلمة "drug" أى عقار طبى أصلها عربى، وأنشأوا مدارس الطب، وأول معهد طبى أنشأه رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم فى مسجد المدينة، بعد هجرته فى السنة الأولى، وأول دار حكمة هى دار الحكمة القياسية التى أنشأها هارون الرشيد فى القرن الثانى الهجرى، وجمع له البرامكة أندر الكتب من الهند وفارس واليونان، ونشطت الدار بشكل أكبر فى عصر ابنه المأمون الذى كان معروفاً عنه حبه الشديد للعلم

والأدب، والعرب هم أول من جعل التدريس أحد واجبات الدولة، وأول من عرف تأمين الطب والعلاج المجاني.

إذا ما أكملنا المسيرة المشرفة لابد وأن نذكر أسماء الرازي، الذى وضع موسوعة طبية كاملة، وابن سينا الذى كانت كتبه تدرس فى أوروبا فى العصور الوسطى، ولأن الطب ليس من الممكن الاكتفاء به من الناحية البيطرية أنشئت "البیمارستان" و"بیمار" تعنى المرض، و"ستان" تعنى مكان، أى أن معناها مجتمعة تعنى مكان المرض، ثم حورت فى العصور الحديثة إلى كلمة مارستان، وأصبحت لفترة طويلة تطلق على دور العلاج العقلي، حتى صارت شائعة فى اللغة العامية، وكان الطالب مجبراً على قراءة كتب عديدة قبل أن يتخصص، ويختار بنفسه أساتذته ومواده، أما اليوم فالمجموع هو الذى يختار.

أنا أستغرب بشدة أحوال بلادنا، الكل يريد أن يصبح صحفياً أو شاعراً أو مطرب فيديو كليب، خصوصاً لو كانت فتاة مؤهلاتها تسمح لها، أو أحلام الشهرة السريعة تطارد الشباب وتسيطر على عقولهم، والدولة لا تنتج ولا تصنع، وتعتمد بشكل أساسى على الاستيراد، لابد أن تكون شعوبها استهلاكية، وشعوب الخليج استهلاكية، ولكن لأن لها عائداً من البترول يسمح لها برفاهية الاستهلاك، ولو أنها بدأت تعى أهمية الإنتاج والسياحة، ولم تعد تعتمد على عائدها النفطية فقط، لست أدري ما أسباب تراجعنا؟ الموضوع ليس اقتصادياً، فالهند أصبح لها برنامج نووي، والصين تحولت إلى غول اقتصادى كبير، وألمانيا دمرت فى الحرب

العالمية الثانية وعادت مصانعها ومتاجرها وجامعاتها، المصرى يمشى بالبركة، ويبدو أن الحكومة أيضًا تمشى بالبركة، ذكية أو غبية، لا يهم، لا تزال جامعاتنا تستورد جامعات بريطانية وكندية وفرنسية، وتراجع جامعاتنا المحلية، خصوصًا في التخصصات العلمية، وبعد أن كان العلماء يجلسون ويلتف حولهم مريدوهم وتلاميذهم، ويفخرون بأنهم تتلمذوا على يد فلان أو علان، أصبح العلماء إمّا يحلمون بالهجرة، أو يرضون بالأمر الواقع، ويستسلمون له، والمستقبل لا يبدو مضيئًا، فأفقر أنواع الفقر، فقر العلم، وإذا كانت هناك استثناءات ورجال يعلمون وسط هذه الظروف السيئة، فهم أبطال، علماء تمسكوا بعلمهم وآمنوا به، مثل من تتلاطمه الأمواج وهو في قارب صغير بشراع.

تحية لهم، ونداء استغاثة، الحقونا، إسرائيل تقدمت بمراحل عنا، أصبحت أكثر الدول تقدمًا في المنطقة، ما الأسباب والحجج؟ لست أدري، ما أعلمه أن سوق الفاكهة شغال الله ينور، قلنا زمان "الفراولة بتاع الفراولة"، واليوم أصبحنا نغنى للعنب، ويا قلبى لا تحزن.

أسئلة إلى عواد الذي باع أرضه

يبدو أن بعض الناس، يحملون على أكتافهم قَدَر طرَح الأسئلة، والموضوع ليس سهلاً، صدقوني، تسأل وتَسأل وتَسأل نفسك، وتَسأل الآخرين وتتوقع من نفسك ومن الآخرين إجابة، والإجابات عادة لا تكون شافية أو وافية، أنا من هؤلاء الأشخاص، الذين إذا ما دخلوا مطعمًا وكانت الخدمة سيئة سألت المسئول عن السبب؟ واعتبرت أنني عندما أقول له إن الطبق ينقصه شيء؛ أو أن طعمه على غير ما تعودت، فإنني أسدى له خدمة، كى لا يخسر زبائنه، ابنى فاجأنى ذات مرة بقوله لي: يا أمى إنه يسايرك فقط، الطبق الذى أعدته سوف يقدم لغيرك، واكتشفت أن ابنى المراهق أكثر واقعية منى، وإذا مارأيت أحدًا يقوم بأى عمل اعتبر - من وجهة نظرى - أن به تقصيرًا أو إساءة، أوجه الملاحظة فتكون النتيجة نظرات استغراب و"كلام فض مجالس"، أمى كانت دومًا تقول لي: "لن تنجحى فى تغيير العالم"، لكننى مع الوقت ومع فتور الحماسة فى أحيان كثيرة، ومع فتح فمى للكلام ثم قوله بسرعة يأسًا، إلا أنني أجدنى من حين لآخر أعود لطبيعتي، والبنى آدم الطبع فيه غلاب، ومن الأسئلة التى تحيرنى هذه الأيام:

لماذا كانت مصر طول عمرها - حسبنا درّسوا لنا فى

المدارس - دولة زراعية؟ وفُضِّحَ في وقت من الأوقات عواد حين باع أرضه فضيحة لا تغتفر، وأن الأرض كالعرض لا يجوز التفريط فيها، والآن الكل يبيع، عواد وإخوته، وحتى أعمامه وأخواله.

التقيت بسيدة فاضلة، كان والدها يمتلك أراضي زراعية كثيرة فسَّرت لي الموضوع ببساطة، أرجعته إلى أيام كان الشعب المصرى يغنى فدادين خمسة، خمس فدادين، وتبين أن من كان يمتلك مئات الأفدنة، كان يرعاها لأن عائدها كبير، أما الفدادين الخمسة فما الذى يجنيه الفلاح منها؟ إن أتى بفلاح يساعده والأسمدة والمصاريف، فالموضوع لا يستحق، ويسافر عادة أولاد هذا الفلاح إلى الخليج، يعملون بالفاعل هناك، ويعودون بالكاسيت والمروحة، وتصبح وظيفة الفلاح لا تليق بهم، يريدون البيت المبنى، والعروس تريد التليفزيون والغسالة، وهو يريد الدش، والحل في بيع الأرض والسفر، وتباع الأرض ونتحدث عن الاستصلاح، ونقرأ عن الأرض الممنوحة لشباب الخريجين، ونزورهم فنجدهم قد آمنوا بحلم وتمسكوا به، إلا أن الأرض صعبة وعنيدة، تأخذ من عمرهم السنين التى تمر بسرعة ليصبح عليهم عبء تسديد الفواتير للحكومة، فيحاولون. وفي النهاية يتركون الأرض والحلم بعد رحلات طويلة في المكاتب الحكومية.

وقرأنا أيضًا أن مصر بلد صناعية، طلعت حرب الرجل والميدان الذى يحمل اسمه، والتمثال المصنوع بشكل أفضل كثيرًا من قلل الفخار المنتشرة في كل مكان ولا أفهم معناها، نجح في

إنشاء مصانع، وكانت مصر من أجل قطنها تدفع ثمنًا غاليًا، احتلالاً
بريطانيًا وحملة فرنسية قبلها، وكان أحمد شوقي يكتب:

نحن أرباب الحرف

ليس يعنيننا الترف

ولنا كل الشرف

أننا نحى المهن

كتب أحمد شوقي ذلك فخراً واعتزازاً بالحرف والبدل الزرقاء،
واليوم نسمع عن مصانع تغلق، وعمال يتم الاستغناء عنهم، ونردد
يوميًا شجّعوا المنتجات المصرية، ونبحث فلا نجد منتجًا واحدًا مصريًا
مائة في المائة، يعنى لا صناعة ولا زراعة ونسأل، فيقال: تعداد السكان
يلتهم كل شيء، ويأتى سؤال آخر منطقي ولكن الصين تعدادها تعدى
المليار، وهى من أكبر الدول الصناعية فى العالم، فتأتى إجابة أخرى:
الحروب التهمت مواردنا، فيأتى سؤال آخر منطقي: اليابان وألمانيا
دُمّرتا فى الحرب العالمية الثانية، وقامتا بشكل أفضل بعدها، ويأتى
التبرير الثالث الذى أجده كسابقه غير منطقي: الفقر، فأذكر الهند،
فقد دعا الاتحاد الأوروبي، العلماء والباحثين الهنود للمشاركة فى
برامجه، وميزانية الأبحاث العلمية الأوروبية تبلغ 70 مليون يورو،
وتستمر سبع سنوات، الاتحاد الأوروبي اعترف بالعلماء الهنود الذين
كانوا مادة دسمة للهزل فى النكات والأفلام وأشهرها فيلم "الحفلة"
لبيتير سيلرز.

السكان ويزيد عددهم على المليار، إذن لا زراعة ولا صناعة ولا علم، ما الذى تبقى؟ الصحة، فى الهند أيضًا نجحوا فى تصنيع أدوية بأسعار منخفضة، وفى حين تعتبر الصين رائدة فى صناعة "الهارد وير"، ومتقدمة بأشواط على جارتها الهندية، فإنها بالبقدر نفسه مختلفة عن الهند فى صناعة "السوفت وير"، صحيح أن الصناعة الأخيرة فى الصين بدأت فى السنوات الأربع الماضية، تنمو بمعدل 30 فى المائة سنوياً، غير أن الصحيح أيضاً هو عجزها عن مجاراة الهند فى التصدير، ومعدل عائدات الصين من هذا القطاع 3 بلايين دولار، بينما الرقم الهندى وقف على أعتاب 17 بليون دولار، هذا عام 2004، الأمور إذن اليوم أكيد أفضل، وسؤالى هو لماذا؟ لا صناعة ولا زراعة ولا علم؟ حتى السياحة أول ما يحذرون منه السائحون عند قدومهم إلى مصر هو المتسولون، أما العاملون فى الفنادق والمطاعم، فحسنة وأنا سيدك، يهتمون بالعرب القادمين من الخليج أكثر من الأوروبى السائح، على اعتبار أنه تعلم من كثرة ما سمع، "جيف مى بقشيش" ألا يعطى، ويذهب إلى بلاده محتفظاً لا بصورة الأهرامات، وإنما بصور المتسولين المنتشرين فى كل مكان يذهبون إليه.

أعتذر إن كنت قد رسمت صورة قاتمة، ولكننى أشعر بالحسرة، لن أتحدث عن حضارة السبعة آلاف سنة، وإن كنت أعرف أنها مصدر فخر حقيقى، وصحيح ولا يجوز التشكيك فيه، ولكن لم نحسن استخدام هذا التاريخ، تحولنا إلى شعب يمد يده طول الوقت، طالباً إعانة، سواء من الحكومة، أم الأمريكين، أم السياح على

شكل بقشيش، ونستيقظ صباحًا، وطوابير تطلب التوظيف في الحكومة، وتدخل هناك لتنضم إلى القائمة الطويلة من البطالة المقنعة، وتجده من يحلل لقمة عيشه، بل وصل الأمر إلى اعتبار راتب الحكومة فرض عين عليها، لا يجب القيام من أجله بأى عمل، أما أية مهمة تسند فأمامها استهارة فلوس، وكأن مال الحكومة حلال أن نصرفه، حرام أن نتعب فيه، إتاوة نفرضها على الحكومة، والحكومة لديها عائدات كثيرة، أعلاها من قناة السويس، والبترول وعائدات أخرى، وتصرف وتصرف، ونحن لا نشعر، لأننا لا نرى، نسمع عن مليارات تدخل الخزانة، وأحوال الطب محلك سر، والتعليم مجاني بالاسم فقط، ولا زراعة، ولا صناعة، ولا علم، جامعاتنا في ذيل قوائم الجامعات في العالم، والمصرى يقرأ، لو قرأ، نصف كتاب في العام، أى حتى الثقافة تختفي، وأعود وأردد السؤال الذى يتعبنى وأردده لنفسى يومياً لماذا؟ لماذا؟ وأى مستقبل ينتظر أولادنا؟ وهل سيأتى اليوم الذى بدلاً من الهجرة إلى الولايات المتحدة، سيهاجر أولادنا فيه إلى الصين والهند؟ ربما، حتى السينما، أصبحت عندهم صناعة تسمى بوليوود، تدخل عائدات كثيرة للبلد، ما الذى ننتظره حتى نتحرك؟ لست أدري، ما الذى يعوقنا عن التقدم؟ لست أدري، ربما نحن شعوب لا تتركب الأفيال، بسيطة نستوردها، لو كانت هى الحل، فلن ننجح فى تربيتها، وعجبي.

FARES_MASRY
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الابتسامة



2

ثقافة الشعب المصرى

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾

صدق الله العظيم

قرآن كريم

سورة الرعد

FARES_MASRY
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

ثقافة الاعتذار

أذكر مرة أنني دعوت صديقة، للاحتفال بصديقة عائدة من السفر إلى منزل والدتي، ثم غيرت المكان إلى منزلي، وأخطرت كل من اتصل بي، ونسيت أن أخطر صديقتي هذه فذهبت إلى منزل والدتي، ثم عادت إلى منزلها غاضبة غضباً شديداً مني، ولمن يفكر في هذا التصرف سوف يتعاطف مع صديقتي بالطبع، إلا أن لا أحد حيادياً أو منصفاً يستطيع أن يلومني، جل من لا يسهو أو ينسى، نسيت، وهذه هي الحقيقة المجردة، مع أنني على الرغم من هذا العذر اتصلت بصديقتي أكثر من مرة، واعتذرت وكررت اعتذاري عن أمر غير مقصود، لن أستطيع أن أسميه حتى خطأ، لأن الإنسان عندما يخطئ يكون عادة مع سبق الإصرار والترصد، ومع إيجاد الأعذار لإسكات الضمير وخلق المبررات، المهم اعتذرت وكررت اعتذاري لسبب بسيط، أنني بتصرفي - وأكرّر غير المقصود - ضايقت صديقتي أو أزعجتها، أو ألتها، المهم في الموضوع هو الاعتذار.

وعندما كنت طفلة أذكر أنني شاهدت فيلم " قصة حب "، وهو من أشهر قصص الحب في السبعينيات بطولة "رايان أونيل" و"آلي ماكجرو"، الفيلم الذي حقق إيرادات خيالية رغم بساطة

إنتاجه وقصته، التي جمعت بين طالبين جامعيين، غنى وفقيرة يحبان بعضهما، وتموت الحبيبة في النهاية، المهم أن أشهر عبارة في الفيلم تحولت وقتها إلى جملة يرددوها الجميع " الحب يعنى ألا تعتذر أبدًا "، بداية أعجبتني طبعًا وإن لم أفهمها جيدًا، ولكن مع السنين بدأت في الاعتراض عليها، ربما كان الكاتب يقصد أن الحب يعنى تسامحًا كبيرًا وغفرانًا للأخطاء، ربما كان يعنى تقبل الآخر بعيوبه، لكننى هنا أعود إلى فكرة الاعتذار، وهل يقلل من قيمة المحبوب أو هيئته، مثلاً أن يقول لمن يحبها أعتذر عن أى ألم تسببت لك فيه، لست أدري، ولكن يبدو أن الرجال عامة في العالم العربى يطبقون هذه العبارة، وليس مهمًا أن يكون السبب هو الحب أبدًا، فالرجال عندنا يعتبرون أن الاعتذار من شيم النساء، لا يجب على الرجال أن يقوموا به.

وفي نقاش مع زوجى ذات مرة حول هذا الموضوع أجبني بمزاح: " صحيح فالرجال لا يخطئون أبدًا فكيف لهم أن يعتذروا؟! "، ومررت الأسبوع الماضى بتجربة أخرى عززت رأيى، تسبب زميل فى العمل بمشكلة حين ترك برنامجًا كنا نصوره، دون إنذار أو اتصال لأن موعد التسجيل تأخر، ترك العمل وهو أحد المسؤولين الأساسيين عنه، دون أن يكلف نفسه عناء حتى إبلاغنا، المهم أن الأمور تمت على خير والحمد لله، والأهم أن هذا الزميل لم يكلف نفسه حتى عناء الاعتذار، بل وصل به الأمر إلى اعتبار ما قام به خطأ مهنيًا لا يستحق الاعتذار، وزميلي هذا مثله كثر، وأنا يستوقفنى كثيرًا هذا الأمر، فأنت تسير فى الشارع، ويسرع أحدهم فيصطدم بك وينظر إليك ويكمل

سيره دون اعتذار، أو يرفع أحدهم صوت الراديو أو التلفزيون ويزعجك، وإن تدمرت ونفذ طلبك، لا يعتذر عن أى إزعاج تسبب فيه لك، ولست أدري ما السبب فى عدم وجود هذه الثقافة بيننا؟ ربما لأن حكوماتنا لم تخرج أبدًا بتصريح اعتذار، لا أذكر أننى قرأت مرة فعل تعتذر، إلا إذا كان عن تلبية طلب ما، أو إيجاد وظائف ما؛ أو حتى حل لمشاكل معينة، فهى تعد دومًا بالحلول " قريبًا "، وهى كلمة مطاطية تبدأ غداً، وتنتهى عندما يأتى الفرج، وفى المنزل لم ينشأ أطفالنا وهم يسمعون الآباء يعتذرون لأمهاتهم " عفوا حبيبتي فأنا أثقل عليك بالأعباء " أو " عفواً عزيزتي أننى ضايقتك دون أن أقصد " أو فى المدرسة، يصرخ المدرس ويضرب لأنه مضغوط أو متعب، ولا يسمع أبدًا تلامذته منه كلمة اعتذار تحت أى ظرف، تسير فى الشارع فيضرب السائق قربك كلاكسات دون توقف ولا يعتذر، أو يتعداك ويكسر الإشارة ولا يعتذر، فى الغرب يعتبرون الاعتذار موقفاً نبيلًا، ألمانيا اعتذرت لضحايا النازية، والفاشيكان اعتذر لضحايا محاكم التفتيش فى القرون الوسطى، وفرنسا اعتذرت عن استعمارها للجزائر، رغم أنها أضافت أبعادًا ثقافية عديدة فى البلاد التى احتلتها.

أما نحن فلم نقدم اعتذارًا واحدًا يذكر، لذلك لا أستغرب تصرف زميلى وعدم اعتذاره، فهو لم يَعْتَذْ عليه، أما أنا، فأعتذر لكل من أخطأت فى حقه فى أى يوم بقصد أو بغير قصد، وأعتبر فى الاعتذار رفعة وتحضرًا، مملكة أعتز بها وسأتمسك بها حتى ولو كانت أعذارى دائمًا، من طرف واحد، فقد قال رسولنا الكريم عليه أفضل

الصلاة والسلام محدّثاً أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه " ولا تتكلم بكلام تعتذر عنه غداً " " فإن أخطأت مرة فإنه " لا حلیم إلا ذو كثرة، ولا حكيم إلا ذو تجربة " والأديان السماوية كلها تعزز ثقافة الاعتذار، ولكن ما يحدث عادة، إن زميلي وغيره كثيرين، تأخذهم العزة بالإثم، لأنهم ببساطة لم يتعملوا " فن " الاعتذار.

سكة السلامة

ذات مرة، ولا أحكى عن زمن مضى، فأبدأ بكان يا مكان في قديم الزمان، وفي سالف العصر والأوان، وإن كانت الحكاية التي سأرويها تذكرني بالماضي، بأمور نسمع عنها ونقول ياه، هل لا يزال هناك أناس هكذا ؟ والحكاية ببساطة.... إن أختي كانت عائدة على طريق الساحل الشمالى ذات يوم مع صديقتها وأطفالها، وتعطلت بهم السيارة فى وسط الطرق... وبما أن أختي مثل معظم النساء لا تفقه شيئاً فى ميكانيكا السيارات، أو تغيير الإطارات، فقد وقفت مع صديقتها حائرة... لاتدريان مالذى يجب عليهما أن تقوما به... وحاولتا إيقاف سيارة للمساعدة إلا أن الأمر كان صعباً... لم تقف سيارة، وكانتا أيضاً قلقتين، فكيف توقف امرأتان سيارة فى وسط الصحراء لا تعرفان سائقها، فى زمن أصبح فيه كل واحد يخاف من أقرب الناس إليه؟ ويتوقع منه الخيانة أو على الأقل عدم الاكتراث، وعدم المبالاه، فالناس أغلبهم يتبعون مبدأ عش نذلاً تمت مستوراً، المهم، توقفت فجأة سيارة أمام سيارة أختي ودون أن تطلب، ترجل منها شاب فى مقتبل العمر، تاركاً فتاة يبدو أنها خطيبته أو زوجته فى السيارة، وسأل أختي عن مشكلتها، فأجابته ببساطة أن السيارة لا تسير، ولا تعرف

سبب العطل وبكل أخلاق كريمة، عرض عليهما اصطحابهما إلى أقرب ميكانيكى فى سيارته والعودة به كى يتعرف على أسباب العطل، ولم يكن أمام أختى من حلول إلاّ الموافقة، ركبت السيارة وهى ترتعد خوفاً وتطمئن نفسها أن فى السيارة امرأة أخرى، إذا لاینوى الرجل بها شراً، ولمزيد من الطمأنة طلبتنى على هاتفى وحكت لى ما حدث كى أتابعها كل قليل على الهاتف، وسار بها الشاب، وعرفت منه أنه تخرج فى كلية الطب وینوى السفر للخارج لإكمال تعليمه، وأن الفتاة التى معه هى بالفعل خطيبته، ويبدو أن الطيور على أشكالها تقع، فالفتاة لم تتذمر من مساعدة خطيبها لأختى، رغم ما سوف يأخذه الأمر من وقت، كل هذا وأختى لا زالت غير مطمئنة، تكلمنى كل خمس دقائق، وتسألنى هل تعتقدين أنه فعلاً فاعل خير؟ ألن أجد نفسى بعد قليل فى الشارع مضروبة أو مسروقة وربما أكثر؟ ألن تجد صديقتها معها أيضاً فى مصيبة، وكنت أردد لها كلمات طمأنة وأنا فى عقلى تدور كل سيناريوهات أفلام الرعب من اختطاف وقتل وتعذيب، المهم أن الأمور سارت بشكل جيّد، وأصلح لها الميكانيكى السيارة بل وبقي الشاب معه حتى اطمأن أن السيارة أصبحت تعمل، وأنها تستطيع إكمال طريقها إلى القاهرة، هنا شكرته أختى بشدة، وبعد أن اطمأنت أخبرته عن عدم تصديقها وجود أحد يساعد أحداً فى زمننا هذا، وضحك، وقالت له: هل أنت من كوكب الأرض؟ هل أنت من عجينة البشر نفسها؟ لأنه والحق يقال لو كان الوضع معكوساً لما توقفت أختى لمساعدته، ربما لأنها امرأة وهو

رجل، واختلاف القوى في أوقات كهذه من الأمور التي يجب أخذها بعين الاعتبار، وربما لأن الطبيعي أصبح هكذا، والشاب وما فعله يعتبر استثناء، لست أدري، لكن الزمن تغير، كنا نسمع عن الكرم الحاتمي نسبة إلى حاتم الطائي الشاعر العربي الشهير، وكان الكرم دومًا مرادفًا للشجاعة ودليلاً على نزاهة النفس وسخائها، والأمثلة كثيرة في الجاهلية والإسلام، وقد قال رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم في حديث شريف "إن الله تعالى جواد، يحب الجود ويحب معالي الأخلاق" واليوم تراجعت فضيلة الكرم بشكل إجباري بسبب الظروف الاقتصادية السيئة، وبسبب الظروف نفسها تراجعت فضائل كثيرة أخرى من بينها الشهامة، أصبحنا نقول: شهامة ابن البلد، والمقصود بالتعبير اليوم هو الفلاح أو قاطني الأرياف، أما زمان فكان يقصد بالتعبير أي شخص يعيش في بلدي أو حتى في أي بلد عربي آخر، وكان يقال "أنا وابن عمي على الغريب" أما اليوم فالشعار هو "وأنا مالي ياعم، ابعد عن الشر وغنى له"، وكلمة الشر لا يقصد بها المعنى الحرفي للكلمة، بل يمكن استبدالها اليوم "بالمشاكل" أو مايمكن أن يجلب أي وجع دماغ.

والقوانين تساعد كثيرًا على ترسيخ هذا المفهوم فلو عثر شخص على شخص آخر ملقى في الشارع، ومصاب و يتزف وأخذه إلى أقرب مستشفى وشاء المولى أن يقبض روحه، يتهم المنقذ بل ومن المحتمل أن يسجن، لمحاولته إنقاذ روح إنسان، وإذا ما حاول شخص التدخل وفض مشاجرة لا ينوبه على رأى المثل إلا تقطيع ملابسه،

وابنى من الناس الذين يضعوننى دائماً فى مأزق، فهو يعتبر أنه ليس من " الرجولة " فى شيء البعد عن مشاجرة أحد أفرادها صديق، والحق يقال: هو محق، ولأننى كنت دوماً من الذين يؤمنون بفضائل مثل الشهامة، لم أمنعه وإن كنت أطلب منه أن يحترس إلى أن كانت ذات يوم مشاجرة فى النادي، فَرَدَ الكبار عضلاتهم على الصغار، وأرادوا تلقينهم درساً، وكان ابنى فى فريق الصغار، لم يتدخل فى البداية فى المشاجرة، حتى رأى صديقه وهو يضرب ضرباً مبرحاً، فما كان من ابنى الهمام إلا أن جرى للإنقاذ والمساعدة، وكانت النتيجة كدمات سوداء كادت أن تضيع عينه وعين صديقه، وذهبا إلى المستشفى وأجريت لهما الإسعافات اللازمة، المشكلة عندما عاد كانت بالنسبة لى كأم: هل أوبخه؟ أم أنمى فيه روح الشهامة؟ روح الدفاع عن الصديق وعدم الهرب وقت حاجته له؟ واخترت الحل الثانى، المشكلة أننا فى زمن اختفت فيه الكثير من القيم، الكثير من الصفات، الكثير من الشمائل.

أذكر مرة أننى كنت فى لندن وزلت قدمى بسبب الأمطار فوقعت على الأرض، وتناثرت أغراض حقيبتى حولى، وكان المارة يمرون قربى، ولا يعرض على أى أحد المساعدة، وصعبت على نفسى وقلت: لو كنت فى مصر لوجدت عشرات الأيادى تمتد لمساعدتى، هذا الكلام يعود لسنوات مضت، اليوم أصبح أهل مصر يشبهون كثيراً أهل لندن، اختفى ابن الجيران الجدع، الذى يدافع عن جارته ويحميها تماماً مثل شقيقته، فى زمن مثل زمننا هذا يصبح شخص مثل

الذى ساعد شقيقتى استثناء، لكنه مثل شراب كوب دافئ فى الصقيع،
يدفئنا، ويجعلنا نؤمن أن الدنيا لا زالت بخير، ولو كان الخير قليلاً،
فإنه لم يختف بعد، فدعونا لا نفقد الأمل، المشكلة أنه قال لأختى أنه
مسافر للخارج، فلو لم يعد، يكون العدد قد نقص واحداً فى بلادنا،
وبقى أصحاب مبدأ: عش نذلاً تمت مستوراً، دون لوم أو عتاب منى
لهم، مع تفهم كامل للأسباب والظروف، ففى أحيان كثيرة تكون
سكة السلامة أسهل، ونحن فى حاجة لمشاكل أقل، ولكن حذارى أن
يتوغل الخوف فىنا، فهو كالسوسة تنهش كل شيء فىنا حتى أخلاقنا،
وتصرفاتنا، فهل من علاج؟

عن التحرش

فاجأتني إحدى الصديقات بتعليقها على ما يقال إنه حدث في وسط البلد أيام العيد، وأطلق عليه "هوس وسعار جنسى" ونعوت كثيرة أخرى، صديقتي بررت لمن فعل فعلته قائلة إن السبب يعود إلى الفتيات وما يرتدينه من ملابس ضيقة، وأخذت تسهب في وصف حجاب الفتيات المودرن، وكيف أنهن يرتدين الباديهات التي تفصل الجسم، والقصيرة فوق البنطلونات الجينز الضيقة أيضًا، وبغض النظر عن اعتراضى الشديد على هذه النوعية من الحجاب، وعلى طريقة حجاب المراهقات بشكل خاص، وأنا هنا أستخدم الكلمة المتعارف عليها "حجاب"، وإن كان استخدامها خطأ في موقع كهذا، فالحكاية يمكن اختصارها بـ "غطاء الرأس"، أو غطاء الشعر وإظهار مفاتن الجسم، وتعدد الأحجام أو تختلف المقاسات وطريقة اللبس واحدة، موضوعة وعادية أن تنتشر موضوعة بين الفتيات أو الفتيان، المهم أن هذه الموضوعة مزيج من آخر الصيحات العالمية، أضف إليها غطاء رأس تتفنن البنات في وضعه، وهو إما أسباني أو سعودي أو جنسيات أخرى، وإذا ما عدت إلى ما قالته صديقتي، وهو قول أقل ما يوصف به أنه صادم، خصوصًا أنه صادر من سيدة مثقفة خريجة

الجامعة الأمريكية، لذا فهو صادم أكثر، وهذا الاعتقاد، كنت أظن أنه اندثر، إلا أنه للأسف يظهر في كل مرة يقع حادث مشابه فتعلو أصوات، كنت أظن أنها في الغالب ذكورية، لكنني اكتشفت مع الوقت أن النساء في أحيان كثيرة أكثر قسوة على النساء من الرجال.

وحكاية وسط البلد، ربما فيها الكثير من المغالاة، لكنها تحدث بشكل يومي وهو ما يطلق عليه "التحرش"، وكى أكون أكثر دقة أقدم للتحرش وصفاً علمياً، فأقول إن التحرش يعنى اقتحام حميمية الآخر، قد يكون هذا الاقتحام جسدياً، أو اقتحاماً للمسافة أو المساحة، يعنى مثلاً عندما يعتبر رجل أنه من الطبيعي أن يلاحق امرأة، يكلمها، أو يضع يده عليها، وقد اقترح البعض أن تكون المسافة 45 سنتيمتراً، احتراماً لحميمية الجسد، وطبعاً هنا لا أقصد أن يمشى كل واحد بهزوة، و مقاس، ولكن أن يحترم المسافة التي من المفترض أن تكون بين الاثنين، وأنا هنا لا أتحدث عن المذكر فحسب، إذ يجب أن نوضح نقطة أن التحرش الجنسي من الممكن أن يكون من جانب النساء للرجال، صحيح أنه يطلق عليه أسماء أخرى، ولكنه في واقع الأمر تحرش، إذا لا يجب على امرأة أن تستبيح لنفسها اقتحام خصوصية زميل و حميمية على اعتبار أنها امرأة، وتستغرب أو تستنكر لو تناول عليها بلفظ أو حركة، والقضية في رأيي تدل ضمن قضايا حقوق الإنسان، على احترام كرامة الجسد و حرمة، والمشكلة في مصر خصوصاً أن النساء عندما يتعرضن لتحرش ما، يتكتمن تماماً، فمن الممكن أن يضايقها زميل أو رئيس، وتصمت خوفاً من أن

تتهم، كما فعلت صديقتي، بأنها هي السبب، أو يتم التحرش في المواصلات العامة والشوارع، ولو ذهبت واشتكت لقليل عنها قليلة الأدب، وأنا هنا لا اخترع أو أبالغ، فقد قالها لي مسئول كبير: السيدة المحترمة لا تشتكى، واستغربت جدًا قوله، واستنكرته، والقانون هنا لا بد أن يتم تفعيله، على الرغم من أن أحكام الشريعة الإسلامية أو الشرائع السماوية، أو مبادئ حقوق الإنسان تحرمه، فهي تسمى جرائم ضد الآداب والأخلاق العامة وليس ضد شخص المعتدى عليه.

عقبة أخرى تظهر أمام المرأة، و يعتمد عليها الرجل بشكل كبير وهي الإثبات، كيف تثبت أن فلانًا هو الذى قام بملامستها، وإذا لم تستطع الإثبات يبقى الضرر المعنوى والنفسى الواقع عليها، ولست أدري لماذا اختفت العقوبة التى كانت زمان؟ وهى حلق شعر من تشتكيه فتاة على أنه تحرش بها، كان يسير فى الشارع مفضوحًا، وكان ينظر إليه الجميع على أنه قام بعمل مناف للأخلاق، اليوم إن ذهبت فتاة تشتكى فى أى قسم شرطة من معاكسة أو تحرش، تسمع من المسئول كلامًا ساخرًا، أو يقال لها إن لديهم أعمالاً أهم.

وأسوأ أنواع التحرش تلك المرتبطة بسلطة، مثل تحرش المدير بسكرتيته، أو تحرش الأستاذ بتلميذته، يستغل خوف الفتاة أو المرأة من نفوذه، وبالتالي اختيارها الصمت لاعتقاد راسخ أنها لن تجد من يأخذ حقها لها، وتخاف أن تفقد منصبها أو تواجه نظرة المجتمع، والعائلة لها، وعلى فكرة: التحرش ليس ظاهرة عربية، بل هى عالمية، ولكن القوانين فى الخارج شرعت بشكل يضمن للمرأة الحصول على حقوقها، وعادة يكون تعويضًا ماديًا كبيرًا، ولو أننا أخذنا

هذه الفكرة من الغرب ووضعنا غرامة مالية على كل من يثبت تحرشه بواحدة، وأنا أقول هنا يثبت، رغم صعوبة الأمر لقلّ الموضوع كثيرًا، ولأصبح هناك رادع، ولا مبرر على الإطلاق لأي رجل في عدم الزواج، أو عدم سعادته في الزواج، أو أزمة منتصف العمر أو آخر العمر، وأنها تسمح له بانتهاك خصوصية المرأة، ولا مبرر لأية فتاة ترغب في الحصول على وضع أفضل في العمل، أو فراغ عاطفي، أو مشاكل زوجية في الاعتداء على خصوصية الآخر. نتحدث ليل نهار عن الدين، ولا نفهم أن أساس الدين الأخلاق، لا أريد أن أبدو هنا كواعظة و لكن ما حدث في العيد أيقظ لدى، ولدى كل واحدة سمعت بها حدث، مخاوف عديدة تأتينا في كل مرة نوجد في زحام، شارع أو مصعد أو وسيلة نقل عام، أصبحنا نحن النساء نخاف الوجود في أماكن عديدة خوفًا من أي تحرش يسعد الرجل لحظة، ولا أفهم أي سعادة هذه، بل من المفترض على العكس أن يحتقر دنو نفسه، وتؤذى المرأة نفسيًا، ولو أنها بادرت برد فعل عنيف تجاه الرجل، تعاني من نظرات الآخرين لها، وأعود إلى ما بدأت. الحجاب ليس له علاقة بالموضوع، فهناك حالات اعتداءات كثيرة على المحجبات.

الفضيلة كلمة غابت عن قاموس حياتنا، وأصبحنا بحاجة إلى تهذيب غرائزنا، ومن يريد التأكد عليه سؤال موظفة من الجنس الناعم تستقل باصًا مزدحمًا، أو تسير في شارع مزدحم، هذا إن رضيت أن تتحدث، فالسكوت في أحيان كثيرة جريمة، ولكنه في غياب القانون ترتكب كثير من الآثام، ويفر الجاني وتبقى الضحية تعاني قهراً وإرهاباً من نوع مختلف.

المساجد وأهلها

لا تعجبني أحوال المسلمين، بقدر اعتزازي وفخري وحمدي لله على نعمة الإسلام، بقدر غضبي من أحوال المسلمين اليوم، نتحدث عن الدين ليل نهار، ولا نفعل ما يأمرنا الله به، نهتم بصغائر الأمور ولا نتقى ربنا في أعمالنا، نطلب المال ونسعى إليه دون اكتراث، بالأجر العظيم من عند الله، ندخل المساجد دون استعداد، فنجد بيوت الله والناس يفرشونها ويأكلون على الأرض، نسجد فنجد السجّاد وكأنه لم ينظف منذ زمن، أما خدام المساجد كما يحبون أن نطلق عليهم، فيستقبلونك باليد الممدودة، وبالنظرة الثاقبة، وكأنه يجبرك على دفع إتاوة زيارتك للمكان المقدس، ويقطع أية علاقة روحية تحاول أن تصلك بربك، دخلت مرة مسجدًا في تركيا، وكان داخل زقاق صغير وسط سوق كبيرة، إلّا أنني خشيت أن تفوتني الصلاة، وتركيا بلد علماني الدين فيها في القلب لو صح التعبير، ووجدت المسجد يشع نظافة ورائحة البخور تنبعث من كل مكان، وكأنه نظف للتو واللحظة، صليت ودعوت وسجدت وسعدت باللحظات القليلة التي قربتني من خالقي، والدنيا تلاهٍ كما يقال، ولم يضايقني أحد أو يمد يده لي أو يزعجني برائحة الطعام المطبوخ، وأنا أحب

كثيراً آل البيت، وكنت في الماضي أحرص كثيراً على زيارة مسجد السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن أبي طالب، إلا أنني في الفترة الأخيرة قل ذهابي، ورغم شعوري بالاشتياق للمكان، والرغبة في الجلوس هناك وقول الدعاء الشهير الذي يقرأ لصاحبة المكان، فإن وجود عشرات السيدات طوال الطريق يلححن عليك بالسؤال ويمسكن بك ويدخلن وراءك، ثم الدخول لتبدأ مرحلة أخرى من العاملين داخل المسجد، يطلبون منك الصلاة على النبي، وهم يمدون أيديهم، وكيف يقرنون عملاً قد يشفع لنا يوم القيامة بالتسول، واعتذر إلا أنني لم أجد كلمة أفضل، وقد يتهمني البعض بالغلظة، وبعدم تقدير ظروف الناس أو أحوالهم، إلا أن القرآن الكريم قال ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

وفي المسجد، نجد نساء ورجالاً لم تعرف المياه طريقها إلى ملابسهم أو أجسادهم منذ فترة، وهنا أيضاً سأتهم بالمظهرية، ولكن من قال إن هذا يتعارض مع الدين، النظافة من الإيمان، قول يجب أن ينفذ، والله تعالى لم يفرض علينا الوضوء خمس مرات إلا لأهمية النظافة، فتجد نفسك مستغرقاً في الصلاة، وقربك طفل ممسك بالطعام، ويجري، وقد يمسح يده في ملابسك أو ملابس من حولك، والأم مبتسمة تعلق "معلّش، ده طفل"، وهي جالسة باسترخاء وكأنها تجلس

في حديقة عامة، أما خطباء المساجد فحدث ولا حرج، أصوات عالية وصراخ وخطب جمعة تنصب دومًا حول أهل النار وما أكثرهم، بل كلهن لو أخذنا كلام المشايخ صدقًا، سمعت مرة شيخًا يحدث الرجال في المسجد طالبًا منهم إبقاء النساء في المنازل، وجزاء المعصية ومصير المرأة، التي لا تصل طاعتها لزوجها لمرحلة ما قبل السجود، ولم يذكر كلمة عن المودة والرحمة، عن حسن العشرة والمعاملة، وأطفالنا بالطبع يذهبون للمساجد فصلاة الجمعة فرض، والجمعة للجمعة كفارة لما بينهما، وإن نجحوا في فهم ما يقوله إمام المسجد بصوته العالى الحاد، فأى رجال سبصبحون، وكيف سينظرون إلى دين يحكم على أمهاتهم بأنهن سيدخلن النار لا محالة؟ كيف سيتربى طفل اليوم، رجل المستقبل؟ وهو لا يسمع من رجال الدين إلا كل ترهيب وتخويف، كيف لرجال المستقبل أن يفخروا بدينهم ويواجهوا به العالم وهم محاطون دومًا بما يخيفهم ولا يرغبهم في دينهم؟

المساجد من أحلى الأماكن والعلاقة ما بين الإنسان وربه ليست بحاجة إلى مكان، صحيح، إلا أن المسجد يبقى مكانًا مقدسًا تذهب إليه لتشحن روحك ونفسك، والإنسان دائمًا في حاجة لمكان مقدس، حتى قبل الرسالات السماوية وجدت المعابد، و يعتقد الناس أن صوتهم يصل أعلى لو كان من داخل مسجد، وأن الله يستجيب أسرع لو أن الدعاء كان تحت قبة المئذنة، وأنا منهم، أشعر بالراحة حين أردد الدعاء في المسجد، أشعر بلحظات قليلة من السلام النفسى لكن ما يحدث من عدم خشوع وعدم احترام الرغبة الإنسانية

البسيطة في الخصوصية يمنع أية راحة، ويدفعك للهرب من المكان، لن أعود لمثال تركيا، فأقول: لم يحدثنى أحد وكان المسجد الصغير داخل الزقاق في أحد الأسواق نظيفاً لامعاً، وأنى سعدت بصلاتى ودعوتى، ولكننى فى كل مرة أدخل مسجداً أذكر المساجد الأخرى، سيقول لى البعض إنهم من المريدين، طبعاً كلنا نريد مرضاة الله تعالى، ويقول لى آخرون: هم يعيشون فى حمايتها، ومن يحمى عبداً غير الله سبحانه وتعالى، ويقولون لى رفقا هم يبحثون عن لقمة العيش، والذين دوماً هو الحل، حتى لو تحوّل المسجد إلى مقر للعمل، أرد فأقول: ونحن؟ من نريد دخول المسجد آمين؟ من يجب أن يعتبر زيارة المسجد عيداً؟، ومن يريد تعليم أولاده أن أماكن العبادة نظيفة وتحلو الصلاة فيها؟ ومن يعطينى أنا ما أحجته من سلام داخل حين أزور مسجداً وأصلي؟، أخشى أن يرد على قارئ بقوله " قرن فى بيوتكن"، ناسياً أن الكلام كان لنساء النبى عليه الصلاة والسلام، أو ينتهى الوضع بتعليقات مشابهة، فأين أنتم أيها المسئولون عن المساجد؟ رفقا بعباد الله الصالحين، وأتمنى أن أكون واحدة منهم.

حاضر

في كل مرة يطل علينا عيد الأضحى، أتذكر حكاية سيدنا إبراهيم مع ابنه الذبيح عليه السلام، أعلم أن الرد سيكون " أمر طبيعي "، فكلنا نتذكر الحكاية خصوصًا يوم الوقفة، ونحن نسلم " سعد " إلى مصيره، و" سعد " هو الاسم الذي اصطلاح إطلاقه على الخرفان. لا أعرف السبب إلا أنه من المؤكد أن للاسم حكاية، لو عرفها أحدكم ليته يحكيها لي.

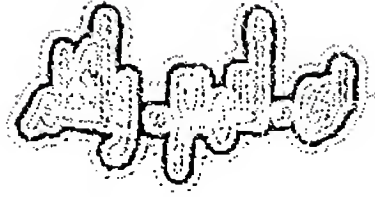
بالنسبة لي أذكر الحكاية لأسباب مختلفة، ولأكن أكثر دقة فأقول إن القصة أصبحت أكثر إلحاحًا بعد زواجي، وإنجابي ابني الأول مروان، فأبني مثل كثيرين من أبناء جيله، ممن يؤمنون بالحرية وممن يرددون شعارات عنها، يتحدث عن الاستقلال عنّا وحلمه بالسفر إلى الخارج، وهو لا يعلم أنه بكلماته هذه يدمي قلبي كأم، يعاندني ليل نهار، وعندما نتبادل من حين لآخر حوارًا هادئًا، وأسأله عن أسباب عناده الشديد يرد قائلًا: لست أدري ولكنني أكره الانصياع لأوامر، أكره الشعور بأنني مقيد بقوانين خارج البيت وداخله، أنا باختصار عاشق للحرية، وندخل في حوارات طويلة عن حدود الحرية، التي تنتهي عند بدء حرية الآخرين وأن أول بنودها الالتزام، وليصل جدلنا

إلى موضوعات دينية وواجب المسلم في طاعة والديه، ويجيبني ابني
بسؤال عني: هل عندما كنت في سنه كنت طفلة مطيعة؟ فأصمت
قليلاً كي لا أكذب، وأطلب منه عدم الإجابة عن سؤال بسؤال،
باختصار: جدلي مع ابني يتكرر يومياً في معظم البيوت في العالم أجمع،
وفي أمريكا وأوروبا في سن معينة يقرر الأولاد ترك البيت
والاستقلال، بل الأهل أنفسهم يطالبونهم بالعمل في أحيان كثيرة
لتحمل نفقات دراستهم، وتتوه العلاقات الإنسانية وسط خضم
الحياة اليومية، هذا الجدل ليس له جواب أو حل، إلا أنني أنظر دومًا
في قصة سيدنا إسماعيل، إلى طاعته، وإلى الآية الكريمة التي جاء
ذكرها في سورة الصافات والتي تقول ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئِي
إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْنَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ قَالَ يَتَأَبَّتْ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ
سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ۝

وسيدنا إسماعيل - حسب ماذهب إليه الجمهور من العلماء - هو
الذبيح، ويستندون إلى أنه إسماعيل وليس إسحاق على أكثر من أمر،
أولها أنه ابنه البكر، والامتحان يكون بالابن البكر الذي جاء بعد
شوق طويل، وأن إبراهيم عليه السلام قد عاش سلسلة من
الامتحانات، أكثرها يتصل بالسيدة هاجر، وولدها إسماعيل حيث
أسكنهما بوادٍ غير زرع مسلماً أمرهما إلى الله، وعاش بعيداً عنها في
الشام ليزورهما على فترات، المهم أن الامتحان كان بأحد ولديه
إسماعيل أو إسحاق، وسنذهب مع جمهور العلماء إلى أنه إسماعيل،
ورأى أنه يذبحه، ورؤى الأنبياء أوامر، وأطاع الابن الذي

اختاره الله تعالى أن يكون هو الآخر نبياً، ولعل في طاعته لوالده ولربه قبله أهم ما رفعه إلى هذه المرتبة، طبعاً حاشا لله أن نشبه أولادنا بالرسل والأنبياء، أو نشبه أنفسنا بهم، فنحن جميعاً بشر خطاءون، نعيش لدنيانا أكثر مما نعيش لآخرتنا، إننى كأم وكبشر لا أستطيع إلا أن أتوقف عند صفة الطاعة، وهى حميدة عندما تكون للرب والأهل وأولى الأمر، حسبما ذكرت الآية الكريمة فى سورة النساء، وخبيثة عندما تكون صفة لصيقة بالإنسان فى حياته اليومية، تقتل شخصيته وآراءه وتخنقها.

أعود إلى ابنى وإلى سيدنا إسماعيل " الفتى الحليم "، أما سيدنا إسحاق فقد كان الفتى العليم، وأتمنى لو أن ابنى أخذ بعضاً من الطاعة، وهو الأمر الذى يردده كثير من الآباء معى، لو أننى بين الحين والآخر أسمع كلمة حاضر بابتسامة، حتى ولو لم يكن مقتنعاً لمجرد إسعادى، ثم أعود وأقول لنفسى: لكنك أنت من أردت دوماً أطفالاً بشخصية مستقلة وليست تابعة، لتعود كلمة حاضر لتصبح أحلى الكلمات وقعاً على نفسى وأتساءل: هل أطلب الكثير، قد تكون الإجابة فيما قاله جبران خليل جبران " أولادكم ليسوا لكم، أولادكم ملك للحياة " فأجد فى العبارة، رغم عشقى الشديد لجبران، الكثير من الظلم لنا، للآباء والأمهات، وأعرف أننا مهملات وصلات قناعاتنا وثقافتنا كآباء تبقى بعض الأمور بالنسبة لنا أساسية، وعلى رأسها كلمة " حاضر "، وسأكتفى بها بين الحين والآخر.



3

أحوالنا ومشاعرنا

أنا شاب لكن عمري ألف عام
وحيد لكن بين ضلوعي زحام
خائف ولكن خوفي مني أنا
أخرس ولكن قلبي مليان كلام
وعجبي

صلاح جاهين

FARES_MASRY
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الابتسامة

رائحة المكان والزمن

تفوح من الأماكن روائح، وترتبط في أذهاننا بالذكريات، وللكاتب الفرنسي مارسيل بروست رواية شهيرة، من المفترض أنها عبقرية، لكنني لم أنجح رغم مرور السنوات في حبها، اسمها " من ناحية سوان" و سوان هو اسم شخص، ومع أنني أحب الرواية إلا أن عبقريتها بالنسبة للنقاد تكمن في فكرة واحدة، هي المحور الأساسي الذي دارت حوله كل تفاصيلها، كيف أن رائحة فنجان قهوة أو شاي من الممكن أن تعيد إلينا ذكريات مختلفة لأماكن وأشخاص مختلفين، سواء بالسلب أم بالإيجاب، شعرناها مع محمود درويش، أحد أكثر الشعراء قرباً من جيلي، وأكثرهم عبقرية في شعره السياسي والثوري بشكل خاص، وغناها مارسيل خليفة بصوته " أحن إلى خبز أمي وقهوة أمي " نشم رائحة الخبز تنبعث بين الأبيات، ونتمنى لو شاركناه القهوة المصنوعة بيد والدته، والغريب في حكاية الرائحة والذكريات أنها في الغالب، ترتبط بذاكريات جميلة، وبحنين ما إلى أمر ما، أو شخص ما، أو مكان ما، مخبأ في منطقة ما في عقلنا الباطن، ونشعر - وهذا هو الغريب أيضاً - أن لا شيء في حلاوة الذكرى، القهوة من يد والدته درويش أكيد أنها كانت مصنوعة من بن

محوج و مغلقة على النار، إلا أن اليد التي قدمتها أضافت إلى طعمها الكثير، وأنا أعتقد أننا نظلم حاسة التذوق في مجتمعاتنا فنحن شعوب " تزلط "... نأكل و نأكل وكل لقاءاتنا على طعام، وكلها حول الموائد... لا نمضغ ونأخذ وقتنا، بل نبلع وبسرعة، مع أنه من أجل حياة صحية لا بد من الأكل بهدوء والمضغ طويلاً ومرات عديدة حتى يذوب، وصحيح نحن شعوب تعيش لتأكل، لا تأكل لتعيش.

وأعود إلى الذكريات، فأماكن طفولتنا ترتبط بالروائح بشكل كبير، أذكر جيداً الإسكندرية في السبعينيات.. حتى ستانلي الشهير حين كنت أقضي الصيف، وكان يأتينا يومياً من يبيع الخبز بالسكر، كان يأتينا ساخناً فنأكله فوراً ونشعر بسعادة غامرة، لا زلت أذكر طعمه، وأذكر المنزل وأذكر السعادة، إلا أن الطعم تغير اليوم، لم يعد الطعم نفسه، وأتساءل: لماذا لا يفعل أطفالنا مثلنا بما كنا نفعل به ؟

ومن الأماكن التي ارتبطت عندنا جميعاً برائحة: المدينة المنورة ومسجد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، رائحة مسك.. تشم مثلها في الكعبة الشريفة.. والقهوة في باريس طعمها مختلف عن أي مكان آخر.. والشوكولاتة في سويسرا هي الشوكولاتة نفسها، الماركات نفسها، إلا أن الطعم هناك مختلف.. ورائحة الزعتر حين تقترب من بعض الأفران في سوريا مع الخبز يجعلك تقف وتسال وتذوق.. لماذا يتغير الطعم بتغير المكان ؟ وهل حالتنا النفسية هي التي تنعكس حتى على ما نأكل ونشرب ؟ وهل إحساسنا بالمكان يختلف من سن لأخرى ؟ يقال إن الإنسان عندما يتقدم في

السن يقف أمام التفاصيل الصغيرة التي لم يكن يقف أمامها في طفولته.. للأطباء النفسيين دائماً تفسير للأمر ونقيضه.. أما نحن فنركض ونركض ونقول ياه.. " لسه حاندوق " مع أننا بركضنا هذا نفقد جزءاً من استمتاعنا بالحياة.. وعيشوا معي هذه التجربة للحظات.. أغمضوا أعينكم وتخيلوا مكاناً ما تحبونه، واستغرقوا في التأمل مع مراعاة عدم فتح الأعين.. سوف تكتشفون أنكم ستنجحون في العيش فيه.. بتفاصيله.. ورائحته... و سوف تعود إليكم الذكريات.. ابتسموا.. واحكوا الى.

عدو أم حبيب؟

لست أدري إن كانت الصفة مصرية أو عربية؟ فأنا أحب أن أرجع الأمور إلى أصولها... ولو تحدثنا عن الأصول، وبحثنا في أجدادنا لوجد كل واحد منا له جدًّا عربيًّا أو تركيًّا أو فرنسيًّا أو حتى قوقازيًّا... فقد خلقنا الله سبحانه وتعالى قبائل لتتعارف وتلتقى وننجب... وتختلط الجينات والألوان، لكن هناك بعض الصفات التي أصبحت تسيطر على الشعب المصري، في مفرداته اليومية والحياتية من بينها إطلاق الأحكام.. وأصبحنا جميعًا قضاة وجلادين، نتلذذ بإطلاق الأحكام على الآخرين، ونستمتع حين يشاركنا الآخرون الحكم، ولو لم يشاركوا نبذل كل جهودنا لإقناعهم، وكأننا نحارب من أجل قضية مصيرية، نطلق الأحكام ونصدقها.. ونرفض إعطاء الآخرين فرصة، بل ونصطاد الفرص لإثبات أننا على حق. فتجدنا نقول فلان فاشل، أو فلان بخيل، أو فلان سيء، بأية درجة. ونشيع عنه الصفة أو العيب، حتى يصدقنا الآخرون... و لأن الشائعة دائمة تصل، فإن المتهم يعرفها ويبدأ مرحلة الدفاع عن نفسه، لنفى التهمة فيثبت للجميع أنه سخي حتى لو أرهقه الأمر ماديًّا، أو يغير معاملاته مع الآخرين كي يقولوا لا والله إنه ليس على درجة السوء التي يصفونه بها... وهكذا.

وما بين الاتهامات والدفاع عن النفس نعيش، والناس يبنون حولنا سجونا من الكلام والاتهامات، والأمر يصبح أسوأ حين يكون الإنسان مشهوراً.. فمن الأمور التي أصبحت لصيقة بالمشاهير أنهم متكبرون. صحيح أن الكثيرين متكبرون، ولكنك قد تجد إنساناً عادياً قد ضربه الغرور، كأن الشهير من المفترض أن يكون مغروراً في نظر الآخرين، ومتعالياً وفي أحيان أخرى، مرتشياً أو منافقاً أو متسلقاً... يعنى صعب أن تلصق صفة حميدة بالمشاهير، ولكن ما يقال وهو أضعف السيئين: إذ يقال مثلاً: رغم شهرته فهو متواضع.. وكأن من أساسيات الشهرة الكبر.. ونحن لا نحاكم البشر على أساس أنهم بشر، بل نحاسبهم على حسب درجة غناهم، ومستواهم الاجتماعي وشهرتهم.. ونطلق أحكاماً عامة، ونقول كل الفنانين يشربون الخمر.. مع أنني أعرف فنانات يصلين الفرض في وقته.. كل لاعبي الكرة لا يقرأون وعلى درجة ثقافة محدودة.. مع أن الكثير من لاعبي الكرة قد حرصوا على الحصول على مؤهل جامعي.. وتطلق الأحكام وتسود.. فتقول الأم أنا لا أزوج ابنتي لمشخصاتي على طريقة أفلام يوسف بك وهبي، الذي كان ينهى أفلامه دائماً بحكمة يصدقها المشاهدون ويشهدون له.

الناس أنفسهم الذين يطلقون الأحكام هم الذين يستاءون، قد يتعرضون لموقف مشابه.. وتجدنا من ناحية أخرى نبخل بالكلمة الطيبة.. فنخاف أن نعلن صراحة حبنا لفلان أو علان، كي لا نحسب عليه.. ونفضل أن نغلق على مشاعرنا الأبواب بالضربة

والمفتاح.. والكارثة أن هذا يؤثر على مشاعرنا مع المقربين منا.. فنخجل من البوح عن حينا لأصدقائنا ونتوقع دائماً الغدر منهم.. ونطلق شعارات مثل: "لا تثق بأحد حتى لو كان أقرب المقربين إليك" و"عدوك ابن كارك و" يامآمنة للرجال يامآمنة للمية في الغربال. وقد يساعدنا موروث الأمثلة الشعبية على التصديق.. أننا لا يجب أن نثق في الزوج أو زميل العمل أو المقربين... فكيف نعيش؟ ونفتح صفحات الجرائد فنجد عناوين مثل: إرهاب فلان، وديكتاتورية علان، ونحن هنا لا نتحدث عن بوش أو شارون.. بل أتحدث عن أناس عاديين من أمثالي وأمثالك، ولكن شاء حظهم العثر أن يكونوا من المغضوب عليهم.. فكيف نعيش؟ ولماذا هذا الكم من الغضب المكبوت داخلنا؟ لماذا لا نفترض أبداً حسن النية؟ قد يكون السبب في الزحام؟... قالها يوما " سارتر " " الجحيم هو الآخرون. "... فهم الذين يسطرون لنا حياتنا ويكتبون سطورها ونحن في النهاية من البشر، ومهما بلغنا من قوة.. ضعفاء، صحيح أنه في النهاية لا يصح إلا الصحيح.. ولكن حتى يصح الصحيح تكون الخسائر قد تعددت والثقة ضاعت، وأصبح كل واحد يلتفت حوله.. خائفاً من إعطاء الثقة.. ويسأل نفسه دوماً.. ياترى.. عدو ولا حبيب؟

السعادة

يقول الأمير "عبدالرحمن الثالث"، وهو أحد أمراء الأندلس "لقد حكمت حوالى خمسين عامًا وكانت بين انتصارات وسلام، كنت محبوبًا من شعبى ويهابنى أعدائى ويحترمنى حلفائى، غنى ومجد وسلطة ومتعة كانت بانتظار إشارة منى، وعلى الرغم من كل هذا فقد اجتهدت فى عدّ الأيام التى شعرت فيها بالسعادة الحقيقية، ووجدت أنها أربعة عشر يومًا"، عبد الرحمن الثالث أشهر أمراء قرطبة وأشهر الأمراء الأمويين فى أسبانيا أو الأندلس، وصل إلى الحكم عندما كان فى الثانية والعشرين من عمره، وحكم مدة خمسين عامًا تقريبًا، وبدأ حكمه والعرب منهكون بالصراعات، وعاش يبحث عن معنى السعادة، وهو فى هذا ليس وحده، فمنذ الأزل وكل البشر يتساءلون عن معنى السعادة، واهتم المفكرون والفلاسفة بالموضوع، وعلماء النفس والاجتماع، والبشر العاديون السائرون فى الطرق.

قيل... السعادة لا تشتري بالمال... ولكن تصرف أموال كثيرة على دراسات فى الغرب للتعرف على أسباب السعادة... وقد قام أخيرًا أستاذ علم النفس فى جامعة هارفارد ويدعى البروفيسور "دانيال جلبرت" بتأليف كتاب حول السعادة، وبدأه بقوله إن

السعادة ليست بالبساطة التي يظنها البعض... وعندما سئل عن سبب اهتمامه بالموضوع لدرجة تأليفه كتاباً أجاب: "حوالي مئة مئة بالمئة من التصرفات البشرية تقوم على أساس الوصول إلى السعادة، بمعنى آخر هذا هو جوهر معظم تصرفاتنا، ويقول البروفسور جلبرت إن العالم كله يتآمر علينا كأفراد، للتقليل من درجة سعادتنا.... ونحن نصارع كي نرفع الدرجة، ويمكن النظر للحياة على أساس أنها صراع ما بين القوتين.

والقرآن الكريم يقول ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ ... صحيح منذ اللحظة الأولى ونحن نحاول البحث عن السعادة... والنفس الإنسانية غاية في التعقيد، ومع الدراسات النفسية ووجود علم للنفس، أصبحنا نرجع كل شيء للأمراض النفسية المتراكمة... نقص حنان، عنف من الوالدين أو أحدهما، أو اليتيم... ويأتي الفقر أيضاً كأحد أسباب التعاسة... إلا أن الدراسات تقول إن الأغنياء ليسوا أسعد من الفقراء، قد يكونون على درجة أعلى من الطمأنينة إلا أنهم ليسوا أسعد، وما يسعد شخصاً لا يسعد شخصاً آخر، وإن كان علماء النفس يقولون العكس، وهم أكثر علماً مني بالموضوع، فلو كنت جائعاً وأكلت فأنت سعيد للحظات، ثم نشعر بالتخمة فيبدأ التوعك... وإن ذهبت في أجازة فقد ترتاح وتسعد في الأيام الأولى ثم تمل قليلاً بعد مضي فترة من الوقت، ثم تشعر بقيمة ما كان بين يديك عندما تعود إلى العمل... ويقول أحد المفكرين "النجاح ليس الطريق إلى السعادة... إنما السعادة هي مفتاح النجاح فإن أحببت

ما عمله فإنك ستنجح فيه"، ويقول مفكر آخر "السعادة هي عبارة عن صحة جيّدة وذاكرة سيئة"... أما جورج صاند - الكاتبة الفرنسية الشهيرة، واتخذت اسم رجل وارتدت ثياب الرجال (اسمها الأصلي أورو دوفان) وهي أحد أشهر كتاب القرن التاسع عشر، واشتهرت بتحررها الشديد ودفاعها عن قضايا - المرأة فكانت تقول "إن السعادة في أن تكون محبوبًا" ويبدو أن جورج صاند كانت تبحث حقًا عن السعادة، لأنها أحبت الكثيرين وكانت علاقاتها العاطفية متعددة، أما هيلين كيلر وهي واحدة من أشهر المعاقين على الإطلاق، فقد كانت صماء وكفيفة إلا أن هذا لم يثنها عن الدراسة، فقد درست الألمانية والفرنسية واللاتينية واليونانية وألفت كتابين، كانت شديدة التفاؤل وتبحث أيضًا عن السعادة وقالت: "عندما يغلق باب للسعادة فإن غيره يفتح، إلا أننا نستمر في النظر إلى الباب المغلق لدرجة تمنعنا من رؤية الباب المفتوح أمامنا"... وأنا كنت دومًا أعتبر نفسي من الشخصيات التي تميل أكثر إلى الحزن... والمشكلة الأكبر... أنني لا أعرف التمثيل... وأشياء كثيرة تحزنني.... ولكن مع الأيام وهذه إحدى الحسنات التي نكتسبها مع السنين... أصبحت أبحث عن سعادتي في أشياء الصغيرة... في ابتسامة طفلي أو في حديثي مع أولادي... في كتاب أقرأه واستمتع به، وأتعجب من قدرة كاتبه على إيجاد عبارات تمتعنا... أجدها في صلاة خشعت في سجودي فيها... في عمل أتقنته ووجد استحسانًا.... ولو أمعنا التفكير لوجدنا أن عدم إحساسنا المستمر بالسعادة، أو لأقل إحساسنا النادر

بالسعادة نعمة، فلو كان الجو معتدلاً مشمساً طوال الوقت لافتقدنا
الأمطار... ولو كان حاراً لافتقدنا البرد... لكنّ كلامي كله لن يمنع
أن أظل أنا و بنو البشر أجمعين من المتسائلين عن معنى السعادة.... من
الباحثين عنها... وأفضل ما قرأت من تعريفات عن السعادة ما قاله
أرسطو منذ آلاف السنين: السعادة تنتمي إلى الاكتفاء الذاتي... أما أنا
فأضيف: السعادة تكمن في الرضا.... ولكن من يرضى... وعلى رأى
شاعرنا صلاح جاهين

إيش تطلبى يا نفس فوق كل ده
حظك بيضحك وانت متنكده
ردت قالت لى النفس: قول للبشر
ما يبصوليش بعيون حزينه كده
وعجبى

عدوك ابن كارك

في سنوات عمرى هذه.. لم أنجح في تكوين صداقات عديدة، فصديقاتى الحميمات لا يتعدى عددهن أصابع اليد الواحدة.. بل أقل وهن درجات.. أولى.. وثانية... وثالثة.. حسب الظروف والجهود المبذولة من الطرفين، وحسب درجة اختلاف الرأى. فأنا لست من المدرسة التى تقول إن الإنسان يصادف من يشبهه فى كل شىء... بالتأكيد تكون هناك أمور أساسية، مثل الخلفية الثقافية والظروف الأسرية والحالة الاجتماعية.. هذه العناصر مؤكدة ولا جدال فيها.. ثم تختلف الأمور الأخرى، بمعنى أنه لا يجب على ربة الأسرة أن تكون صديقتها ربة أسرة.. فالمرأة العاملة قد تشعر بأنها تحقق مع صديقتها ما لم تحققه فى نفسها، والعكس صحيح، تشعر المرأة العاملة أن ربة المنزل أكثر هدوءاً واستمتاعاً بالحياة، وعطاء للأولاد.

وصديقة عمرى صاحبة المرتبة رقم واحد، ربة منزل متفرغة لزوجها وأولادها، إلا أنها مثال لحب الإنسان للحياة.. مفعمة بالحيوية وتشيع البهجة فيمن حولها أينما ذهبت، وتعيننى على أمور الحياة بحكمة أفقدها فى كثير من الأحيان.. فرغم أننى الطرف العامل فى العلاقة فإنه يبدو أن الإنسان يولد بصفات (أو عيوب)

لا تتغير مع الزمن ولا تختفى.. واعترف أنني لا أزال أحمل الكثير من السذاجة التي لم تغيرها الأيام. أصدّق.. وأتفاعل.. دون أدنى شك في أية شبهة كذب أو ادعاء قد تكون موجودة... ونحن بشر وكلنا عيوب.. وهذا طبيعي.. صديقتي تقوم بدور الحكيم" (وليس المقصود هنا من يعطى حقن.. من وقت لآخر.. بالمعنى المجازي للكلمة بالطبع)، الذى ينصح وينبه.. ويستغرب من عدم اختفاء السذاجة رغم مرور السنوات.

من ناحية أخرى.. حاولت تكوين صداقات فى عملى.. ونجحت فى خلق علاقات طيبة.. علاقات ود لاتصل إلى حد الصداقة.. إلا مع واحدة. جازفت واعتبرتها فى منزلة أعلى.. أو ربما الظروف هى التى هيات ما كان.. فقد بدأنا فى الإذاعة معًا وكنا "حاملين" فى الوقت نفسه، وسافرت وعدت.. وكانت المصادفة دومًا تجمع بيننا.. فبذلت معها مجهودًا قد لا يكون كبيرًا، إلا أنه أكبر من أى مجهود بذلته مع أية زميلة أخرى. فأدخلتها حياتى وبيتى.. وهى أمور عادية لا أفعلها إلا مع من أرغب فى خلق علاقة بها شىء من الخصوصية.. إلى أن كان يوم.. اختلفت فيه مع قريب لى فى العمل.. فحاولت التقريب بين وجهتى النظر وكانت النتيجة.. هجوم حاد وغضب استغربه ولم أفهمه حتى يومنا هذا.. خلطت كل الأوراق وبعثرتها ونسيت علاقة سنوات فى لحظة.. ورغم تحصيناتى الكثيرة وترديدى المستمر أنه لا صداقة بين من يعملون فى مجال واحد، فإننى كنت أظن أن للقاعدة استثناء.. التجربة أعادتني إلى أرض الواقع.. وكالعادة

ضحكت صديقتي ربة المنزل حين حكيت لها ما حدث متألمة.. حزينة وقالت: "أمر متوقع" وضحكت كعادتها من سذاجتي.. مرددة: "عدوك ابن كارك".. والأمر.. قد لا يصل إلى حد العداء.. إلا أنك تجد في أية مهنة غيرة وتنافسًا، وكأن الآخر يأخذ كل حقوقى رغم أننى لو اختفيت من وجه الدنيا، فإنه لن يأخذ إلا نصيبه.. نجاهل بعضنا البعض، ونبتسم في وجوه بعضنا البعض ونتبادل القبلات ونقيم حفلات أعياد الميلاد وحفلات الوداع والمعاش، نرسل باقات زهور ورسائل موبايل في علاقات معظمها سطحية.. علاقات زجاجة أى حجر من الممكن أن يحطمه أو يخدشه، أو يحوله إلى فتافيت صغيرة يستحيل جمعها.

أشكر الله على وجود صديقة تعيننى وتعزز إيمانى بقيمة كبيرة مثل الصداقة.. وشكرًا لصديقتي على تحملى كل هذه السنوات.. أما تجربة زميلة العمل التى كنت أعتبرها صديقة، فقد علمتنى رغم أنها آلمتنى درسًا مستقبليًا.. فإن كان لا يزال فى العمر بقية.. فلن أردد ما قالته لى صديقتي الحكيمة عن عداء أبناء الكار الواحد.. فالعداء كلمة أرفضها.. والعداء عملية أيضًا من طرفين لن أشارك بها أو فيها أو فى صنعها.. زميلتى التى كانت صديقتي علمتنى أمرًا آخر بمنتهى البساطة أقوله: "من تلسعه الشوربة.. لا بد أن ينفخ فى الزبادى".

نظرة وابتسامة

لماذا أصبحنا أكثر غضبًا.. لماذا أصبحنا أكثر تشاؤمًا؟... لماذا أصبحنا أكثر حزنًا؟ نضحك ونخاف فنقول اللهم اجعله خير... فاجأتني ابنتي منذ يومين حين قالت لي.. أحب ضحكك هذه ياماما كثيرًا فلماذا لا تضحكين دائمًا؟... وأنا التي كنت اعتبر نفسي من المبتسمات المقبلات على الحياة... توقفت أمام العبارة وتساءلت: هل أنا وحدي من يشعر بضغوط الحياة؟ ونظرت حولي فوجدت الجميع مثلي.. مرهقين متعبين خائفين من الابتسام، إلا في حدود المجاملة أو التقرب واللفظ.. لم أعتقد أن أحد أهم أسباب انتشار أفلام الكوميديا هي هذه الحالة العامة للناس، ولا أستطيع أن أحدد إن كانت هذه الحالة حديثة أم أننا نحب الحزن منذ الأزل؟ القراءات تقول إن الفراعنة اهتموا كثيرًا بالطقوس الجنائزية، وبالحياة الأخرى والرحلة إليها عبر نهر النيل... والرسوم على الجداريات الأخرى ملأى بتخيلات الفنان القديم عما تكون عليه الحياة الأخرى... لا نجد أعراسًا أو ابتسامات بقدر مانجد حزنًا... ويقال عن الشعب المصري إن دمه خفيف.. وهذا صحيح.. فأول النكات وآخرها تخرج من مصر.... وعلى الجنازات ننكت وعلى أنفسنا ننكت...

حتى انفلونزا الطيور بكوارثها... يوم إعلانها كانت مصحوبة بمجموعة من النكات... حتى على أعدائنا نكت... "شارون الذى يرفض الموت خوفاً من لقاء عرفات وإجباره على تقبيله".

ويقال إن استطلاعات الرأى تهتم كثيراً بالنكات وتحللها لمعرفة نفسية الشعوب والحالة العامة... ما علينا.. فليحللوا كما يشاءون والنكات ستستمر... ولكن ما أستغرب له.. هو هذه الازدواجية ما بين الحزن والميل له واستحضاره، وما بين انتشار النكات بشكل يومى... حتى فى علاقاتنا الشخصية... بخلاء... نبخل بالابتسامة ونبخل بالكلمة الطيبة... ومقارنة بسيطة تعطى مثلاً على ما أقول... علاقات المتزوجين ببعض... ادخل أى نادٍ... ستجد الرجال يقرأون الصحف أو يتحدثون إلى بعضهم البعض، والنساء مهمومات بالأطفال والجري وراءهم... بينما الصورة المقدمة إلينا فى كل المجلات والصحف الأجنبية للعائلة بأن الرجل يحمل الطفل والأم قربته تبسم، أو أن العائلة كلها تجلس فى حديقة توزع ابتسامات، ولست أدري إن كانت حالة التجهم وبالتالي البخل المشاعرى قاهرية فقط أم أنها حالة عامة؟ إلا أن للتلوث الشديد الذى يحيطنا تأثيراً بالتأكيد على حالتنا النفسية، وعلى نفسنا (بفتح الفاء) فلقد ضاقت أنفاسنا من قلة الأوكسجين، والدليل أننا خارج القاهرة نتنفس ملء رئاتنا... والنتيجة... أن ضيق النفس يؤثر على السلوك.. ولكن مع هذا... ما دخل الابتسامة؟... صحيح أن العلماء أكدوا وجود 18 نوعاً من الابتسامات... إلا أن الابتسامة الصادقة هى الابتسامة

الحقيقية وسط هذه الأنواع... ويقال إنه لمعرفة مدى صدق الابتسامة يجب قياسها... فالصادقة تدوم أربع ثوانٍ بحد أقصى.. وإذا أردت معرفة مدى صدق ابتسامة الشخص الذى أمامك ما عليك إلا النظر فى عينيه... فعندما تكون زائفة فإن العضلات التى لا يمكن التحكم فيها تبقى كما هى... وديننا يحض على الابتسامة... إذ يقول رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام "تبسمك فى وجه أخيك صدقة"... فقد كان ولا يزال ويبقى دوماً لنا فى رسولنا الكريم أسوة حسنة... ويقول أبو الدرداء رضى الله عنه "ما رأيت أو ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث حديثاً إلا تبسم".

وفى حديث آخر عن عبد الله بن الحارث بن جزاء قال: "ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله صلى الله عليه وسلم"... لكننا كعادتنا نأخذ من الدين القشور... حتى عندما نقوم بتدريس مادة الدين فى المدارس، يكون الأساتذة متجهمين ويسهبون فى الحديث عما ينتظر أطفالنا من عذاب فى الآخرة، عملاً بمبدأ الترهيب، ويعتمد البعض على أن "كثرة الضحك تميئ القلب" وهو حديث صحيح حسبما أعلم، إلا أننا لا نتوقف أمام "كثرة" ونستبدلها بأى ضحك... صحيح أن الحياة صعبة بضغوطها اليومية، وأننا لانعرف كيف نستمع ونعيش فى فوضى... ولا نعطى لبدننا ولا لأهلنا ولا لأقرب المقربين إلينا ولا لأنفسنا حقوقها... نركض ونلهث فنتعب... ومع التجهم المستمر تبدأ علامات السنين فى الظهور بشكل واضح على وجوهنا.. ونصل إلى درجة أننا نتساءل إذا ما ابتسم أحد فى

وجهنا.. مالذى يريده منا بالضبط.. ما وراء هذه الابتسامة؟ ولنبدأ بالمحلات العامة... وهناك مثل صينى يقول: " الرجل بوجه غير باسم لا ينبغى أن يفتح دكاناً"... ادخلوا دكاكين مصر ومحلاتها ومطاعمها... ولوطبقنا المثل لأغلقناها كلها... فالبائعون فى المحلات شديرو التجهم.. يلومونك أنك دخلت وأجبرتهم على القيام من مقاعدهم... يطفشون بدل البيع... وكأنهم ينتقمون من صاحب المحل وزبائنه... ادخل أى مطعم... ولو اعترضت... وهذا حقك فأنت تعبان بالمال الذى سوف تدفعه... فسوف يحملك النادل الذنب، وأنت أنت من أساء الاختيار، ويرسل لك نظرات نارية تجعلك تأكل ما لا يعجبك وتدفع فى النهاية.

يبدو أننا حائرون فى نظريات اقتصادية عن سبب تراجعنا اقتصاديًا، وتحول الصين إلى غول صناعى كبير... قد تكون الابتسامة أحد هذه المفاهيم والنظريات... إلى كل أصدقائى... رجاء ورفعاً للروح المعنوية المسيطرة... وخروجاً من حالة التجهم العامة.. إضافة إلى الابتسامة التى طلبتها.. هل لى بمعرفة آخر نكتة؟

هلا أسقطنا الأقنعة ؟

لماذا نضع جميعاً أقنعة على وجوهنا ؟ لماذا لا يتصرف أى منا بشكل طبيعي كما يشعر ؟ لماذا نقيس ردود أفعالنا بالقلم و المسطرة و نخاف أن نطلق العنان لمشاعرنا.. ؟ نرد بحساب و نخاف أن يظن أو يعتقد أو.. أى فعل آخر بالمعنى نفسه، المهم أن الآخر الذى نتحدث إليه يأخذ علينا.. أو يصادقنا زيادة، و بالتالى قد يتطور الموضوع و يطلب منا شيئاً.. نخاف أن نبتسم فيرد الآخر الابتسامة ثم يستغلنا بشكل أو بآخر.. أو على العكس يتهمنا بالابتسام فيقول: يا بخته ما عندوش مشاكل و قادر على الابتسام.. و كأن الابتسامة أصبحت تهمة فى زمن كثر فيه التجهم بشكل كبير.. و حتى فى حياتنا اليومية نتحدث عن صداقاتنا، فنجد أنها ليست تلك التى قرأناها فى الكتب، خصوصاً كتب المطالعة عند الأطفال "

الصداقة هى إحدى ضروريات الحياة " و أن أهم صفات الصديق " كتمان السر و مشاركته فى أى محنة " .. أما عن كتمان السر فلا أحد أصلاً يثق لدرجة إطلاع على السر، ولو فعل لندم و خاف حتى من أقرب الأصدقاء أن يفشى سره فى يوم من الأيام.. و المشاركة فى المحن تحدث، و لكن المشاكل تأخذ الناس.. أنا لا أنفى وجود

الصداقة.. بل على العكس أتحدث عن ندرتها، وإن وجدتتها تصبح أمرًا وجب الحفاظ عليه بكل الطرق و الدفاع عنه تمامًا، كما لو كان لديك كنز أثري نادر، وأنا أقصد كلمة أثري التى تعنى من الماضى، و لكن قيمتها موجودة حتى اليوم.

و حكاية الأقنعة قديمة جدًا.. و اكتشفها الإنسان الأول بفطرته.. فنجد أن الفن الإفريقى يركز على الوجوه و الأقنعة، و لهم فلسفة فى ذلك.. فهم يعتبرون أن الشخص بتفاصيل وجهه العادية لا يمثل الحقيقة، فالقناع يمثل الوجه الحقيقى للإنسان، حيث هو الوجه الذى لا يتغير، فالإنسان الطبيعى تتغير ملامحه و تتبدل و لكن القناع يبقى ثابتًا وهو يحتل مكانة خاصة لديهم... و فى الصين قديمًا كانوا يضعون مساحيق على وجوههم تمامًا كالأقنعة، تجعل الرجال يقومون بأدوار النساء بسبب التقاليد التى كانت تمنع النساء من التمثيل.

وحكاية الأقنعة هذه تؤرقنى.. فأنا دائمًا أحاول فهم من أتحدث معه، وأجدنى دائمًا أسأل نفسى.. أى قناع يضع؟ وهناك فرق بين الرجال و النساء فى نوع الأقنعة المستخدمة.. فالرجال فى العمل يرتدون قناع الجدية و الحزم، و فى المنزل قناع الصمت أما أمام سيدة جميله فتتبدل الأقنعة و تتغير و فيها كلها عنصر واحد.. ابتسامة عريضة قد لا تفوز بها الزوجة فى المنزل، إلا فى المناسبات الرسمية والأعياد.. أمّا النساء فأقنعتهن مختلفة.. تتراوح ما بين أقنعة التجميل من كريمات و مواد طبيعية، كالحيار و الجزر إلى الماكياج لإخفاء العيون المتعبة، والجفون المرهقة أو لمجرد إضافة تحسينات.. أما

الأقنعة التى أتحدث عنها فى اعتقادى إنها أكثر تعقيدًا من أقنعة الرجال.. فعلى الرغم من أن المرأة دائمًا مهتمة بأنها صعبة الفهم على الرجل فإنها أكثر وضوحًا.. فهى أكثر تعبيرًا عن انفعالاتها و ردود أفعالها أكثر صراحة.. و إن كانت هناك نساء كالرجال.. يصعب اختراقهن.. من الداخل.

أعترف أننى ممن يضعن أقنعة.. و لكن ليس على وجهى.. بل على مشاعرى.. فأنا أحيط نفسى بتحصينات قوية تمنع أى اختراق شديد إلاَّ بإرادتى.. أما وجهى فهو مرآة لما بداخلى، وإن كنت لا أنفى استخدام الأقنعة.. لكن مشكلتى أننى أحب التصرف بعفوية رغم أننى أفاجأ بنظرات لائمة.. أشعر بأن داخلى طفلة لم تستمتع بطفولتها لذا فهى حزينة.. تقبع و تنظر إلى بلوم.. فأخرجها بين الحين و الآخر واضعة على جنب كل الأقنعة.. المشكلة أنه فى أحيان كثيرة.. أقرب الناس يستخدمون الأقنعة.. و أحاول تمزيقها.. أحاول فهمهم وعندما أفشل.. أحبط.. فأضع على وجهى قناعا من الثلج و البرود.. تمامًا مثل بقية البشر.. وأحزن.. أليس من الأفضل لو تركنا وجوهنا فى الشمس.. و دفء المشاعر لتذيب كل الأقنعة الباردة؟ أليس من الأفضل لو تصرفنا على سجيتنا دون اعتبار لنظرة أو كلمة عتاب؟ وأكمل كغيرى تغيير الأقنعة التى تسقط عادة بسهولة.. مع لحظة صدق حقيقية أعيشها؟ و تعود كلمات الشاعر محمود درويش لترن فى أذنى: " سقط القناع عن القناع عن القناع " و أخرج يوميًا ماردة لنفسى.. ترى أى الأقنعة يرتدى من سوف أراهم اليوم؟..

و عندما أنجح فى إسقاط قناع عن وجه، و تظهر الملامح الحقيقية سواء
أكانت ابتسامة أو دمة أو قوة أو ضعفاً.. المهم أنها لحظة صادقة..
أشعر بالانتصار وتسقط من على وجهى كل أقنعتى.. و من يدي
ونفسى.. كل أسلحتى الدفاعية.. فهلا أسقطتم الأقنعة.. هلا تحركتم
بقلوبكم لا بأقنعتكم؟.. هلا كنتم أنفسكم.. لا ما يريده الآخرون
منكم؟ أنا أفعلها كثيراً.. صدقونى.. و ساعدونى، و ساعدوا أنفسكم
كى نفعها دائماً.

عادي... ؟!

إذا سألت أحداً ما عن أخباره اليوم أجابك "عادي"، وإذا سألته لماذا هو مكتئب.. رد "عادي"، وإذا سألته لماذا هو سعيد، رد أيضاً "عادي".

"عادي": هي أكثر الكلمات انتشاراً هذه الأيام، إذا انتقدت تصرف أحد، أجابك المدافعون عن تصرفه "عادي"، وإذا انفعَل مرَاهق ودخل في مشاجرة وأتيت أنت ولي الأمر لوجدت سيلاً من الهجوم عليك، ودفاعاً مستميتاً عن تصرفه "العادي"، وإذا أطال شاب شعره أطول من الفتيات، وحاولت إشعاره بأن الأمر منتقد، لنظر إليك مستغرباً ومستنكراً ومردداً لماذا؟ "عادي"، أما إذا شاهدت فتاة مرَاهقة أيضاً ترتدي بودي ضيق فوق بنطلون جينز تحتار كيف دخل فيها أو دخلت فيه، وفوق كل هذا غطاء للرأس أو حجاب، ودخلت معها في نقاش عن مدى صحة حجابها لأجابتك "عادي".

"عادي" هي أكثر الكلمات انتشاراً في حياتنا هذه الأيام.. كل شيء "عادي"، واللفظ في حد ذاته لا يشكل لي شيئاً، لا بل قل.. إنه يشكل.. فأنا من الناس الذين لا يزالون يستنكرون وينددون ويفرحون ويحزنون ويملئون الأمور العادية.

أستغرب كيف أثرت الكلمة على حياتنا بشكل كبير.. فأصبحنا نرضى بحياة عادية وبعلاقات عادية.. نرضى بها هو بين أيدينا فلا نحاول تغييره.. مهنتنا لا تعجبنا فنقول عادى.. كل الناس لا تحب مهنتها.. وهذا غير صحيح.. نشعر بأننا لانملك صداقات حقيقية، وأن علاقاتنا بمن حولنا أقل ماتوصف به هو السطحية، فنردد "عادى".. كل الناس هكذا، وهذا ليس صحيحًا، فبعضنا يمتلك صداقات قد تكون قليلة وتصل إلى أرقام مفردة.. إلا أنها حقيقية وليست.. عادية.. ننظر إلى الأزواج في أى مكان عام وهم يجلسون فى صمت، أو يحاورون أطفالهم فى محاولة لكسر حاجز الصمت، الذى بينونه بينهم ويرتفع مع الأيام، ويتحول إلى جبل عالٍ يختبئ كل واحد من الزوجين خلفه خوفًا من سهام، أقصد نظرات غضب الآخر.. ويتعود الزوجان على الصمت، وعند السؤال عن الحالة تكون الإجابة "عادى".

على الرغم من أنك لازلت تستطيع أن تجد أزواجًا يتحاورون ويتحدثون ويتحدون ملل السنين.. فإن الأمر بالطبع بحاجة إلى جهد.. غير عادى.. حتى نشرات الأخبار.. ومشاهد الدماء والشهداء فى فلسطين والعراق أصبحت بالنسبة لنا.. عادى.. شاب يموت فى عز شبابه تقول: يا حرام.. بس عادى.. طلاق كل ست دقائق خبر عادى.. فيضانات وكوارث.. عادى.. شباب فى عمر الورد يدمن مخدرات.. عادى.. حتى نسبة المشاركة فى التصويت على الانتخابات كانت أقل من العادى، كل شىء أصبح " عاديًا ".. لاندهش.. لانفاجأ.. مع أن الدهشة من المشاعر الإنسانية المهمة.

ولغويًا وضعت علامة استفهام وأدواتها درست في المدارس ولم نتعود عند سؤال مثل " هل ذهبت إلى المدرسة اليوم؟ " أن تكون الإجابة عادى.. فمن المفترض أن تكون بنعم أو بلا.. وعلامات التعجب درسنا أنه يجب أن تصاحبها نبرة صوت تنم عن التعجب.. لا أن نتعجب تمثيلاً.. ثم نسخر قائلين.. عادى.. الكلمة حقيقة مستفزة.. لو قررنا التخلص منها قولاً وفعلاً لشعرنا بفرق كبير.. ولو رفضنا العادى والمعتاد.. لعادت إلينا الدهشة.. لأيقظنا مشاعر داخلنا كانت نائمة طويلاً.. لاكتشفنا علاقات كانت في حاجة إلى جهد كي تنمو.. لتعبنا أكثر، هذا صحيح ولكنه التعب البعيد عن الرتابة والملل، التى تخلق حالة ركود تسببها كلمة عادى.

دعوة منى لنسف الكلمة والتخلص من تأثيرها السيء على حياتنا، وعلى حوارتنا ومشاعرنا وعلاقاتنا... دعوة إلى صداقة غير عادية.. وحب غير عادى، وزواج غير عادى ونجاح غير عادى، وباختصار حياة غير عادية، هناك شعار اعتبره عبقرياً وأردده دائماً لأولادى ولمن هم حولى: لا تقلد... ابتكر.. أى باختصار لا تأخذ من الدنيا ما هو عادى، بل جدد. وطلب أخير إن كان لديكم أى تعليق أو وصف بعد قراءة مقالى.. أرجو أن يكون بأية كلمة تختارونها إلا "عادى".

Happy New Year

هل نحن شعوب محبة للنكد؟ هل نخاف من الفرحة فنضحك
لنعقبها بعبارة "اللهم اجعله خير" .. لست أدري... إلا أن السؤال
يلح على دائماً في مثل هذا الوقت من العام.. فترة أعياد الكريسماس
ورأس السنة.. ففي الغرب يأخذ الاحتفال شكلاً رسمياً، إذ يوقد
العمدة أو إحدى الشخصيات المهمة شموع شجرة الميلاد..
وأنوارها.. يتبادل الجميع كروت المعايدة المكتوبة باليد، ويضعونها
تحت الشجرة في منازلهم أو على مكاتبهم.. ويتحدث الجميع عن
"روح الكريسماس"، وكيف أن الإنسان في هذه الفترة يجب أن يتحلى
بالأخلاق الحميدة، تماماً كما كان السيد المسيح.. لدرجة أنني تعرفت
أثناء زيارتي لألمانيا على شاب مصري، قال لي إنه يحرص كل عام على
تسوية أوراق الضرائب الخاصة به، في فترة أعياد الكريسماس، لأن
الناس تكون أكثر تسامحاً وابتسامتهم أوسع، وقدرتهم على التفهم
أعلى، إضافة إلى إحساسهم بالسعادة لاقترب موعد الأجازة... تأخذ
البلد كلها أجازة ويتزاور الأهل ويلتقون.. وهى من المرات القليلة
التي يلتقون بها... لأن الكريسماس يذكرهم بالروابط العائلية ومن
لا يلتقى عائلته طوال العام لابد وأن يلتقيها في هذه

الأيام... الدنيا كلها تتحول إلى عيد بمظاهر وإنارة وإضاءة ولعب أطفال، وأحلى مافى الموضوع الهدايا.. يتبادلونها مرددين أن بابا نويل هو من أتى بها.

لو فكرنا فى التفاصيل الكثيرة التى ذكرتها، لوجد البعض أن السبب يكمن فى اختلاف الثقافات.. ربما هذا صحيح.. ولردد البعض الآخر إنهم شعوب مرفهة، لا يعانون مشاكل مادية مثلنا.. وأبسط ردودى على الموضوع: رسائل الموبايل.. نحن ننفق أموالاً باهظة على رسائل الموبايل، فى كل المناسبات حتى فى "فالتين" عيد الحب، رغم أنه قديس مسيحى تحول إلى رمز لعيد الحب.. فإننا مسلمون ومسيحيون نحتفى بالعيد، ونرسل الرسائل، وهو فرحة لكل شاب لكى يعرف عدد المعجبات به.. أو فرحة للتقرب من الحبيب.. ماعلينا.. نعود للكريسماس ورأس السنة.. الفرق بين رسائل الموبايل والكروت المكتوبة بخط اليد أن الثانية أكثر حميمية.. والأولى إلكترونية. أى خالية من العواطف.. ونحن بدلاً من أن نحول الأعياد إلى فرحة للقاء الأهل.. حولناها إلى فرصة للخروج والسهر. لأن حياتنا جميعاً غير منظمة أو مرتبة.. نلهث وراء العمل، فيستغرقنا ويأخذ حياتنا دون حتى أن نعطيه حقه علينا.. لأننا محبطون مجهدون نلقى باللوم دائماً على الآخر أنه لم يبادر بالعطاء.. لدرجة أننى لاحظت أن رسائل الموبايل التى تصلنى تكون فى معظم الأحيان ردوداً على رسائل بادرت أنا بارسالها.. وأقول هذا عن تجربة.. ففى إحدى المرات قررت ألا أرسل لأحد "مسيجات" وكانت

النتيجة عددًا قليلًا جدًا من الرسائل.. "زعلت". ثم كعادتي أزعجت الأمور إلى أسبابها وقررت أن أكبر دماغى.. وأبادر بالإرسال وأفرح بما يأتينى من رسائل.. وأنا أعيش وسط عائلة تعودت أن تأخذ الطقس السعيد دون السؤال عن ديانتها.. وهذه حال اللبنانيين وأهل الشام.. وأمى منهم.. فورثت جيناتها فى هذا الموضوع.. فعشت طفولتى وفى بيتنا شجرة الكريسماس.. مع الحرص على الذبح فى العيد الكبير، وأكل البيتفور والكحك فى العيد الصغير.. حتى لا يفهم من كلامى أن تأثيرات الغرب على أكبر.. وعندما كبرت وتزوجت وأنجبت.. حرصت على فانوس رمضان... وشجرة الكريسماس فى بيتى... وأولادى يسعدون بها كثيرًا.. ويفرحون.. وطوّرت الأمر إلى تبادل هدايا رمزية.. بيننا.. سيقول البعض إنها بدعة.. وأنا أقول.. وهل يريد الله لعباده إلا الفرح والرضا ما المانع من أن آخذ أى تقليد مفرح وأقوم به؟ وما المانع من أن أشرك الآخرين فى فرحى؟ ما المانع فى ألا نعطى للفرح جنسية أو هوية أو ديانة؟.. ألسنا كلنا نعيش باحثين عن لحظات سعادة قليلة تضىء حياتنا؟ عبد الحليم اختصرها فى عبارة " اديك عمرى بحاله وادينى الفرحة ياعين"... فى كلمات الأبنودى.. أيا كان شكل هذا الفرح... ومهما قصرت مدته.. فهو مباح ومسموح به بل ومطلوب.

عن الكلام

لفت نظري صديقي الشاعر الشاب، الذي يحرص مشكوراً على قراءة مقالاتي في "المصرى اليوم" أننى أكرّر استعمال عبارة "حتى لا يساء فهمي"، وكأنها أصبحت أشبه باللازمة لدى، والحقيقة أننى لم أنتبه للأمر، ولم أكن أعيه، لكنه دعانى للتفكير، ما الذى يجعلنى أكرر عبارة كهذه؟ فاكتشفت أن تاريخ سوء الفهم الذى يسيطر على علاقاتنا وحواراتنا هو السبب، وأنا الذى كنت أعتقد أننى أستطيع أن أقول ما فى رأسى فى أى وقت، فى الواقع: أنا أفعل هذا طوال الوقت، ولكن فى أحيان كثيرة أصطدم بردود فعل من يحيطوننى حتى أقرب المقربين إلّىّ، وأسمع عبارات مثل: الوقت ليس مناسباً، وهنا يبرز عنصر آخر: التوقيت، هل ما يقال فى وقت ما لا يصلح فى وقت آخر؟ والمجتمع كله فى حالة من حوار الطرشان كما يقال، وإن تحدث أحد وأسيء فهمه، فهذا لأن كل إنسان يفهم الآخر حسب نيته هو، أى: نية المتلقى، فلو أننى افترضت حسن النية لفسرت كلام المتحدث بما يحمله من معنى، ولو افترضت سوء النية فى محدثى لبدأنا مشادة قد تنتهى بخصومة، وما حدث لوزير الثقافة فيه الكثير مما أعنى، الرجل قال رأيه، حتى ولو كان ضد الحجاب، وهو حر، كفنان عبر عن

أن النساء زهور فاصطاده المتشددون برفض تشبيه النساء بالزهور، وبين شد وجذب، دفعوه للخطأ وجرجوره إليه، بل وقرر نواب مجلس الشعب جميعاً تنصيب أنفسهم حكماً وقضاة، الغريب وعلى رأى صديق آخر شاعر، أن جلسة " الحجاب " حضرها كل النواب والوزراء، وتباروا في الهجوم على الرجل والدفاع عن الحجاب، إلى حد اعتبار من هم ضد الحجاب ضد الأمن القومي، وفي اليوم التالى كانت جلسة مجلس الشعب الخاصة بمناقشة البرنامج النووى، ولم يحضر أحد، إلا وزير واحد وعدد قليل من النواب، وإذا ما عدنا للكلام، فهناك العديد من الدراسات التى أجريت فى العالم كله حول هذا الموضوع، لدرجة أن بعض الأطباء النفسيين، نصحوا الإنسان أنه يجب عليه من وقت لآخر أن " يصوم عن الكلام "، بمعنى أن يختلى الإنسان بنفسه ليريح عقله الذى يعمل طوال الوقت، ما بين إيجاد عبارات منمقة لرئيسه فى العمل، وإيجاد العبارات الآمرة لأولاده فى المنزل، واللوم لزوجته المقصرة دوماً، وإيجاد النكات الطريفة لأصدقائه من الرجال دائماً.

و للسكوت أو الصوم عن الكلام فوائد عدة، لذا تجدها فى كثير من الفلسفات الشرقية والأديان، وفى قرآنا الكريم قالت السيدة مريم ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ﴾ أى صُمتُ عن الكلام إلى حد وجود حركة فى أميركا تسمى " حركة الصوم عن الكلام "، يتعهدون بالصمت يومياً لبعض الوقت، بحثاً عن الاستقرار النفسى والهدوء، أعتقد أن حركة كهذه من الصعب جداً أن تنجح فى مصر،

فنحن شعب محب للكلام، في كل وقت وفي أى موضوع، ولا أحد يقول أبدًا "لست أدرى"، ولو سألت أحدًا عن عنوان لا اعتبر أنه من العيب ألا يدلّك، حتى ولو ذلك خطأ، وحكاية سوء الفهم هذه تجدها بسبب الفوضى المنتشرة في المجتمع، فليس هناك "سيستم" على رأى إخواننا الإنجليز، الذين احتلونا ولم ينجحوا في أن ينقلوا إلينا حبهم الفظيع للنظام، ونقلوا إلينا تمسكهم الشديد بالبيروقراطية، والمشكلة أيضًا أن سوء فهم الآخر لكلامى يعطيه الحق في أن يحكم علىّ، ويحاكمنى ويصدر أحكامه، بل وينقلها إلى الآخرين، ويبدأ الآخرون في النظر إلىّ بعيون من أساء فهمى، ويحاسبوننى على خطأ الآخر، الذى نصب نفسه قاضيًا وحاكمًا علىّ.

ويبدو أن هذه الأمور قد أثرت فيّ بشكل كبير، بسبب ما أقرأه أو أعانيه في حياتى اليومية من تعاملات يغلب عليها الافتراض، فكل من يفترض أن رأيه هو الصحيح، يفرض عليك رأيه هذا، وتكون المشكلة أكبر عندما يتعلق الموضوع بالدين، وتنصب المحاكم المكارثية، ويصبح كل واحد قاضيًا على الدين و مدافعًا عنه، والدين عادة أفضل طريقة لجمع أكبر عدد من الأشخاص، حتى الذين لا يقيمون الفرائض أو يرتشون أو يكذبون، أو حتى لا يميطنون الأذى عن الطريق، وربما من الأفضل السلامة، بمعنى اختيار سكة السلامة، وعدم الخوض في موضوعات شائكة "حتى لا يساء فهمنا"، ولكن أية حياة هذه التى نغلّف فيها أنفسنا بجدار من الصمت، ونضع أمام من هم حولنا حواجز وقيودًا، صحيح أن هنالك ما لا يجب

أن يقال، وكنت أتحدث مع صديقتي في هذا الموضوع منذ أيام وسألتني، ما الذى نقوله وما الذى لا نقوله ؟ ما الحدود المرسومة بين الأصدقاء ؟ واتفقنا على أمر أنه مع الأيام نكتسب خبرة بما نقوله، ونفرمل انفعالاتنا حتى لا نعطى من لا نريده أن يأخذ مساحة أكبر في حياتنا، ونضع حدودًا لتعاملاتنا معه، ففي أحيان كثيرة، تكون الكلمات الطيبة فخًا، ففي إطار المجاملة نفتح أحيانًا أبوابًا مغلقة، وأخيرًا، وباختصار وبعد كل ما قلته، الحقيقة أن الإنسان أسير طبعه، قد يهذهبه مع الأيام، بمعنى يغير بعض خصاله السيئة.

الكلمة نور، وبعض الكلمات قبور، كما قال الشرقاوى في مسرحية " الحسين "، إلا أن الكلمة مسئولية، والمشاكل الناتجة عن الكلام كثيرة، والمشكلة الأكبر عندما يعمل الإنسان في مجال الكلمة، ويعتبر أن في يده سلاحًا يستطيع استخدامه كيفما يشاء، ويفرح بنفسه وبقلمه ويبدأ في الحديث عن خلق الله كيفما يشاء، إلى هؤلاء نقول في حال كونهم لا يعلمون، في سورة البقرة الآية 83 تقول " ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ وقال تعالى أيضًا ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ لو أننا التزمنا بهاتين القاعدتين لارتحنا من الكثير من سوء الفهم، ولا نعتبر أنفسنا قضاة، ونصدر أحكامًا على الآخرين، أما أصحاب القلم الذين يحولون أقلامهم إلى " بمب " يؤذى القلوب قبل الأعين فنقول: " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليصمت ".

هتلر وراسبوتين وما بينهما

من أصعب الأمور في الحياة التعامل مع الشخصيات الشريرة، مع أن كل الناس في نفوسهم الخير والشر، وقد كتبت من قبل أنني عندما التقيت " بعزت حنفى " المتهم في قضية النخيلة، أو امبراطور النخيلة كما يطلق عليه، وأجريت معه حوارًا بعد إلقاء القبض عليه قال لى: " إن الله تعالى هو خالق الخير والشر " و أنه - أى عزت - أحد مخلوقات الله الضرورية لاستقرار الكون واستمراره، لذا يجب أن نتقبله كما هو، وقتها توقفت طويلا أمام فلسفته، ومع اقتناعى بأن الله تعالى حكمة مؤكدة في خلق الشر، إلا أنني يومياً ومهما تقدم بى العمر لا زالت في داخلى دهشة، لا تكل ولا تمل في كل مرة أتعامل مع أشخاص شريرين أو أقرأ عنهم.

ولفظ " شرير " يذكر بالسينما، "بمحمود المليجى" الذى يقال إنه كان طيباً للغاية في الحقيقة، أو بكمال الشناوى في المشهد الشهير في فيلم الكرنك، أو بأفلام الهنود الحمر التى تغسل أدمغة الأمريكيين عن أصحاب الأرض الأصليين، ويصر الأمريكيون على إظهارهم في صورة المجرمين و "الشريرين"، أعود إلى اللفظ، ومن أشهر شريرى التاريخ المعاصر هتلر، حاكم ألمانيا و المؤمن بالجنس الأرى،

والذي أدخل العالم كله في حرب عالمية ثانية، هتلر، كان فناناً فاشلاً، يهوى الرسم، ورومانسيًا أحب "إيفا براون"، وتزوجها في آخر أيامه وانتحر معها في مشهد يذكرنا بروميو وجولييت، هذا المحب الرومانسي والفنان الفاشل، هو نفسه من تسبب في مقتل أكثر من ستين مليون إنسان، هم ضحايا الحرب العالمية الثانية.

والسياسة هي دومًا الباب الواسع والذي يسمح بكل الشرور، لذا يقال في الحب والسياسة كل شيء مشروع حتى غير المشروع، أنا ضد المقولة طبعًا، ولكن حياتنا و صحفنا مليئة بما يثبت صحة الشعار، فرافعوه كثر، ولعل "أشر" شخصيات التاريخ، أو أحد أكثرها شرًا، وأنا هنا أقدم أفعل التفضيل نظرًا لمهنته لا لجرائمه فحسب، هو راسبوتين واسمه بالكامل "غريغوري يافيموفيتش راسبوتين" ولد في قرية ريفية في سيبيريا في روسيا، ظهرت لديه قدرات خارقة في مراهقته، إذ كان يستطيع أن يبرئ حصانًا من لمسة، لكنه اكتسب اسم راسبوتين ومعناها الفاجر، بسبب علاقاته الجنسية الفاضحة، تزوج وأنجب أربعة أطفال وكان كثير الشرب، وذات مرة اتهم بسرقة جواد ففر ولجأ إلى أحد الأديرة، حيث اتخذ صفة الرهبنة التي لازمته طيلة حياته، وبدأ جولاته وذاع صيته، وبدأ يكوّن حوله مجموعة من الحواريين و الأتباع، وأصبح صديقًا للملكة روسيا وتوغل في البلاط، وبدأ صراعاته مع قيصر روسيا و أقاربه، وقرر اثنان من أقرباء القيصر قتله، فدعياه إلى القصر للقاء واحدة من أجمل نساء روسيا، مدركين ضعفه الشديد أمام شهواته، وقدما له الكعك و الخمر

المجشوين بالسّم، وقاوم الرجل الجبار، فأطلقا عليه النار و ألقياه في النهر، وبعد كل هذا عندما انتشلوا جثته وجدا في رثتيه ماء، مما يعنى أنه كان لا يزال على قيد الحياة عند إلقائه في الماء.

وراسبوتين وهتلر شخصيتان مثيرتان للجدل، إلّا أن أطماعهما كانت هى المحرك الرئيسى لكل ما حدث لهما، وأشباه راسبوتين على الأرض كثر، انظر حولك فى محيط عملك، ستجد المتملقين وهم ينتشرون فى كل المهن والمجالات، وهم أكثر من الهم على القلب، أما الأشرار، فعددهم والحق يقال أقل بكثير، فمن يتخلى عن ضميره ويبت سُمومه لإيذاء الآخر، عددهم أقل، فهذا النوع من البشر يحتاج إلى عدة عناصر كى تتوافر فيه، أولها: نسيان الضمير، ويكون هذا إما عن طريق تحديره وإقناعه، أى إقناع ضميره، أن ما يفعله صواب، بل ويصل الإقناع أحياناً إلى درجة إقناع النفس بأن ما يفعله هو لخير الأمة الإسلامية، و المسيحية، بل لخير البشرية كلها، وكأن البشرية توقفت أصلاً عند أمثاله، الأمر الثانى: الذكاء، وهذا أمر يجب أن نعترف به، فالأشرار عادة من الأذكياء، إلّا أنهم يوظفون ذكاءهم فى تدمير الآخرين، بدلاً من بناء أنفسهم معتبرين أن صعودهم على أكتاف وجثث الآخرين انتصاراً، ومن هنا يشبهون هتلر.

الأمر الثالث والأخير أن الشرير عادة يصاحب الشرير، حتى يتحقق له ما يريد، فقد يعاديه قبل أو بعد اصطياذ هدف، المهم أن يكون رفيق المرحلة، ويكون هناك فى العلاقة ذكى وأذكى، أو ذكى وغبى، والثانية تكون فى الأغلب لأنه يتحول إلى منفذ

لأوامر الأول، الذى يقنعه أن المصلحة واحدة بينما هو فى حقيقة الأمر تابعه "قفة" فى الشر.

نظريات كثيرة كتبت حول الخير والشر، حول الصراع بينهما، حول غرائز الإنسان وكيف تتحكم فيه، إلّا أننى مقتنعة بأمر واحد، عندما يسيطر الشر على الإنسان، على تصرفاته، يتحول إلى شخص مريض، لا يستطيع أن يتحكم فى غضبه وغيته وحسده ورغبته فى تدمير الآخرين، صدقونى أنا لا أبالغ عند وصفى لهؤلاء، فقد صادفتهم فى حياتى، ليس كثيرًا فى الواقع، ولكننى عندما أجدنى أتعامل معهم لا أستطيع أن أمنع نفسى من التساؤل: هل من الضعف أن أتمنى لمثل هؤلاء الشفاء؟ هل يجب أن أفقد ثقتى فى بنى البشر؟ و أعتبر أن بعضهم من أصدقاء إبليس، قد انتصر وسيطر على مقاليد الأمور؟

تصبح الأمور أقسى حين يرتدى الشر عباءة الغدر، ما الذى أقوله؟ الغدر مرادف للشر ولصيق به، حتى ولو اتهمت بالضعف، ليس من عادتى الدخول فى حروب صغيرة، و لمن يعانون من أمراض مماثلة، أقول: ربنا يشفى.

الدنيا ربيع

يحكى في الأسطورة الإغريقية القديمة عن "بيرسفون" ابنة كبير الآلهة "زيوس" و "ديمتر" أو الأرض - أن "بيرسفون" كانت إلهة الربيع وتساعد أمها الأرض في نمو الزرع.... الإنسان "هاديس" سيد العالم السفلي رأى "بيرسفون" وأعجب بجمالها الأخاذ فطلب يدها من أبيها زيوس، الذى رفض لخشيته من عصبية وعنف "هاديس"، فما كان من "هاديس" إلا أن أخذها عنوة إلى العالم السفلي، ليجعل منها ملكيته... وحزنت "ديمتر" حزناً شديداً على رحيل ابنتها وتوقفها عن مساعدة الزرع على النمو، وبدأت تجوب الأرض بحثاً عنها... وبدأ الناس والحيوانات تشعر بالجوع... وأصرت "ديمتر" على عودة "بيرسفون" لها... وبدأت بممارسة ضغوطها على زوجها "زيوس" الذى اضطر للذهاب إلى "هاديس" يرجوه إعادة "بيرسفون" إلى الأرض، لمساعدة والدتها ثانية على زرع الأرض كي لا يموت الناس جوعاً... إلا أن "هاديس" أعرض.. ورفض... فما كان من زيوس إلا أنه استشاط غضباً وقرر ممارسة سلطانه وأعلن أن زواج "بيرسفون" لن يكون سارياً إلا لو أكلت شيئاً من حديقة العالم السفلي... وعاشت بيرسفون أياماً فى حزن شديد... وكان "هاديس" حزيناً لحزنها.. فأعطاهَا ثمرة

رمان وعندما أكلتها اعتبر زواجها من هاديس سارى المفعول وربطها بالعالم السفلى... وسمح " هاديس " لزوجته بالذهاب للأرض مع بداية كل ربيع ولأنها أكلت " الرمانة " كان لابد لها من العودة إلى زوجها في موسم الحصاد ومع بداية فصل الشتاء.

كل مرة يبدأ الربيع، ومع أغنية سعاد حسنى الشهيرة الدنيا ربيع أتذكر هذه الأسطورة، حكاية حب وحرمان، وفيها الكثير من العناصر الدرامية، التى تصلح فيلمًا سينمائيًا، طبيعة جميلة، قصة حب وحرمان أم من ابتتها وهلعها عليها، ونهاية يمكن أن نعتبرها سعيدة بالزواج، رغم أن لى تفسيرًا آخر لست أدري إن كان يسمح المختصون به "فيرسفون" بين عالم سفلى فيه من الشر والظلام أنواع وأشكال... وما بين الربيع والزرع والورود وهى رمز للجمال.. تكون "بيرسفون" بالنسبة لنا رمزًا للإنسان بما يحمله داخله من صراع يومى، بين الشر والخير، وإن كانت آلهة العالم السفلى أيامها مقسمة ما بين شهور تحت وشهور فوق إلا أننا فى حياتنا اليومية نمر بمحاولات مزاجية أشبه بالفصول الأربعة، نبتسم ونسعد ونحن نوزع ابتسامات لمن هم حولنا، خصوصًا زملاء العمل والغرباء تمامًا مثل فصل الربيع.. وإن كان الربيع أصدق منّا... ولا يحتوى على نفاقنا ومجاملاتنا.. وروده وأزهاره فيها من الجمال ما من شأنه إدخال السكينة إلى النفوس.. ونعود إلى منازلنا مختنقين من الأعباء ومن الزحام ومن التلوث... مثل حر الصيف... وترطب حياتنا كلمة حانية أو مثل النمسات التى تهب علينا على شواطئ بحر الاسكندرية، ومعها يجف العرق

ونأخذ نفسًا عميقًا مع ابتسامة رضا... أما الخريف - بتغير درجات حرارته - فهو ما أصبح معظمنا عليه.. كبرنا قبل الأوان.. وتساقطت أوراق كثيرة كانت تزين حياتنا.. أما الشتاء بزعايبه فهو حالنا.. نصرخ في الشارع لو توقفت سيارة أمامنا لتتزل سيدة عجوز تمر، وبدلاً من إلقاء تحية الفاعل نهب عليه بزعايبنا.. ونصرخ في أولادنا وفي أقرب الناس إلينا... نفرض على حياتنا مع الآخرين أحوالاً من البرودة والصقيع.. نضع الحدود لأننا نخاف أن يقترب منا أحد كثيراً.. نكره أن نفصح عما بداخلنا.. نمتلىء بالعقد النفسية ونعتبر الآخرين مرضى ونحن وحدنا الأصحاء... البشر يشبهون الفصول الأربعة.. في تقلباتهم المزاجية، إلّا أن الشتاء والخريف أصبحا أهم فصلين... فقدنا إحساسنا بالجمال... لم نعد نتوقف أمام لوحة جميلة... أو شجرة مزهرة ونرى قدرة الله سبحانه وتعالى... لم نعد نبحت عن قطعة موسيقى تطرب لها ويحملنا خيالنا إلى أماكن أخرى... نركض ونلهث دون الاستمتاع بنعم كثيرة أنعم الله علينا بها... ننسى أن صغائر الأمور نعمة... قدرتنا على التذوق... نعمة قدرتنا على الشم والنظر والسمع... كل حاسة نعمة... قدرتنا على المشي... نعمة الركض.. نعمة أكبر... إلّا أننا نترك كل هذا ونستنفر طاقاتنا في التأفف والزفير.. ناسين النفس العميق والشهيق.

الدنيا ربيع... الجو ليس بديعاً مع درجات الحرارة المتفاوتة، والتراب المسبب للحساسية... ومع قلة الأشجار في العاصمة واختفاء الزهور تقريباً إلّا من المحلات.. وبأسعار ليست في متناول

الجميع.. فحتى الورود أصبحت أغلى من مقدرة الإنسان العادى،
وأصبحنا نغنى " ياورد من يشترىك " كثيرًا.. مع أن الدنيا ربيع...
والربيع حيكث من أجله الأساطير.. رمز للفرح والجمال، لن أكتب
عن الزهور فى الشوارع... والأشجار المزهرة... لأننى لم أجدها... إلا
أننى سأخذ من الربيع تفاؤله... وإحساسه المرفف... لن أبحث عن
سماء صافية فى العاصمة... ومن أجل عملية الإقناع الذاتى بأن الدنيا
ربيع... سأكتفى بأسطورة "بيرسفون" للتذكرة.. وتكملة عملية
الشحن... سأضع موسيقى تصويرية... من ذهب... تردد الأغنية
الشهيرة وأبحث فى الكتب عن صور "لفان جوخ" و "مانيه" وبقية
الفنانين الانطباعين... لأن الفصول كلها فى القاهرة تتشابه... فأنا
أريد أشجارًا وزهورًا... وجمالاً.. وحتى يتحقق هذا.. إن تحقق فى
حياتى... سأعيش فى الأساطير... والخيال كان دائمًا فى حياتى نعم
الرفيق.

النجاح

معظمنا يسعى للنجاح... ولكن قد يصل إليه دون أن يعلم أنه قد وصل بالفعل، ويكمل حياته وما يبحث عنه بين يديه ولا يعرف... والإنسان دائماً لا يشكر ربه على النعم الكثيرة التي بين يديه، بل وينظر إلى ما بين أيدي الآخرين متسائلاً متى سيحصل عليه؟ وقد قمتُ بجمع مجموعة من العبارات التي قيلت حول هذا الموضوع، لمجموعة من الكاتبات البريطانيات، في تحقيق أجرى حول الموضوع... وأطرح عليكم النتائج المختلفة.... وأنا متأكدة من أن الكثيرين سيجدون أنهم يملكون أكثر من عنصر، وبالتالي يندرجون تحت بند الأشخاص الناجحين... وهم لا يدرون.

النجاح لا يقاس بحجم المال الذي يجنيه الإنسان، ولكن بحجم قدرته على اتخاذ القرار الصائب... تعتقد كاتبة بريطانية تدعى "تيرى ماكميلان" أن النجاح يقاس بقدرتك على أن تصبح شخصاً أفضل.. وقدرتها في الإقلاع عن التدخين جعلتها شخصاً أفضل، فهي بالتالي إنسان ناجح.

الكاتبة "جين سميلي" الفائزة بأفضل جائزة أدبية في بريطانيا "بوليترز" وهي تعادل الأوسكار بالنسبة للسينما تقول:

"النجاح هو أن تكون لك تطلعات عالية حتى لو بدت لك عند التطلع إليها مستحيلة" وتحكى كيف أنها منذ عشرين سنة التقت بناسر شهير وقالت له وكانت مجهولة وقتها... سأصبح كاتبة شهيرة... ووضعت حلمها نصب عينيها... فحققته.

كاتبة قصصيه تدعى (لورا هليونبرابند) وصفت النجاح بأنه يكمن في عمل يمنحك السعادة... وتقول: "عرفت معنى النجاح بسبب رجل كان ناس كثيرين يصفونه بالفاشل... كان يعمل كجوكى أى فارس فى سباقات الخيل، التى تشتهر بها إنجلترا... كان طويلاً على غير العادة لمن يقومون بهذا العمل، وإمكانياته محدودة... لم يكن فارساً هماماً أو متفوقاً، ونتيجة حوادث عدة تعرض لها كان يعانى عمى فى عين واحدة... رغم هذه المعاناة الشديدة فإنه أصر على الاستمرار فى عمله... عندما رأته الكاتبة وكانت هى أيضاً تعاني من الأم شديدة فى الأصابع تمنعها من عشقها الأوحده... التقطت صورته وقررت تعليقها أمامها وبدأت بكتابة قصة حياة الفارس رغم آلامها الشديدة".

كاتبة أخرى تدعى (آمى تان) قالت: عندما بدأت بالكتابة تصورت أن النجاح يعنى ألا يواجه لى أحد انتقاداً... إلا أننى اكتشفت أنك لا تستطيع أن تتحكم فى آراء البشر... وبدأت أعتبر عملية الكتابة نفسها والقدرة عليها نجاحاً... القدرة على نقل ما بداخلك والتعبير عنه... والصدق والشفافية... قطعة من روحك تنقلها على الورق المهم تجد معنى لما تقوم به.

كاتبة أخرى تدعى (كاترين هارسون): قالت رغم نجاحي في العمل والزواج، ورغم تمتعي بصحة جيّدة فإن أكثر ما أعتبره إنجازًا حققته في حياتي آراه في أطفالي... وتحكى الكاتبة كيف أنها لم تكن تنوى إنجاب أطفال، إلّا أنها عندما فعلت ذلك وجدت أنها تحقق نجاحًا طيبًا في تربيتهم... اعتبرت هذا الأمر هو أفضل إنجازاتها على الإطلاق، وأى نجاح آخر لا يساوى كونها أمًا جيّدة.

فكرة النجاح... عند النساء تغيرت مع الزمن... في الماضي النجاح عند المرأة كان يعنى زيجته مناسبة وعريس لقطة... صحيح أن المفهوم لم يتغير كثيرًا.. فالمرأة تحلم دومًا بزيجة مناسبة وبعريس مناسب... ولكن مع تذبذب في المعايير بمعنى أن المرأة أصبحت في العقود الأخيرة، تحلم بالحب وبعلاقة شراكة وتفاهم... كانت المرأة في الماضي مطالبة بالتضحية بأحلامها وطموحاتها، من أجل أحلام وطموحات زوجها... أصبحنا اليوم نسمع عن رجال يكيّفون ظروفهم مع ظروف عمل أو دراسة زوجاتهم... وإن كانوا أقلية... وشرط ألاّ يتعارض هذا مع متطلباتهم الأساسية... يعنى تضحية كبيرة إلّا أنها تضحية بحدود وشروط نعم.

من ناحية أخرى نجد أن المرأة تلام لو لم يحقق أطفالها النجاح المرجو، مع أنها من الممكن أن تكون أمًا صالحة، تقضى وقتها معهم إلّا أن المحيط كله بتأثيره الأقوى يجذبهم لتتهم الأم في النهاية بالتقصير... المهم أن نجاح المرأة دومًا يقاس بنجاح من هم حولها... فهى مسئولة عن نجاح زوجها... فوراء كل رجل عظيم امرأة أشهر

المقولات... لم نخبرنا أحد عن وراء نجاح المرأة... وكأن الأمر ليس بالمهم.. مطلوب منها أن تكون أمًا ناجحة وزوجه ناجحة، ولو نجحت هي فإن إنجازها يعتبر من أعمال الرجل... صحيح أنه أخيرًا وربما لأسباب اقتصادية بالدرجة الأولى تغيرت النظرة... فالمرأة في بلادنا في أحيان كثيرة لا تعمل لتنجح، بل تعمل لتعول نفسها وعائلتها، وبالتالي قد تكون طبيبة ناجحة أو مهندسة متفوقة، إلا أن المطلوب منها هو أن تكون مسئولة عن بيتها وزوجها وأولادها، وإلا فإنها تتهم بالتقصير... أضف إلى ما قلت يجب طبعًا أن تدلع وتطبطب على رأى الجميلة نانسي عجرم... تربية الأولاد... نجاحهم أو فشلهم في رقيتها، وكأن الأسرة اختصرت بالأم فقط... أعتقد أن جزءًا كبيرًا من نجاح المرأة سيتحقق لو أنها نجحت في تغيير المجتمع.

أمور أخرى أعتقد أنها تعتبر نجاحات، والأمر هنا للرجل والمرأة على السواء... ولعل أهمها أن يقتنع الإنسان بما يجب أن يتنازل عنه، فليس من الممكن تحقيق كل شيء والنجاح في كل الأمور... فليس من المعقول أن يكون الإنسان ناجحًا في كل شيء... ويجب عليه تقديم تنازلات في أوقات كثيرة كي يحقق المعادلة... ولكن ما يحدث عادة... أن الإنسان عندما ينجح في مجال، يفقد قدرته على العطاء في مجالات أخرى... خصوصًا الناجح في عمله... يركز لدرجة أنه يهمل أسرته حتى لو ادعى العكس... يهمل واجباته الأسرية وإن قام بها فالجميع حوله يشعرون أنه يقوم بواجب ليس إلا... يفقد قدرته على التواصل مع شريكه سواء كان رجلاً أم امرأة... وأنا أقصد هنا

شريك الحياة... مع أننى أتحدث عن العنصر الناجح من الاثنين... دون تحديد... والأهم يفقد قدرته على الحب... فعندما لا ترى فى الحياة إلا طموحك... تصبح ذاتك هى المحور، وتفقد قدرتك على الحب أو العطاء... تحذير لكل الناجحين والناجحات... التفتوا إلى شركائكم وإلى أولادكم... وإلى أصدقائكم وحاولوا أن تخرجوا من نطاق أنفسكم وطموحاتكم.

أما أنا... فأعتبر أننى حققت المعادلة بشكل كبير... أستمتع بكل لحظة أقضيها فى حديث عادى مع أولادى... فى مشاكلنا البسيطة... فى رؤيتهم يكبرون أمام عيني، والحب يعنى أن أقبلهم وأبحث بنرجسية أعترف بها عما أخذوه منى... أما العمل فأستمتع به أيضًا شرط ألا يكون على حساب حياتى اليومية.... وعلى قبرى هل أود أن يكتب كانت أشهر لاعبة تنس؟ (السؤال للاعبة التنس الشهيرة مارتينا نافراتيلوفا) أجابت... " لا.... أود أن يقال عملت يوميًا بكل جد وأحببت بإخلاص... وكانت عادلة". وأنا أيضًا... مع أننى لست أشهر لاعبة تنس فى العالم، ولا أشهر مذيعة إلا أننى أيضًا عملت بجد وأحببت بإخلاص، وهذا هو النجاح... فالحمد لله.



4

شئون عربية

مين ياترى يسألهم
عن سلام الجبناء؟
لاسلام الأقوياء القادرين
من ترى يسألهم
عن سلام البيع بالتقسيط
والتأجير بالتقسيط
والصفقات والتاجر والمستثمرين؟
من ترى يسألهم
عن سلام الميتين؟
أسكتوا الشارع
واغتالوا جميع الأسئلة
وجميع السائلين

نزار قباني

من قصيدة "المهرولون"

FARES_MASRY
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الابتسامة

حزينة أنا

حزينة أنا لما يحدث في لبنان.... أشعر بالأسى... ولست وحدي في هذا.... أنا متأكدة. وفي كل يوم أشعر بانكسار أكبر... أخجل من نظرات أطفالى وأسئلتهم التى تقول لى: هل إسرائيل تفعل هذا كله من أجل تحرير جنديين أسيرين؟ والعرب صامتون على عشرات القتلى اللبنانيين، الذين يتساقطون الواحد بعد الآخر ومعظمهم من المدنيين؟ عائلة من اثنى عشر فردًا تحاول الفرار فتفر إلى قدرها ومصيرها والأعمار بيد الله... علّه سبحانه يحسبهم شهداء دون أن نعلم إن كانوا مسلمين أم مسيحين... حزينة أنا... أفكر في الرجل... في حسن نصر الله... الذى يقف وحيدًا أمام عالم أجمع يدينه في قضية هو مؤمن بها إيمانًا مطلقًا بعدالتها وبالظلم الواقع عليه، إدانات وتملّص وتحميل مسئولية والرجل يقف متفرجًا، ساخرًا، مصرًّا، وأسأل نفسى، ما الذى يفكر فيه هذا الرجل؟ وكل ما يملكه في الحياة بضعة آلاف ممن اتبعوه؟ وباعوا الدنيا واشتروا الآخرة؟ مؤمنين أن تحرير الوطن هو أسمى درجات الجهاد... مقتنعين أن الدنيا متاع زائل وأن الآخرة خير وأبقي؟.

الجنوب، ولم تتح لي للأسف وقتها فرصة لقاء زعيمهم حسن نصر الله... كانت زيارتي قصيرة وكان وقتها متوَعِّكًا... عرفت عنه الكثير، وأشهر حكاياته... أن ابنه مات شهيدًا أثناء عمليات التحرير... وقتها وقف أمام الجنود قائلاً: الآن أستطيع أن أضع يدي في يدكم رافعًا رأسي، لم أعد أخجل من نظرات أمهات الشهداء فقد أصبح حالي من حال كثيرين منكم... ابنه كان شابًا يافعًا... يستعد للزفاف... لم ييخل به، وقدمه للوطن، أي أب هذا؟ أي قلب هذا؟ قلب رجل قرر وآمن ونفذ... فصدقوه، اتبعوه... وأتباعه كثيرون.

على الجهة الأخرى... نجد إسرائيليين... مؤمنين أيضًا وإيمانهم كبير بأنه يجب الحفاظ على إسرائيل دولة قوية، وعلى رأى بوش الذى تثير عباراته استفزازنا. من حق إسرائيل أن تدافع عن نفسها... من حقها أن تحارب من أجل أمان إسرائيل، من حقهم أن يعملوا جاهدين من أجل التمسك بما وصلوا إليه، دولة أقرب إلى الدول العظمى، محمية بدولة أعظم، و"الرك والباقي" - كما يقال في العامية - على الذين لا طالوا عنب الشام ولا بلح بغداد، أو اليمن، لا أذكر المثل جيدًا، الرك والباقي كما يقال على من رقصوا على السلم، لا طلعوا فوق ولا نزلوا تحت، يحاولون التشبث بقوى واهية ويقدمون فروض الطاعة لها ويحاولون استرضاء شعوبهم المتعاطفة مع الشعوب الأخرى في فلسطين والعراق، واليوم في لبنان، وغدًا في سوريا، وبعدها الله أعلم. وأستغرب ممن يؤمن أنه لو ربي في منزله ثعبانًا سيكبر ويصبح خروفاً أليفاً ولن يقرصه، أستغرب ممن

يؤمن حقًا أن إسرائيل لا تحلم بإسرائيل الكبرى، وحلم من النيل إلى الفرات!! سألتني ابنتي بخوف وهي تشاهد نشرات الأخبار: مصر قوية يا ماما، أليس كذلك؟ إسرائيل لن تضربنا كما فعلت مع لبنان؟ لبنان التي كنت أعد ابنتي لزيارتها قريبًا وأحكي لها عن جبالها وشعبها المحب للحياة والعمل، وعن طعامها وشرابها، لبنان الذي يذكرني دومًا بشابة جميلة يأبى الزمان إلا أن يجعلها تدفع ثمن جمالها غاليًا، حروب وراء حروب، أهلية بالاسم، دولية في الواقع، أصابع وأصابع تدخل وتحرك وتدمر، والشعب يقع ويقف ويكمل مقدسًا العمل، مستمتعًا بالحياة، وهذا، بالمناسبة، جزء من تكوين الشخصية اللبنانية، فهم يقدسون العمل ويجتهدون إلا أنهم أيضًا يعطون للبدن والنفس حقهما، يخرجون والطبيعة حولهم تساعد على تقدير الجمال.

وأجبت ابنتي إن مصر مرتبطة بمعاهدة سلام مع إسرائيل، فهذا على الأقل سوف يحميها، وإن كنت أعلم أن حكوماتهم لا تحفظ العهود، وأن بيريز مثل شارون وأولمرت وبيجين، سياسة مرسومة منذ زمن بعيد، أناس يخططون، يعرفون طريقهم جيدًا، متماسكون، يعتبرون أن إسرائيل والولاء لها من الولاء لله، وتخطيط وتخطيط، ولمن لا يعرف فإن التخطيط عكسه الهرجلة، عدم التخطيط، والحجة بسيطة وسهلة، سببها على الله، وبكرة ربنا يفرجها، وخلينا في النهاردة، نسمع عن خطط خمسية أو بعيدة المدى، ونردد مصطلحات مثل الشفافية، وأنا هنا أتحدث عن أحوال كل البلاد العربية، فيا أخى كلنا في الهم سواء، حكومات وراء حكومات تنظر ولا تعمل، ترفع

شعارات، أوقات الانتخابات ولا نعرف بالضبط وأتحدى أن يعرف أحد أي توصيف سياسى عملى لأحوالنا.

حزينة أنا، إسرائيل تضرب لبنان، والسياحة هكذا ضربت في لبنان، وحزب الله يقف وحيداً، يلام لأنه بدأ، ولو كان، لو بدأ، فهل يستحق الشعب اللبناني كله أن يتخلى عنه العالم العربى والأمم المتحدة ومجلس الأمن؟ باختصار العالم كله، إلى أن يجتمعوا ويدينوا ويشجبوا، سيكون العشرات قد ماتوا، ليتنى عشت في زمن آخر، كان العربى يردد بفخر أنا عربى يعلمهم الهمج وقتها أو الأوروبيين والهنود الحمر أو الأمريكين الطب والعلوم والآداب، ما الذى حدث للعرب؟ ألم تؤثر فيهم قراءتهم للشعر عن الرجولة والفروسية، آه، نسيت أنهم لا يقرأون، أمة لم تعد تقرأ فكيف لها أن تعتبر من التاريخ أو الأدب؟ والتعليم في أمتى في الحضيض فكيف للأطفال أن يتعلموا؟ والمناهج حذفت منها قصص البطولات فكيف لأبنائنا أن يعتبروا؟ أبطالنا هم أبطال الأفلام الأجنبية وموسيقانا هى موسيقاهم، لا نتمسك بالتراث بل نضيعه في وقت تحاول فيه دول اختلاق تاريخ لها، نسيء استخدام مفردات ديننا، ونقبل أن ننعت بالإرهابيين مطاطأى الرأس.

حزينة أنا لما يحدث في لبنان، صور الرجال والأطفال وكبار السن وهم يركضون، يحملون الرضع، والضحايا يتساقطون، ومجلس الأمن لم يتحمل بعد مسؤوليته الرئيسية طبقاً للفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة، في اتخاذ الإجراءات لوقف العدوان، وبعد سنوات

أرى.. أسمع.. وأنكلم

من إعادة البناء من سيدفع للبنانيين التعويضات اللازمة لإعمار ما تم تدميره في المطار والموانئ والجسور والمباني؟ أى ظلم هذا الذى يصمت العالم عليه؟ أى معايير تحكمنا؟ وهل أصبح أمثال السيد حسن نصر الله دون كيشوتات يحاربون طواحين الهواء؟ زمن عجيب، ليتنى لم أشهده، عرفتُم لماذا أنا حزينة جدًا اليوم.

أضغاث أحلام

ما الفرق بين المقاومة وأية حركة أخرى؟ أى زمن نعيشه؟ زمن الصامتين المتفرجين الذين يكتفون بمشاهدة التلفزيون مع تعاطف كبير وفقط؟ كل يعيش فى وادٍ... ويخرج الزعماء يخطئون من بدأ... حزب الله اختطف جنديين إسرائيليين.... خطأ كبير... أما هجوم إسرائيل على لبنان وتدمير المنازل وتشريد الأسر وتيتيم الأبناء فهو رد فعل طبيعى.... إسرائيل من حقها أن تدافع عن نفسها... بل وتزودها أمريكا بالصواريخ والأسلحة... والمعادلة محسومة حسب النظريات العسكرية... أمريكا وإسرائيل أقوى قوتين عسكريتين أمام مجموعة البشر... اختاروا المقاومة.... أسلحتهم - مهما وصل تعدادها - مؤكد أنها أقل بكثير من تعداد الترسانتين المسلحتين... ومؤكد أنها أضعف... إلا أن الإيمان لدى الطرف الثانى أعلى.

أمام نشرات الأخبار.... وجدت نفسى فجأة أحلم... وقد حلمت وعيونى مفتوحة ولا يُستكثر على الحلم... أم أنه أصبح كثيرًا على بنى البشر الغلابة أمثالى... حلمت أن الدنيا أحوالها تغيرت.... فجأة عرف الرئيس بوش أخطائه واستيقظ صباح يوم وهو المتدين الذى يقضى ساعات يقرأ كتباً عن المسيحية، فعرف أن الصهيونية

تحض على هدم المسجد الأقصى، لإيجاد هيكل سليمان، وتحض على إراقة دماء ودماء... استيقظ بوش ذات صباح... وقد أحس بأخطائه الفادحة فقرر اعتزال الحياة السياسية، والاعتذار للعالم أجمع.... ولأفغانستان والعراق وأخيرًا لبنان، فيداه ملطختان بدماء شهداء لبنان وأسرههم.

بل وتصل أحلامى فى أحيان كثيرة إلى أن شعوره بالذنب قد أصابه بالاكْتئاب فيحاول الانتحار... إلّا أنه يتم إنقاذه فى اللحظة الأخيرة.... وهو يردد عذرًا.... عذرًا... وينحى كونداليزا رايس عن منصبها... وتقبل وهى تستشيط غضبًا متخلّية عن ابتسامتها المعهودة التى تحتفظ بها، حتى وهى تقول تصرّحاتها النارية، التى تكهرب الأجواء فى عالمنا العربى، والتى تتسم بالأوامر الصارمة.

وأكمل حلمى وكما اتفقنا لا يلام الإنسان على أحلام اليقظة... أو أى نوع من الأحلام... فالأحلام انعكاس لرغبات داخلية، صحيح، ولكنها ما دامت تقف عند حدود الأحلام، فهى مسموح بها، وقبل أن أكمل أتوقف عند ما قاله السيد حسن نصر الله الأمين العام لحزب الله فى حوارهِ مع غسان بن جدو على قناة الجزيرة، قال له: أعلم أن زوجات الزعماء العرب وأبناءهم يشعرون بالتعاطف معنا، ومعنا الشعوب، وهى حقيقة؛ كل قلوب الشعوب العربية متعلقة بلبنان وبأهل الجنوب، والضاحية الجنوبية، وكل الأماكن التى تعرضت للقصف والضرب، كل قلوب الشعوب العربية تحلم، ومن هنا... أنا أقوم فقط بنقل أحلامهم وتحويلها إلى كلمات على الورق...

نحلم جميعاً... بالنصر.... بانسحاب إسرائيل... باعتراف العالم كله أن في لبنان التي يصفها البعض بأنها نقطة على الخريطة شعب عرف كيف يتصدى... كيف يلقي الأعداء درساً... كيف يأخذ بثأر الفلسطينيين والعرب جميعاً؟ وحكت لي شابة عائدة من بيروت كيف أنه في كل مرة تمر طائرة فوق سماء بيروت، تهتز البيوت وتجفل القلوب ويشعر الجميع بالرعب وبأن الساعة حانت... وأن النهاية اقتربت... ويكتب لهم عمر جديد... إلا أنهم لا يهنأون.... الأطفال على صرخة واحدة... وعائلات بأكملها تم تهجيرها فنزحت إلى بيروت، واستقرت في المدارس والساحات.... والصليب الأحمر يوجه نداءات عبر برامج التلفزيون مطالباً الأهالي بكتابة عناوينهم وأسمائهم على قطعة قماش، يربطونها على أيدي أطفالهم، لأن الكثيرين فقدوا وسيلة الاتصال بذويهم... ففي وسط المعمة والركض.... أصبح يقفز ويجري من يجري... ووسط الفوضى العارمة يضيع أطفال... صبيان وبنات... وأي ذاكرة سوف تحمل كل هذه الذكريات المؤلمة؟ أي رجل سيصبح إذا تم خلعه من أهله بهذه الطريقة؟ أي نظرة للحياة نتوقعها من طفلة كانت تعيش سعيدة آمنة وفجأة استيقظت على أصوات انفجارات ودوى تُصمُّ له الأذان وأمها تحملها؟ أو تحمل أخاها الأصغر وتهرع لا تعرف إلى أين؟ أي قانون في العالم يسمح بما يحدث؟... مظاهرات في أنحاء متفرقة... "ويا جبل ما يهزك ريح" على رأى الرئيس الراحل ياسر عرفات، ولو كان الاستخدام هنا مختلفاً.

إسرائيل مستمرة في ضربها والآتى أسوأ حسب

التوقعات.... والأطفال الإسرائيليون يكتبون فوق الصواريخ الموجهة للجنوب... إلى أطفال حزب الله... وكأن الصاروخ سيفرق بين طفل سني أو شيخ شيعي أو امرأة مسيحية أو حتى درزية؟ أي كره هذا الذي يتربى عليه الأطفال في إسرائيل؟ في الوقت الذي تضغط فيه على الحكومات الغربية لعدم تدريس آيات الجهاد الموجودة في القرآن الكريم في المدارس؟ بل وفي وقت من الأوقات طلبوا حذفها من القرآن الكريم... في الوقت نفسه الذي يطلبون فيه هذا منا... يقومون بتدريس أولادهم كل الآيات أو السور التي تحكى عن حقوق اليهود شعب الله المختار، والذي من أجله يجب أن تمحى الشعوب الأخرى، أو على الأقل تعترف بعظمتهم وبتفوقهم العسكري والأيدولوجي والفكري... إلخ... إلخ.

وفي الوقت الذي نتحدث فيه نحن عن دول عظمى تعلم أمريكا أولادها الاعتزاز بوطنهم وبالأرض الحلم.... وما الذي نعلمه نحن لأولادنا؟... الخضوع والمعونات والخلافات.... أحلام الوحدة العربية كلها لم تتحقق، وما تحقق منها لم يعيش، فقد كان ابن موت، مكتوب عليه من البداية أن يفشل.

وأكمل لكم حلمي... فقد عدت إليه... أحلم بفرسان شجعان ينتصرون ويهزمون الجيوش الجبارة... يعيدونهم إلى أرضهم منكسى الرأس.. وتقوم قومة العرب... ويشعرون بعد المرارة والانكسار بالفخر وياخوفى.... ياخوفى أن تأتى الهزيمة منا فينا... بدلاً من مساندة المقاومة... نساند من يعاديها... نصالح من

يعاديه... نقدم السبت خوفاً من الأحد... يا خوفي... من انتصار
يحوله العرب إلى هزيمة... ليس لدى إلا طلب واحد... أتى على لسان
حسن نصر الله: إن لم يستطع الحكام العرب المساعدة أو على الأقل
ليقفوا على الحياد... لا أكثر ولا أقل... رأيتم... إلى أى درجة
وصلنا؟ ومن أجل هذا فإن أمثالي... وهم كثير... يقتاتون
بالأحلام... حتى يتغير الواقع... نصر الله لبنان... ردودها معي...
فمع الحلم نملك الدعاء... وهو أضعف الإيمان... لعل الله سبحانه
وتعالى يستجيب.

كلام قديم بمناسبة العيد

نتحدث هذه المرة عن موضوع قديم جدًا، لدرجة أنه أصبح مكرراً ومملاً ومع ذلك لا بد من الحديث عنه، لا بد من الكلام حتى ولو كان في صيغة التأفف، حتى ولو كان في صيغة الاستنكار، حتى ولو قيل هذا الكلام مراراً وتكراراً لدرجة مملة، حتى ولو غامرت بالألّا يكمل القراء المقال، ولكن في كل عيد إسلامي نعيد ونكرر، والسبب في الاختلاف، نحن العرب لا نتفق إلاّ على أمر واحد: أن نختلف، وقد أصبحت هذه المقولة نكتة يرددونها كثيرون ونرددونها معهم، بل ونضحك أحياناً ونحن نقولها، مع أن ترجمتها كارثة، ولكن شر البلية ما يضحك.

في كل عيد نختلف لدرجة أننا نصوم في بلد ونعيد في بلد آخر، ونرفض الاعتراف بأي علوم مكتفين برؤيا العين ناسين التلوث والسحب، ذات الألوان الأخرى وثقب الأوزون وضعف البصر، الذى يتراوح ما بين قصر نظر أو العكس، ولا زالت بلاد تأبى إلاّ أن تعتمد على العين المجردة، والاعتماد في هذا الإصرار على حديث نبوى شريف يقول: "صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته" مع أن الرؤية من الممكن أن تكون في بلد دون آخر، ولو عدنا إلى الوراء

لاكتشفنا أننا عدنا إلى الوراء، بمعنى أن علماء الفلك والرياضة في عصر الحضارة الإسلامية، من القرن الثالث الهجري إلى القرن السابع الهجري، قد وضعوا قواعد ومعايير دقيقة للتنبؤ بالأهلة، أى بدايات الشهور العربية عند ظهور الهلال، واعتمدوا في علومهم على تطوير المعايير البابلية القديمة، ولكن، ومع الضياع التدريجي لهذه المعرفة، عندما سقطت الدولة الإسلامية والعربية في عصور الجهل والظلام، بدأت العديد من الدول الإسلامية في الرجوع إلى تقويماتها التقليدية، كالتقويم الميلادي أو الصيني أو الهندي، مما أدى إلى حدوث خلل في أسلوب التنبؤ بالتقويم الهجري.

وقد عرفت الحضارات القديمة علم الفلك، وصار لهذا العلم موقع خاص في العصر العباسي إبان خلافة الأمين، بن هارون الرشيد، الذي كان شديد الاهتمام بالعلوم المختلفة وبالثقافة بشكل عام، وأثرى مكتبة بغداد عندما حرص على تزويدها بالكثير من المراجع والكتب المهمة.

وبعد زمن الأمين بحوالى قرن ونصف القرن، ظهر المرصد الإسلامي، وكانت مهمته إقامة الجداول الفلكية لكل الكواكب، ويعد القرن السابع الهجري أهم حقبة، إذ تم بناء مرصد المراغة بالقرب من مدينة تبريز في بلاد فارس، ولا تزال بقاياها موجودة حتى اليوم، ويقال إن من أنشأه هو "مانجو" شقيق هولاكو، وعهد إلى البخاري مهمة إنشائه وأسس حفيد تيمور لك "أولغ بك" مرصدًا آخر في سمرقند، سنوات من العلم والاستنارة، وبعدها

بدأت عهود الظلام، ولا زالت مستمرة، الإسلام في عز حضارته اهتم بعلم كعلم الفلك، واحترم قواعده العلمية، وفي وقت من الأوقات كنت تجد في المساجد عالم فلك، يقوم بتحديد مواعيد الصلاة من خلال إحدى الآلات التي ابتكرها العلماء المسلمون، لم يعد العلماء يبتكرون ولم يعد المسلمون يهتمون بالعلم أصلاً، وأصبح البعض يصوم في يوم ويفطر إخوانهم في بلاد أخرى.

وفي أحيان تتدخل السياسة خصوصاً إذا كان العيد يوم الجمعة، والعام قبل الماضي 2005 استعدنا جميعاً أن أول أيام العيد سيكون الجمعة والوقفه الخميس، وفوجئنا بعد بداية شهر ذي الحجة بخمسة أيام أن العيد الخميس، والوقفه الأربعاء، وتضاربت التصريحات ما بين مجلس القضاء الأعلى بالمملكة العربية السعودية، ودار الإفتاء المصرية، وارتبك الناس، وتغيرت الخطط، واختلاف الرؤية من مكان إلى مكان على سطح الأرض أمر طبيعي، بل ويؤكد عليه علماء الفلك، والتقويم الإسلامي أو الهجري، هو طريقتنا كمسلمين في التأريخ، وبدأ مع هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، غير أن ما لا يفهمه كثيرون هو أن معظم التقويمات التقليدية تعتبر أن بداية الشهر القمري هي الوصول إلى نقطة التزامن أو الاتزان ما بين الأرض والقمر والشمس، أي وقوعها على خط واحد مع وجود القمر بين الأرض والشمس، حيث يصبح القمر في هذه الحالة غير مرئي تماماً، وهو أمر يطلق عليه فلكياً المحاق، وبالتالي لا يمكن رؤية القمر بالعين المجردة إلا بعد سبع عشرة إلى عشرين ساعة من الوصول إلى

المحاق، أى حوالى ثلاثة أرباع يوم، وفى عام 1998 تقدم مفتى مصر السابق الشيخ نصر فريد واصل، بمشروع لبناء قمر صناعى إسلامى يهدف إلى التغلب على مشاكل رصد الهلال من فوق سطح الأرض، التى يتسبب فيها تلوث الجو والسحب وغيرها، وبالتالي يصبح من الممكن رصد مطالع الهلال بدقة، ويتحقق توحيد المواقف بين أنصار الرؤية الشعية أى بالعين، وأنصار الحساب الفلكى وبالتالي توحيد مطالع الشهور العربية، ولم يتحقق المشروع حتى اليوم على حد علمي، لا زال العرب يختلفون، والدنيا تسير، ونحن نعود إلى الوراء.

وكحال العرب جميعاً أجدنى أردد الكلام نفسه وأتساءل كما يتساءل كثيرون عن سبب ما نحن فيه، وأجدنى لا أربغب فى الدخول فى تفاصيل، فالحال لا تسر حبيباً، بل تفرح قلب العدو، وسواء أكنّا اليوم فى ثانى أيام العيد أم ثالثها أم نهاية العيد، فكل عام وأنتم بخير.

ختاماً، سأفاجئكم العام القادم، لو كتب لى عمر، وأكتب مقالاً عن الموضوع نفسه فأنا متأكدة من بقاء الوضع على ما هو عليه، أو فكرة أخرى، أحتفظ بالمقال وأنشره على حاله، فالأوضاع ستكون على ما هى عليه اليوم، إن لم تكن أسوأ، تفاءلوا.

صدام الإنسان

لا يستطيع أى متابع للنفس البشرية، إلا أن يتوقف أمام شخصية الرئيس الراحل صدام حسين، ظروف حياته وتفاصيلها ليست بالعادية، ومن تابع نشأته سيكتشف كم المعاناة التى عاشها هذا الرجل، والتى شكلت وجدانه بمساوئها ومحاسنها، أنا دائماً أهوى علم النفس وأحاول تطبيق قراءتى وتحليلاتى فى حياتى العادية، وسأحاول اليوم أن أنقل صورة صدام حسين الإنسان، كما أراها من خلال استعراض ظروف حياته الشخصية ومحاولة فهمها، فالشخصيات المعقدة فيها نوع من التنوع، لا تجده فى الشخصيات المسطحة العادية المنتشرة حولنا، وإن كنتُ من المؤمنين أن من معجزات الله سبحانه وتعالى، خلق كل هذا العدد من البشر بمشاكلهم وعقدتهم واختلافاتهم.

ولد صدام حسين فى قرية "العوجة" التابعة لمقاطعة تكريت لعائلة تمتهن رعاية الأغنام، وهذه المهنة تعلّم صاحبها الصبر، والبقاء ساعات بانتظار غروب الشمس، لم يعرف صدام والده قط، إذ توفى قبل ولادته بخمسة شهور، ولحقه أخوه ذو الاثنى عشر عاماً، والذى توفى جراء إصابته بالسرطان، تاركاً والدته تعانى فى فترة

حملها الأخيرة، وكانت النتيجة أنها حاولت إجهاض جنينها "صدام"، وقتل نفسها، والأبحاث الآن تقول إن العوامل الوراثية ليست فقط، هي ما يحدد الطباع المزاجية للطفل، ولكن الأهم هي البيئة التي توفرها الأم لجنينها، وهو ما زال في رحمها، وإذا ما تعرض في هذه الفترة لضغوط نفسية مستمرة، فالأغلب حسبها تقول الدراسات، إنه سيكون طفلاً عصبياً، تهدئته صعبة ولا ينام بسهولة.

وولد صدام وعاش طفلاً يتيمًا، وعانى مما يعانيه الأيتام من نظرات الشفقة أو العكس، الاستقواء على من لا ظهر له، وبعد ولادته تخلت عنه والدته وتركته لحاله خير الله طلفاح ليرعاه، ونتوقف هنا للحظات لتخيل حياة طفل شعر أنه منبوذ منذ اللحظة الأولى، والدته التي من المفترض أن تعوضه فقد الأب، تخلت عنه فأصبح يتيمًا من الطرفين حتى ووالدته على قيد الحياة، كيف لطفل أن ينمو وهو يشعر أنه أشبه بمن قطع من شجرة وألقى في صحراء جرداء، لا مشاعر دفء، بل رفض لوجوده أصلاً، وزادت معاناة الطفل عندما تزوجت والدته صبحه طلفاح للمرة الثانية، وأنجبت له ثلاثة إخوة، وكان زوجها إبراهيم الحسن يعامل صدام بقسوة شديدة عند عودته للعيش معها، أي طفل هذا الذي يتربى في مثل هذه البيئة؟ لم يحتمل الطفل كثيرًا وانتقل وهو في العاشرة إلى العاصمة بغداد للعيش مجددًا مع خاله، والذي كان سنًا متدينًا، وكان له تأثير كبير عليه، لذلك فقد أعطاه هو وأقارب كثيرين من تكريت ممن أحاطوه في سنيته هذه مناصب استشارية ودعمهم بشدة عندما وصل إلى الحكم، والتحق

صدام بالثانوية الوطنية في بغداد، وفي سن العشرين وبدعم من خاله مرة أخرى التحق بحزب البعث الثوري القومي العربي، لتتغير حياته وإلى الأبد، وبدأ صعود صدام بعد أن قرر البعثيون اغتيال رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم، وأصيب صدام بطلق نارٍ في ساقه ولأذٍ بالفرار إلى سوريا، ومنها إلى القاهرة ليعيش فترة في حي الدقي، ثم يعود إلى بلاده ويصبح الرجل القوي والحاكم الفعلي للعراق، قبل أن يصل إلى الحكم بشكل رسمي عام 1979، والعراق من البلاد صعبة الحكم، تاريخه حافل بقتل الزعماء خصوصًا في تاريخه الحديث، وحافل بالانقلابات العسكرية المتعاقبة، التاريخ يذكر الإطاحة بالنظام الملكي العراقي على يد عبد الكريم قاسم عام 58، وقتل الملك فيصل الثاني والعديد من أفراد العائلة المالكة، وبعد يوم واحد قتل قادة الانقلاب رئيس الوزراء نوري السعيد بعد فشله في الهروب، ثم انقلاب عبد السلام عارف عام 63، وقتل قاسم في غرفة في مبنى الإذاعة والتلفزيون رميًا بالرصاص، ثم وفاة عارف في حادث طائرة، وتسلم أخيه الحكم ثم الانقلاب عليه وانتخاب أحمد حسن البكر رئيسًا للجمهورية.

تاريخ مليء بالدماء لذلك كان لا بد لمن يحكم أن يتوقع الانقلابات في كل ثانية، وأن يدير شئون البلاد بيدٍ من حديد، سمعت كثيرًا عن جرائم ارتكبتها صدام حسين كانت أشبه بالأساطير، مثل قتله لمعارضيه وإعدامهم أو حتى قتله لصهره بعد فرارهما إلى الأردن، وعودتهما بعد أن وعدهما بالأمان، وحنث الوعد، حروبه

الكثيرة والتي يعلم الكثيرون أن أمريكا كانت وراءها لكسر شوكة إيران والمد الشيعة في المنطقة، زيارة السفارة الأمريكية له وطمينه أن باستطاعته غزو الكويت، لتلقى له بهذا أمريكا الطعم الذي أدخلها الشرق الأوسط بعد أن استغاث للأسف الحكام العرب بها، فهي المنقذ الوحيد، رسمت الخطة بإحكام ووقع مع صدام في الفخ الكثير من الحكام العرب، على كل هذه قضية أخرى.

أعود إلى تحليلي لشخصية صدام، اعتماده على أمريكا القوة العظمى وثقته فيها، وهو الذي لم يثق في أحد، دليل على سيطرة منطق القوة على حساباته، وما لم يأخذه بعين الحسبان، أن الأقوياء أيضا يمكرون ويخونون، فأصبح دمية بين أيديهم بعد أن وعدوه بالمساندة، وهنا يبرز إحساسه المستمر بعدم الأمان، بعدم الاستقرار، لو أنه اكتفى بإدارة شئون شعبه الداخلية لأصبح العراق اليوم واحدة من أقوى دول المنطقة، ولكنه الخوف من انقلاب أو إطاحة ومن تربى على عدم الأمان، لا ينجح مهما وصل إليه من قوة أو سلطة أن يتخلص من سيطرته عليه، ووقع العراق، ووقع بعدها صدام الذي رفض مغادرة بلاده، وهنا نجد أكثر من تفسير.

الأول: أنه خاف من خيانة.

والثاني: أنه احتذى بقرية وأهلها، وهم أهل تكريت الذين أحاطوه بعنايتهم في شبابه الأول، وبدأت المهزلة التي أسميت بالمحاكمة، والتقيت بمحاميه الذين قالوا لي إنه كان يتصرف دومًا وكأنه لا يزال رئيسا لبلاده، لم يروا دمة، واعتبرت الأمر

مبالغة منهم إلى أن شاهدت إعدامه على شاشات التلفزة، يحدث
جلاديه بجلد، لم يهتز، ولم ينحن، وآخر ما رددته: فلسطين عربية،
وقلت لنفسي: تراه بعد كل ما ارتكبه وما ارتكب في حقه لا يزال
مؤمناً بما بدأ عليه حياته كبعثي ؟ وتساءلت: تراه كان يردد في قلبه:
هذا ما جناه أبى وأمى على ؟ ربما، والمؤكد أنه شخصية تستحق
الدراسة، رحم الله موتانا جميعاً.

هوامش على محاكمة صدام

"مضت قرونٌ خمسةٌ

مذ رحل "الخليفة الصغير" عن إسبانيه

ولم تزل أحقادنا الصغيرة

كما هي

ولم تزل عقلية العشيرة

في دمنّا كما هي

حوارنا اليومي بالخناجر

أفكارنا أشبه بالأظافر"

أذكر جيّدًا عام 91. كنت أحضر لرسالة الماجستير في الشعر، واخترت وقتها موضوع شعر المقاومة في مقارنة بين ما كتبه بعض الشعراء العرب من قصائد في الموضوع، خصوصًا بعد حرب 67، وبين بول إيلوار، ولوى أراجون الشاعرين الفرنسيين الشهيرين، وما كتباه أيام احتلال فرنسا في الحرب العالمية الثانية على يد النازيين، كنت أجد الفكرة رومانسية، وكنت شديدة الحماسة لفكرة العروبة واعتقدت أنني بمقارنتي سوف أبرز مشاعر حماسية،

واعتقدت أنني برسالتى سأسجل موقفا بطولياً، رومانسية شديدة بالطبع، أعترف أنني لم أتخلص تماماً من رومانسيتى رغم مرور السنوات، المهم، أدركت وتعبت وكتبت وقرأت إلى أن كانت حرب الخليج، ودخل صدام حسين بقواته الكويت، وبدأ عبد الله الرويشد يغنى "بيتى وبيقول بيته" أشهر أغنيات الفترة، والكويتيون يقفون فى جامعة الدول العربية أمام محل ومبى، فى ذلك الوقت يبيعون الدنانير بتراب الفلوس، وفتحنا لهم بيوتنا وبدأنا نسمع عن قصص التجاوزات التى حدثت من جانب العراقيين، والغضب ينتشر فى كل العالم العربى من الرئيس العراقي، الذى استباح لنفسه بلداً آخر، واعتبره محافظة جديدة يضمها إلى محافظاتة، وأعلن صدام وقتها فى وسط هذا الغضب العام أنه سيضرب إسرائيل ويمحوها من الوجود، ونسى الناس وقتها غضبهم منه ونسوا الكويت والكويتيين والتمسوا له كل الأعذار، وانتظروا، وكانت النتيجة صاروخ يتيم فى الهواء، فبدأنا نقول مع نزار:

"إذا خسرنا الحَرْبَ لا غرابة

لأنَّنا ندخلُها

بكل ما يملكُ الشرقى من مواهبِ الخطابةِ

بالعنتریاتِ التى ما قتلت ذُبابة

لأنَّنا ندخلها

بمنطقِ الطَّيْلةِ والرَّبابَةِ"

واتفق العرب ضد العراق، ليستدعوا الأمريكيين ويدخلوهم المنطقة ليعيشوا فيها فسادًا، ويستقروا فيها ويعيشوا فيها في تبات ونبات، ويقسموها كما يشاءون ونقول لهم "آمين"، وكانت النتيجة أنني كرهت الشعر، وقطعت علاقتي به، وحتى يومنا هذا لم أستعد حبّي لهذا الفن الجميل، لم أعد قادرة على الجلوس ساعات دون ملل وفي يدي ديوان، لقد ارتبط شعر المقاومة عندي بإحساس فظيع بالخزي من الموقف العربي من احتلال أو من جلب لمحتل.

وقلت مع نزار:

"يا وطني الحزين

حوّلتني بلحظة

من شاعر يكتب الحب والحنين

لشاعر يكتب بالسكين

لأنّ ما نحسّه أكبر من أوراقنا

لابدّ وأن نخجل من أشعارنا"

وأحسست أن ما حدث في أفغانستان مسؤولية العرب، وما تكرر في العراق مسؤولية العرب أيضًا، والحكم بإعدام صدام حسين مسؤولية العرب أيضًا، وكى لا يساء فهمي، أنا هنا لا أدافع عن الرئيس العراقي السابق، ولو أن لي تحفظًا حتى على كلمة سابق، على اعتبار أن قوة أجنبية هي التي أزاحته عن منصبه، وليس شعبه، والقوة الأجنبية هي التي شكلت المحكمة التي قضت بإعدامه، وبالتالي فالحكاية أشبه بمن يذهب لإلقاء القبض على حرامي متلبسًا

إلا أنه ينسى أن يجلب معه أمرًا نيابيًا، فيخرج المتهم بريئًا لعدم صحة الإجراءات، أو اكتمالها، وهذا ما يشعر به الناس جميعًا اليوم، أن محكمة صدام حسين ليست صحيحة، بل هي أمريكية أمريكية أمريكية، وبالتالي باطلة باطلة، ولو أُعْدم سيتحول مع الوقت إلى بطل، لا أريد الدخول فيما حدث في الدجيل أو الأنفال، فأنا لست ضد محاكمة صدام ولكن ضد محكمته الأمريكية، حتى ولو كان حكم القاضى صحيحًا فإنه لن يستطيع أبدًا أن يمحو شك الناس، وريبتهم من أن قراره كان بإيعاز أمريكي

"مالحة في فمنا القصائدُ

مالحةٌ صفائرُ النساءِ

والليلُ والأستارُ والمقاعدُ

مالحة أماننا الأشياءُ"

والمشكلة ليست في الوقت الحالي، ولا في الحكم الذى صدر، المشكلة فيما ينتظرنا، فى الازدواجية فى المعايير فى بلادنا العربية، الكل يعتقد أن ما حدث لن يتكرر، فالدرس لم يُستفد منه، وكأن ذهاب بوش سيجعل المستقبل مشرقًا، المشكلة فىنا كعرب أننا لا نخطط، ونعتقد أن الكون كله مثلنا، يعيش بفوضى وعنترية، وكأننا لا زلنا فى العصور القديمة

"خلاصة القضية

توجز فى عبارة

لقد ألبسنا قشرة الحضارة

والروح جاهلية

أتساءل دومًا، لماذا نحن أقوام نتحدث ولا تفعل؟ نتألم كثيرًا
ونستعمل كل الآلات الموسيقية من أبواق وطبول، آلات عالية
الصوت، وفي الحزن نلجأ إلى الناي الحزين، ونبكي قربه، ما بال
العرب دوماً يسلمون ويرفعون الراية؟ لا أريد أن يفهم من كلامي
على الإطلاق أنني أدافع عن صدام، فما حدث في سجنه يضعه في
قائمة الطغاة الجبارين؟ وجر شعبه إلى حروب طويلة تستنزف الرجال
والمال مع إيران ثم الكويت، أمور لا تغتفر، ولكن الشيء لزوم الشيء
كما يقال، والأوجاع تصحو فنعيش على أمجاد الماضي، ونردد أيضًا مع
نزار

"ومضت قرونٌ خمسةٌ
ولا تزالُ لفظةُ العروبةِ
كزهرةٍ حزينةٍ في آنيةٍ
كطفلةٍ جائعةٍ وعاريةٍ
نصلبُها على جدارِ الحقدِ والكراهيةِ".
رحم الله نزار قباني ورحمنا معه.

العراق

لم تتح لي حتى الآن فرصة زيارة العراق، فهي من المدن الحافلة دومًا بالأحداث.. ورغم وجودها في نشرات الأخبار بشكل يومي منذ سنوات طويلة، فإن الفرصة لم تأت لزيارتها.. والتقيت أخيرًا في لبنان بصحفية عراقية وكنا في أحد المؤتمرات، وطلبت منها الكلام عن أحوال المرأة في العراق.. وبدأت الكلام مجاملة دون تحضير أو تجهيز استجماع أفكار، وكانت النتيجة أن انفجرت في البكاء حين تحدثت عن الموت الجاثم على قلوبهم، والموجود عند مفترق أى طريق وبدون ترتيب دخلت على الرقابة والمنع.. ثم حوادث الاختطاف، ورغم أنها لم تقدم ورقة بحث بالمعنى المتعارف عليه علميًا من خلال المؤتمرات.. بل قدمت مجموعة من الانطباعات الشخصية، فإنها بدموعها الحقيقية نجحت في انتزاع تعاطف شديد من الحضور المتعدد الجنسيات.. والتقيتها وجلست معها.. بسألتها عن الأحوال في العراق فحدثتني عن عمليات الاختطاف المستمرة، التي تحدث على يد الميليشيات المنتشرة.. تخرج فتاة صبية في طريقها إلى المدرسة فلا تعود.. تختطف.. تغتصب.. وتقتل.. تخاف من العودة بعد أن أطلقوا سراحها فتكون النتيجة ضياعًا وعمرًا يذهب هباء.

سألتها عن زوجها.. فترددت في الإجابة وكأنها توجست خوفاً مني.. ثم قالت لي إنه قابع في المنزل.. لا يجد عملاً.. لم آخذ إجابتها بالكامل على أساس جدى، فقد يكون الرجل مسجوناً، أو قد يكون متوفياً أو على قيد الحياة.. ولكن أحوال الرجال والنساء في بلد كالعراق كل الافتراضات فيها مجتمعة، وفي لقاء أخيراً ما بين بلير رئيس الوزراء البريطانى، وبوش رئيس الولايات المتحدة الأمريكية اعترفاً معاً بأخطائهما في العراق وأبرزها أبو غريب..

كما اعترف بوش في لحظة وصفت بأنها لحظة "ضعف" بأن من بين أخطائه لهجة رعاة البقر الفظة التى دأب على استخدامها في أثناء حديثه عن المتمردين في العراق.. وأردف قائلاً إنه أصبح يحاول استخدام ألفاظ أكثر رقيًا، والقول دائماً سهل حين يقترب الرئيس من فترة حكمه الثانية والنهائية، وحين يكون رئيس الوزراء في أسوأ مراحل حياته السياسية، لدرجة أن هناك توقعات بتنحيه عن منصبه لمصلحة جوردون براون وزير المالية الحالى.. والاعتراف بالخطأ لن يفيد العراقيين شيئاً.. إذ لم يتحدد بعد أى جدول زمنى لانسحاب القوات من العراق.. والعراقيون يعيشون مرحلة فوضى فظيعة.. سنة وشيعة.. سنة وسنة.. شيعة وشيعة.. مما يذكرنى بالحرب الأهلية في لبنان، التى بدأت بصراع فلسطينى لبنانى، فتطورت إلى صراع مسيحي مسلم، ثم مسيحي مسيحي، ومسلم مسلم، حتى كان الأخ يقتل أخاه.

والعراقيون دون تعميم شعوب عريقة.. متعددة الأعراق

والاتجاهات، شعب قديم، شعب حمورابي صاحب الشريعة التي تحمل اسمه، وما أحوج العراقيين اليوم إلى أى شريعة تنظم العلاقة بينهم، شعوب بابل وآشور والكلدانين ونبوخذ نصر، الذى يكرهه اليهود كراهية التحريم لأنه قام بإجلائهم من فلسطين فى السبى الأول عام 597 ق. م... وفى السبى الثانى الذى قاده بنفسه سنة 568 ق. م... العراق الذى كان العاصمة الثقافية والعلمية للعالم بعد الفتح الإسلامى لها، وكان مركزاً سياسياً وعلمياً مهماً. وأشهر خلفائها هارون الرشيد، الذى كان يحج عاماً ويغزو عاماً آخر.. وكان يصلى مائة ركعة فى اليوم.. ونسج عنه العرب الأقاويل، ولم يذكروا له إلا أنه متعدد العلاقات النسائية وهو أمر مشكوك فيه تاريخياً، إلا أن هذا هو حال العرب دومًا، يصنعون الأساطير ويصدقونها، يميلون أكثر إلى الهجاء، ويعتبرون الثناء أمرًا خاصًا بالنساء.

العراق هو أول بلد عربى ينشئ انقلاباً عسكرياً فى تاريخ المنطقة العربية الحديثة، وهو انقلاب رشيد الكيلانى سنة 1939.. وحاول العراق الدخول فى وحدة مع سوريا ومصر، وفشلت ويبدو أن قدر العرب ألا يتحدوا، ووصل حزب البعث إلى الحكم ليعيش العراق ويذوق مرارة حربين من أكبر الحروب التى شهدتها الشرق الأوسط، وكان غزو الكويت الذى أفقد العراق ما كان أنجزه فى مجال التنمية البشرية والاقتصادية، كما أفقده دوره الإقليمى الذى كان من الممكن أن يلعبه فى المنطقة.

لست من أنصار نظرية المؤامرة.. ولكن من المسئول عن

سنوات من الانقلابات المتتالية والحروب؟ لماذا كان الاحتلال دائماً يحوم ويحشم فوق قلب العراقيين بأشكاله المختلفة.. المعاصرة والقديمة؟ إلا أن الأحوال اليوم أسوأ بكثير، وصلت الأمور إلى حد - وهو أمر موثق من شهود عيان - أن أى إنسان من الممكن أن يتعرض للقتل، أى إنسان صادفه حظ عثر أو لنكن أكثر إيماناً فنقول انتهى عمره، حتى في لحظة خطأ في مكان فيه قناص، ومن الممكن أن يقتل.

ولم يعد هنا من يعد أو يحصى مفقودين أو مقتولين لا يعرفون، ضحايا بالعشرات يتساقطون وأمريكيون ينفذون أوامر، وسيعودون إلى بلادهم من فيتنام أخرى، تقض مضاجعهم وتؤرقهم، وما الذى سوف يحكونه لأولادهم عن ذكرياتهم في العراق؟ وكيف أنهم اعتقلوا أناساً وعذبوهم وجرجروهم.. وعروهم.. سعداء بقتل أكثر ما يملك الإنسان.. الكرامة.. وخرج بعدها حكامهم يعترفون بأخطائهم في العراق.. ومن سيخفف عذاب رجل أطلقوا عليه الكلاب أو امرأة قتلوا رجلها أو أم اغتصبوا ابنتها؟.. من يعرض على الشعب ما فقدته أو ما سرق ونهب من مقدساته الدينية؟

كنت قد بدأت التعود على نشرات الأخبار المليئة بالتقارير من العراق.. لم أعد أتوقف أمام الجرحى والقتلى، لقائي بالسيدة العراقية - وأنا أقصد عدم ذكر اسمها - أيقظني من ثبات تعودنا النوم فيه، وكم من الجرائم ترتكب بأسماء متعددة ومسميات مختلفة، هذه المرة.. الديمقراطية. وسلم لي على الديمقراطية.

حكاية لبنانية

بابتسامة على الوجوه، بترحاب شديد أحاط بنا الدرك اللبناني... والدرك اللبناني هو المرادف للشرطة... وسط إجراءات أمنية شديدة قمنا بتسجيل حلقتين من برنامجي الأسبوعي " القصة وما فيها " ولأننا أردنا أن نكون وسط بيروت اخترنا ساحة الشهداء... ساحة كبيرة اختارها قبلنا الشعب اللبناني، كي تصبح نصرًا للحرب الأخيرة عليهم... وكعادتهم حولوا الدمار إلى جمال... أقاموا شجرة تشبه أشجار عيد الميلاد، في إشارة كما فهمتها أنا إلى أن لبنان يولد من جديد... والحق يقال... أصبح لبنان يذكرني بطائر الفينيق الذي كتب عنه الشاعر اليوناني هيرودوت، وقيل إنه عاش في بلاد العرب وهو طائر رائع ونبيل عاش ما بين 500 إلى ألف سنة، وعندما أحس بالموت بنى محرقة جنازية وغنى بشكل رائع أغنية سمعت في جميع أرجاء الأرض... لدرجه أن الآلهة أنفسهم - حسب ما تقول الأسطورة - ابتسموا بسعادة من روعة الأداء، وبدأ صوت الطائر يخفت بسبب الألم وجسده يتبدد في المحرقة.

وأصبح الفينيق والعنقاء كما يطلق عليه العرب رمزًا للخلود والبعث... ويقال إن أسطورة الفينيق تعود إلى المصريين

لأن حضارتهم مرتبطة بفكرة الأبدية والبعث.. والطائر موجود في حضارات عدة مثل الصين حيث يرمز إلى الاتحاد والسلام... وفي فلسطين موقعه كنعانية قديمة ترمز إلى الأرض التي سلبت وأبىد شعبها أو أخرج من أرضه... وعاد ليجد انتفاءه بدم شهدائه... وسواء أكان العنقاء أو الفينيق، فإن لبنان يولد من رماده في كل مرة تحرقه نيران الحروب... في كل مرة تقرر أيد أجنبية أن تعبت به وبأقدار أهله.

وإذا ما عدنا إلى الدرك... أو الشرطة في لبنان أقول: شباب في مستقبل العمر... يقف لحراستك دون إزعاج... دون أن تشعر به... دون أن يشكل عبئاً عليك... ملابسه نظيفة وشعره مهذب، وكأنه خارج لتوه من حمام بيتهم إلى العمل... وأثناء رحلتى إلى الجنوب... كانوا يقفون عند الحواجز، خصوصاً بعد هبوط الظلام يسألونك بكل أدب عن أسباب ذهابك أو عودتك، وعندما تقول لهم تلفزيون... لا يسألون حتى عن أوراقك مكتفين بالكاميرا كمعيار للصدق... لم نسمع كلمه خارجة أو نرى تجمهراً للسيارات بسبب حاجز

. باختصار لم نشعر بوجودهم... وأثناء التسجيل كان هناك شاب يصر على الظهور في البرنامج... إصراره كان غريباً تعامل الدرك معه بكل أدب دون شد ملابس، أو جذب أذرع أو دخول في "احترم نفسك يا مواطن"... فالاحترام متبادل بين الطرفين المواطن يحترم الدركي... والدركي يحترم المواطن... والشعب اللبناني قليل العدد... بمهاجريه إلى أفريقيا وأمريكا لا يزيدون على خمسة

ملايين... ولبنان كله بقعة صغيرة على الخريطة، إلا إنه واحدة من أجمل بقاع الأرض... والناس هناك محبوبون للحياة... محبوبون لبلادهم... يعيشون طوائف بتجانس غريب لا يخلو من بعض الحساسية التي قلت كثيرًا مع الحرب... فتجد المصور الذي كان معنا شيعيًا متزوجًا من سنية... ومساعدته يحكى لنا عن قريته المسلمة الشيعية التي أحبت مسيحياً وقررت الزواج منه... أما هو فقد أحب بدوره سنية وتزوجها، نماذج غريبة علينا... نحن الذين تعودنا التعامل بحساسية شديدة مع هذه الموضوعات.

ووسط هذه الأمور التي كانت بالنسبة لي أمورًا شديدة التعقيد... يعمل الناس وبأقل عدد... دون وجود الأعداد الكبيرة التي لاتنجز وتطلب من الحكومة في آخر الشهر راتبًا تعتبره حق الدولة عليها... وهو حق طبعًا ولكن يجب أن يقابله عمل وأن يقابله إنجاز... وفي الضاحية الغربية شاهدت شابًا مثل الورد قرروا مساعدة هيئات الإغاثة الدولية والدفاع الوطني... وبهدوء شديد... قدموا يد المساعدة... شبان وفتيات... محجبات مثل معظم قاطنات الحى المعروف بأغليته المسلمة... وعمل دؤوب لإخراج الضحايا ومتعلقاتهم من تحت الأنقاض... الخلاصة هذا شعب أحب بلاده بصدق... عمل من أجلها والعمل هو كلمة السر، والمفتاح والباب والسرداب وكل متعلقات النجارة والكتابة... والعبادة... هذا شعب لم ينتظر.. بادر.. وما يأتى بعدها فهو خير... والحب يبدأ بابتسامة... ابتسامة الدركى أو الشرطى فى وجوه الناس... ويمر

بأزمات كثيرة وكوارث بدلاً من أن تضعفه تزيد قوة... فينيق أو
عنقاء عصرية... تأبى الأيادي الغاشمة إلا أن تحطم رقبتها... فيحترق
الطائر ويولد من رماده... مغنياً... متحدياً بالحب... ليحترق المعتدى
مكتوياً بنار الكراهية التي تأكله... قبل أن تأكل غيره... باختصار
قالتها فيروز على لساننا جميعاً... بحبك يا لبنان... بحبك يا لبنان.



5

العلاقة مع الآخر

هكذا الحال في حرّيتكم
إذا حُلت قيودها
أُمسّت هي نفسها قيّدًا
لحرية أعظم منها

جبران خليل جبران
"النبي"

FARES_MASRY
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الابتسامة

حكاية عمر و طوم

عشت حوالى سبع سنوات ونصف السنة فى لندن، عاصمة المملكة المتحدة، أو الامبراطورية التى كانت زمان لا تغيب عنها الشمس أبدًا.. الإنجليز شعب حلو المعشر، فرغم ميلى لكل ما هو فرنسى، بحكم الوراثة فإن الفرنسيين رغم طبعهم المعتدل، وطبيعتهم الجميلة و تفوقهم فى الفنون و الأدب، فإنهم أكثر غلظة.. فقد تسأل فرنسيًا عن اسم شارع و أنت تائه وسط باريس فيجيبك بعصبية أو يعطيك نصف المعلومة و يجرى.. أما الإنجليزى.. فيقف لك.. يخرج كتاب الخرائط الشهير الذى لا يستطيع أحد التحرك من دونه، وبابتسامة متحفظة يشرح لك بالفاظ واضحة.. وإن سألت عن معنى كلمة.. يشرحها وإن أخطأت.. يصحح لك.. بالابتسامة المتحفظة نفسها، عشت مع الإنجليز و أحببت احترامهم "للسيستم" أو النظام فكانت الدنيا سلسة.. كل يعرف ما له و ما عليه.

إلا أننى لم أشعر يومًا أننى مندمجة بشكل كامل فى مجتمعهم.. فقد كنت أشعر أن الشرق شرق.. و الغرب غرب.. حتى عندما بكت أمامى مرة عاملة سوداء تعانى الاضطهاد بسبب لونها، ونظرت إلى حين حاولت التخفيف عنها قائلة: كيف لك أن تفهمى

وأنت صاحبة بشرة بيضاء ؟.. في ثانية واحدة وضعتني في الخندق نفسه الذي يضم مضطهديها من البيض، مع أنني كنت منذ دقائق قليلة العربية المسلمة التي تشكو لها همومها لأنني أقلية مثلها.. عرفت وقتها و بعد سلسلة من التجارب الحياتية اليومية أن النظرة إلينا دومًا أننا أدنى.

لن أدخل في تفاصيل الأسباب، أو دور الإعلام الغربي و اللوبي اليهودي، وهو كلام مستهلك لأننا نعرفه و لا نفعل شيئًا لا ثقافة تحسنه أو تحسن أوضاعنا أولاً وأنفسنا، فتكون الصورة عنا أفضل.

سأكتفي بحكاية شخصية أخرى مررت بها أثناء إقامتي هناك.. ذات مساء عاد ابني عمر من المدرسة باكيًا لأن صاحبه "طوم" لم يرض أن يمسك بلعبته الجديدة التي كان قد أحضرها معه.. حاولت الدفاع عن الولد متعللة بفرحته باللعبة الجديدة، ففاجأني ابني قائلاً: لقد ترك الآخرين يلعبون و قال لي: "ابعد عني جراثيمك العربية".. حتى الآن لا أستطيع أن أنسى هذه العبارة.. اتصلت بالمدرسة، وطالبت بالتحقيق في الموضوع، فعادت إليّ المدرسة معترفة أن طوم قد قالها بالفعل، فطالبت بحق ابني في أن يعتذر طوم له.. فعادت إليّ الأم التي قالت لها.. ابني يعتذر؟ قطعاً لا و رفضت.. و لسان حال الأم يقول.. ابني يعتذر لهذا العربي؟.. صعدت الموضوع فكانت النتيجة أن المدرسة أخذت صف والدته طوم.. و انكرت.. بعد أن اعترفت.. أن طوم قد قال ما يؤذي ابني.

لست أدري أين المشكلة فيهم أم فينا؟ إحساسهم بأنهم

أكثر تقدمًا وأفضل لأننا دومًا مبادرون بالاعتذار، نقدّم التنازلات في حياتنا اليومية.. لا نحترم الكثير من القواعد، و نعتبر أن كسرها شطارة.. أخذت عمر وأعطيته درسًا في التاريخ.. في كيف يجب أن يفخر بأجداده الفراعنة و العرب.. بأننا في وقت عشنا أزهى العصور وكانوا هم في الظلمات، وبأننا مع قبولنا الآخر لا يجب أبدًا أن نحس بأننا أقل.. تحدثت كثيرًا.. والتاريخ مرجعي، وهو المرجع الوحيد الحالى للأسف.. فالمقارنة بين حاضرنّا اليوم وحاضر الغرب ليس في صالحنا.. ولا تبدو الأمور مبشرة.. وأتساءل في أحيان كثيرة أى رجل سيصبح طوم؟ والأحداث اليومية والتفجيرات الأخيرة تعطى لأمثاله مئة فرصة و فرصة لإثبات مقولته الشهيرة.. والقوى دائمًا على حق.. كل ما أتمناه أن يكون جيل عمر أفضل من جيلنا.. ألاّ يكتفى بالبكاء مهما فعل به أمثال طوم.. بل يردد.. بالحجة والبرهان و العمل.. لا بحكايات عن التاريخ الذى.. هو كل رصيدنا الحالى.. وألاّ نفقد على الأقل.. إحساسنا بذاتنا.. وفخرنا بأصلنا.. وعروبتنا وأول الطريق.. رفض أى نوع من الحساسية في التعامل.. الآخر هو الآخر لأنه مختلف.. وأنا هو أنا لأننى مختلف.. هو اسمه طوم.. وأنا اسمى عمرو الفيصل بيننا هو مدى اعتزازى بنفسى، وتلك أولى الخطى.. فهل نستعيد هذا الاعتزاز ونعمل على أن نكون مثل أجدادنا؟ ها قد عدت للتاريخ كما فعلت مع عمر ألم أقل لكم.. هو كل ما نمتلكه؟.

ماذا بعد ؟

أذكر عندما كنت أسير في لندن، حيث كنت أقيم، في الشوارع المزدهجة بالسياح، وكنت أجد تى شيرتات غالبًا باللون الأسود تصور السيد المسيح، وهو يتزلج على الجليد، أو يأكل أو يرقص أو حتى يذهب الى هوليوود مع الفنانين. كنت أستنكر الأمر وأتعجب بشدة من عدم اعتراض المسيحيين على هذا التصوير الساخر.. إلا أنني وبمرور الوقت تعلمت أن مايلاثم شعبًا قد لا يلائم آخر.. ولاحظت شيئًا آخر.. أن كل ما يخص اليهود.. ممنوع المساس به.. وأنا في ألمانيا قررت زيارة المتحف اليهودي لأرى كيف يفكرون، ولو أنني كنت أعرف سلفًا إلا أن التجربة استهوتني.. متحف يهودي في ألمانيا.. وفي وسط برلين.. أى في المكان الذى حسبما يقال اضطهدهم فيه هتلر وأبادهم، معتبرهم عالة على البشرية وأجد أسباب مشاكلها.

والوصول إلى المتحف أمر شاق جدًا.. فعليك أن تصعد سلالم كثيرة و عالية يتعب نَفْسَكَ ومعه ركبك، مهما كانت لياقتك البدنية عالية، هى الأخرى، الملاحظة عامة وكأن الزائر عليه أن يدفع ثمن عذاب اليهود جميعًا.. نفرًا.. نفرًا.. وتبدأ الزيارة بالعهود القديمة لتتعرف على حكاية كل شخص عبر التاريخ اضطهد من

اليهود.. حتى ولو كان لصًا فهو في نظرهم برىء إلا أنه اضطهد لأنه يهودى ولو قاتل فهو برىء، حتى لو ثبتت عليه التهمة، ويدافعون عنه لأنه يهودى، مضطهد في نظرهم، وحكايات ما اصطلاح على تسميته بالهلوكوست، أو المحارق التى حسبما يقال قضت على الآلاف من اليهود أثناء الحرب العالمية الثانية، فى غرف للغاز، هذه الحكايات بالصور الشهيرة بالأبيض والأسود، تأخذ مساحات كبيرة بالأرقام والعناوين والأسماء والحكايات.. وكلها تقطع القلب حتى تخرج وأنت تريد أن تخرج ما فى جيبيك وتعطيهم.

وفى أثناء الزيارة كان معى مترجم.. ولم أجده أمامى فنادت عليه.. وكان اسمه محمد فوجدته يركض إلى.. مدعورًا وكأنه خاف أن يعرف أحد وسط هذا الجو اليهودى أن اسمه محمد، وكأنه فزع من أن تدب الحياة فى أصحاب الصور أو يركض وراءه زوار المتحف ومعظمهم من اليهود، ليجعلوه يدفع ثمن اضطهادات اليهود عبر التاريخ... ودخلنا فى نقاش حول أحوال اليهود، فى ألمانيا فقال لى عبارة مازالت ترن فى أذنى حتى يومنا هذا... فقال لى "تستطيعين الوقوف وسط برلين والصراخ بأنك لاتؤمنين بالله سبحانه وتعالى، وسيفسر كلامك على أنه حرية عقيدة، أما إن اعترفت لأى شخص بأنك غير مقتنعة بأن محارق الهولوكوست قد حدثت بالفعل فإنك تعرضين نفسك للمساءلة القانونية بتهمة معاداة السامية".. أفهمتم ما عناه.. أن يسمح لنا بالتشكيك بوجود الله سبحانه وتعالى، ولا يسمح لنا بالتشكيك فى الهولوكوست.. وصلت سطوة اليهود إلى حد

تخويف الناس أكثر من خالقهم سبحانه وتعالى.. فكيف وصلوا إلى ما وصلوا إليه؟.. لأنهم ببساطة لم يصمتوا لا على الصغيرة ولا على الكبيرة... قبل أن ينطق أحد بأى أمر يتعلق باليهود، فإنهم يلبسونه تهمة ويقطعون لسانه.

وما يحدث في العالم كله بعد نشر الصور المسيئة للرسول محمد عليه أفضل الصلاة والسلام أعاد إلى ذاكرتى زيارتى إلى ألمانيا.. وأعاد إلى ذاكرتى ما فعلوه من مسح وكنس وسلخ وتقطيع للمخرج والممثل الأسترالى ميل جيبسون، الذى قدم فيلم "آلام المسيح"، وأدان فيه اليهود لأنه قص الحكاية كما حدث بالضبط، وكيف أن يهوذا هو الذى خان السيد المسيح.. وهو ما عرفناه عمرنا كله عن حكاية السيد المسيح.. إلا أن اليهود وصلوا الى حد انتزاع غفران بابا الفاتيكان لليهود، عما اقترفه يهوذا قائلًا إنهم ليس عليهم جميعًا أن يدفعوا ثمن خطأ اقترفه شخص واحد... أساتذة والله العظيم.. لا يصمتون على حق مهما كان بسيطًا أو صغيرًا.. و القليل مثل الكثير، لا يجب السكوت عليه، أو عدم التعبير عن الغضب منه، ولينا نتعلم منهم، لينا نتعلم كيف نجبر الآخرين على احترامنا، على عمل حساب لغضبنا، على احترام تفاصيل حياتنا وعقيدتنا.

وصل الأمر إلى حد الإساءة لرسولنا الكريم وما الذى فعلناه؟ أرسلنا "ماسيجات" عبر الموبايل، نطلب التضافر بالدعاء على من رسموا الصور، ونطلب من الله أن يرينا فيهم يومًا، و"إيميلات" تطلب من المسلمين صيام يوم خميس وتكثيف الدعاء،

ورغم احترامي لهذه الدعوات فإنني أعتبرها سلاح الضعيف، و"الولايا" بشكل خاص، وولايانا هنا جمع ولية، أى التى تولول فى حالات الحزن والصدمة، ولا تملك غير الولولة وسيلة تعبير.

ونحن أمة تمثل حوالى ربع سكان الكرة الأرضية تؤمن برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ولا نملك غير الدعاء، المقاطعة كانت أكثر الأمور إيجابية، والمحلات الكبيرة شاركت خوفًا ربما من تكرار تجربة سينسبرى، ربما، أو عن عقيدة، المهم أنهم خضعوا للمطلب الشعبى، وفى كل تصعيد إحساس بالنصر، مع احترامى الشديد لحرىات التعبير، لا أستطيع عندما يتعلق الأمر برسولى وحبىبى محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، إلّا أن أنتفض، وأقول كلمة دفاع وأثور وأغضب، فمن لم يثر لدينه لن يثور لعرضه، ولا لأى أمر آخر، قدمت برنامجًا تليفزيونيًا عن الموضوع وأكتب اليوم مقالتي آملة، أن أنفذ الحديث الكريم عن تغيير المنكر، وبما أن اليد قصيرة ما دامت وحدها فباللسان علّنا نغير الواقع، الذى أصبح قائمًا جدّا.

هو حال المسلمين فى العالم، أصبحوا ملطشة يمينًا وشمالاً فمرة إرهابيون، ومرة متخلفون والقائمة طويلة، ونستحق ما جرى لنا فنحن تعودنا الصمت وعدم الاعتراض طيلة سنوات عمرنا، إلّا أن الخير فى أمة محمد ومن بعده، عليه السلام، أتفاءل فأقولها مصدقة صحتها، وقد لعن رسولنا الرجل "الديوث" أى الذى لا يغار على عرضه.. والدين كالعرض.. فهلاً نغار؟.. أو ننضم إلى قافلة الديوثين؟.. لا أعرف إن كان الجمع صحيحًا.. إلّا أنني متأكدة أن المعنى وصل.. وهذا هو الأهم.

حميمية املدونين

كنت دومًا أجد في الكتابة متنفسًا، في طفولتي كنت كثير من الفتيات، أحرص على تدوين مذكراتي من حين لآخر، يومياتي المليئة بالتفاصيل غير المهمة ومشاعري التي تعودت ألا أظهرها أمام الجميع حتى أقرب المقربين، وهو أمر إن كان قد قل بسبب تدريبي لنفسى على ضرورة البوح والاعتراف، إلا أن الكثير يبقى محبوسًا أو رهين المحبس: النفس واللسان، والكتابة كانت أيضًا وسيلة للخروج من مأزق عدة لم أجرؤ على مواجهتها، مثل مشاجرة أو تأزم علاقة، الأسهل والأجمل لو يتم التعبير كتابة.

وفي طفولتي لم يكن هناك كومبيوتر، واستخدامات الكومبيوتر في السنوات العشر الأخيرة شهدت تطورًا كبيرًا، وطبعًا أنا هنا لا أقول جديدًا، بل هي عبارة انتقالية لأتحدث عن جيل بأكمله استبدل القلم بالكومبيوتر، والرسائل أو الخطابات بالإيميل، وآخر اكتشافاتي اليوم المدونات، أو ال bloggers، وهي عبارة عن صفحات يكتب فيها صاحبها ما يشاء، كيفما يشاء وكل ما يخطر على باله، ومع المتابعة اليومية للمدونات تكتشف عالمًا جديدًا، شباب في العشرينات يعبرون عن آرائهم وأفكارهم، يصورون ما يحدث في الشارع

وينقلونه بكاميراتهم، لدرجة أن صحفًا عديدة أخذت منهم دون أن تنسب الفضل لأصحابه، بعضهم معتقل فيقررون جميعًا وضع هتافات على مدوناتهم، مطالبة بتحرير معتقليهم، وكأن المسجون أخوهم أو صديقهم مع أنهم قد يكونون لم يروه من قبل، وعلاء أشهر هذه الأسماء، لعدة أسباب أولها: قصة حبه لمنال زوجته، واختيارهما لاسم مدونتهما الذى يحمل حروف اسمهما معًا، وصورهما معًا، ويتحدثان ككيان واحد، لهما آراء سياسية إلا أن هذا لم يمنعهما من السفر والتجوال والتقاط الصور، كى يشاركهما من يريد فرحتهما، نعرف خلفيتهما وقصص حبهما التى بدأت مع سنين المراهقة، واستمرت حتى تزوجا، وكأن الأمر قدر ومكتوب وطبعى، لذا فالجميع شهود عليها ومتعاطف معها وكأنه يعرفها.

ووائل عباس له مدونة تحمل الكثير من الصور، ويضعها على صحيفته أو مدونته ليشاركه الآخرون ما رأى، رأيه شابًا فى العشرينات يتحدث بثقة ويعمل بدأب، يعتقد أن الانترنت مثل الهواء حق لكل مواطن، وما دمت قد دخلت فتحمل ما ترى وتقرأ، تمامًا مثلما يحدث عندما تسير فى الطريق قد تسمع ما يؤذيك، أو ترى ما لا تحب، عنصر المفاجأة متوقع لذا لا تضع شروطك وارض بشروط الإنترنت أو الطريق، أما بهية فأشهرهم جميعًا، لا نعرف إن كانت فتاة أو شابًا، اختارت صورة لها إحدى لوحات أحد أجمل نحائى مصر على الإطلاق فى نظرى محمود مختار، نجحت فى جعل كاتب كبير مثل محمد حسنين هيكل يتحدث عنها ويحرص على قراءة ما

تكتب، والكسندرا التائهة في المتوسط حسبها تقول، تحكى ذكرياتها في لبنان فتشعر أنك تزور "جبيل" وتأكل معها السمك وتشرب القهوة، ومدونات كثيرة أخرى وحواديت عن القطط والأصدقاء، عالم مختلف، يتسم بالحميمية مع آخر لا تراه ولا يراك، فلا تخجل من أن يرى ردود أفعالك، من أن يسمع حواديتك، ويتركك تتخيله أو تتخيلها في الشكل والمضمون، وحوار من طرف واحد تجد نفسك تشارك فيه.

الغريب، وربما الطبيعي أن كل المدونين في العشرينات من العمر، لا نجد مدونين في سن الثلاثين أو الأربعين ولست أدري لماذا؟ ربما مع العمر نفقد قدرتنا على العفوية، على التصارح، على البوح، مع العمر نصبح أكثر جدية، ولعل لفظ جد يأتي من الجدية، وهذا مجرد اكتشاف لي الآن، قد يكون علماء اللغة قد اكتشفوه قبل أو لم يكتشفوه، المهم أن الجدية أمر يزداد فينا مع تقدم السن، ونفقد حتى قدرتنا على المرح، يضيعنا مجتمعنا في قوالب وننصاع لهم فنتركهم يفصلون لنا القوالب كيفما يشاءون، يصممون لنا ملابسنا ويتحكمون في كلامنا، وإذا ما عدنا إلى المدونين، نجد أن ماتكتبه كل الصحف القومية وغير القومية، الرسمية وغير الرسمية، أكثر جدية بكثير من المدونين، وأنا هنا لا أقصد تفضيل طرف على آخر، إذ لا مجال للمقارنة بالطبع بين صحفيين محترفين، ومن نستطيع أن نطلق عليهم مبتدئين، وكلنا بدأنا كمبتدئين.

ما يهمنى في الموضوع هو الحميمية، هذا أكثر ما لفت

نظري، القدرة على المصارحة، مصارحة آخر لا أعرفه، أجرؤ على إخباره بأمور قد لا أجرؤ على قولها وجهًا لوجه، أمر آخر، الصبر، الصبر على التغير والتحديث والكتابة لساعات وبدأب ودون أى مقابل، والأهم بالنسبة لمن يكتبون فى الشأن السياسى، اتهام كنت أنا نفسى، على طريقة جدتى وأمى أوجهه للشباب، بعدم الاهتمام بالشأن العام، بعدم فهم السياسة، أو ما يحدث فى الشارع، بالتركيز على الأفلام التافهة والموسيقى الشبيهة برقع الحلل، وأنا هنا أتحدث على طريقة الجدّات، الطريقة التى كنت أنتقدها دومًا، وإن كنت من عشاق السينما والموسيقى، ولا أعتبر عمرو دياب " رقع حلل "، بل من أذكى مطربى جيله، وأعود فأقول: لماذا يقتصر التدوين على فئة عمرية واحدة ؟ للأسباب الكثيرة التى قلتها، ربما، ولكن الشباب شباب القلب، أليس كذلك ؟

ابسطها ياعم

هناك كتاب مجهول للكاتب والشاعر والمفكر الفرنسي: "الفونس دى لامارتين" تحت عنوان: "حياة محمد"، ومحمد المقصود هو رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام، والكتاب يعد مجهولاً لأن صاحبه عانى كثيراً من الاضطهاد وقتها بسبب ما احتواه الكتاب من دفاع عن الإسلام وقيمه، أفرد صفحات وصفحات للحديث عن نبي الإسلام، وعن الدين الحنيف وعرف بالصحابة، وهو ضمن مجموعة من ستة أجزاء نستطيع ترجمتها بتاريخ تركيا، كان يقصد بها الحديث عن الإمبراطورية العثمانية، التي كانت وقتها مقر الخلافة الإسلامية، فكان لابد أن يبدأ بالتعريف بالدين الذي يحكم بلاداً كثيرة، والكتاب يبدأ بلامارتين، وهو يعرف نفسه بأن أصوله العائلية ترجع إلى الدولة الأندلسية، وهو بهذا يبحث عن أى علاقة أو جذور بدين كان شديد الإعجاب به، وصل إلى حد اعتبار اسم عائلته فى الأصل "اللامرتين" أى خدام الله حسبما ترجمتها الشاعرة "فابيولا بدوي" فى مقال كتبه حول الكتاب.

ولامارتين لم يكن الشاعر الوحيد الذى أحب الإسلام ودافع عنه،
إلا أننا تعودنا أن نتحدث إلى أنفسنا وأن ننصت إلى أنفسنا

لا إلى الآخرين، رغم دراستي في كلية الآداب قسم اللغة الفرنسية فإنني لم أعرف لامارتين إلا من اجتهاداتي وقراءاتي الشخصية، الوضع نفسه بالنسبة للمفكر الألماني جوته، والذي يعتبره الألمان أفضل واجهة ثقافية لهم، لدرجة أنهم أطلقوا اسمه على كل مراكزهم في العالم، كان جوته مشغولاً بالدراسات الشرقية، وفي عام 1771 بدأ بدراسة القرآن ولا زال الألمان يحتفظون بمخطوطات بخط يده، لدراسته المتعمقة للكتاب الكريم، وفي كتابه "المقعد" يقول جوته:

"هل القرآن كتاب عن الأبدية، لا أناقش هذا الأمر، هل القرآن كتاب الكتب (أي أفضل الكتب) أعتقد هذا من منطلق واجب المسلم".

كان جوته عاشقاً للأدب العربي، وقرأ المؤلفات الأصلية للعلماء المسلمين، وقرأ تفسير القرآن، ونصوصاً مكتوبة حول تحرير العبيد، والبيع والشراء والفائدة، كان جوته مبهوراً بلغة القرآن وجماله وسموه، وكان على الأخص مبهوراً بمعانيه الدينية والفلسفية، وكان أكثر ما يحبه فكرة التوحيد، ووصل عشقه له إلى حد تقديم أول ترجمة مباشرة للقرآن من العربية إلى الألمانية عام 1771، وصل به الحد إلى القول عام 1816 "إن الشاعر جوته لا يرفض أن يشك الناس أنه هو نفسه قد أسلم" وفي موقع آخر من قصيدة الديوان (أعني: الديوان الشرقي للمؤلف الغربي) يقول:

"من الغباء أن كل واحد يدافع عن أفكاره، إن كان الإسلام يعني الاستسلام لله، فكلنا يعيش ويموت في الإسلام".

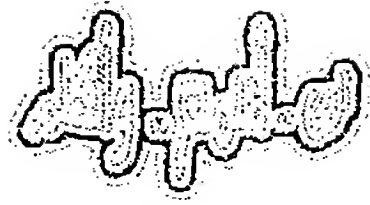
والكتاب الذين دافعوا عن الإسلام كثر، برناردشو وتولستوي، وأناطول فرانس وغيرهم، وأتساءل لماذا لا يدرس هؤلاء في المدارس والجامعات، لماذا اختفت معظم هذه الكتابات، لماذا لا يهتم الباحثون بإعادة إخراجها ودراستها وتقديمها للعالم؟ وبدلاً من الحديث ليل نهار عن قشور الإسلام يبدأون بالجوهر.

دخلت على موقع للفتاوى على الانترنت، فوجدت هذه الأسئلة " هل الوقوف للسلام الوطني حرام " الحمد لله أن الإجابة كانت بلا، وهو ليس دليلاً على الموافقة على النظام الحاكم، وسؤال آخر عن إجراء التجارب على الحيوانات والإسلام قد نهانا عن تعذيب الحيوانات؟ إلا أنه من أجل مصلحة العلم والإنسان كانت الإجابة بأن الأمر ليس حراماً ما دام لغاية أو هدف.

هذه نوعية من الأسئلة قد لا تخطر على بالنا، إلا أنها لا يجب أن تكون محور حياتنا، يتحدث الرجال عن القوامة ولا يأخذون منها سوى السلطة، ولا يحتذون بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مع أولاده وأحفاده وزوجاته وبناته خاصة، وتكثر كتب الرصيف وشرائطه التي ترهب وتخيف مع أن الدنيا أبسط بكثير، ولدى اعتقاد قد يلومني المتشددون عليه هو أن معاناتنا في الحياة تكفي، عذاباتنا اليومية، جهادنا مع أنفسنا، جهادنا من أجل حياة أفضل في الآخرة، وحياة أفضل في الدنيا، حروبنا الصغيرة وحروبنا الكبيرة، مخاوفنا، وأحزاننا، خوفنا من فراق من نحبهم، أحزاننا عند موت عزيز، إخفاقاتنا في العمل، البحث عن فرصة عمل أفضل،

عجزنا عن تحقيق الكثير لأولادنا وحرصنا من أعدائنا، وإيذاء من كانوا يوماً أصدقاء لنا، سفر من أجل فرصة أفضل، غربة في الوطن وخارجه، قسوة الأبناء أحياناً، هجر الحبيب للحبيبة والعكس، مذاكرة شديدة قد تعقبها خيبة أمل في النتيجة المرجوة، والأمثلة كثيرة تمتلئ بها صفحات وصفحات، ألا تعد كل هذه الأمور معاناة، وألا تخفف من عذابنا في الآخرة؟ من منّا يشعر بالسعادة للحظات طويلة؟ لا أحد، السعادة ومضات، وأنا أو من أن الآخرة أفضل كثيراً من الدنيا التي نتمسك بها، وخوفنا الشديد من تركها، وتعلقنا بها، هو تعلقنا بها نعرفه والخوف مما نجهله، والدنيا شديدة التعقيد، إلا أنها جهاد ومرحلة، فرجاء عدم تعقيدها أكثر، فديننا يسر لا عسر، ولنبسطها كي يبسطها الله علينا.

FARES_MASRY
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الابتسامة



النساء

"كل مايريده الرجل من المرأة
هو أن تفهمه
وكل ماتريده المرأة من الرجل
أن يجبها".

سقراط

FARES_MASRY
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الابتسامة

اذبح لها القطة!!

استغرب جدًا من منطق الرجال في مصر، لن أعمم فأقول العالم العربى فالأمور متفاوتة، ففي بعض البلاد تكون الأمور أكثر حدة، وفي بلاد أخرى أقل، إلا أنني لا أستطيع أن أنكر أن هناك الكثير من النقاط المشتركة بين الرجال الشرقيين، سواء أكانوا شرق أوسطيين أم من الشرق الأدنى.

مايجمع بينهم هو اعتبار إظهار المشاعر للزوجة ضعف، وأمر لا يغتفر ولا يسمح به للرجال الأقوياء الأشداء، والغريب يا أخى أنك تجده في فترة الخطوبة مثلاً هائماً يكتب لها القصائد، أو يرسل لها المسيجات مع تقدم التكنولوجيا والإيميلات المملأى بعبارات الشوق والهيام، وتصبح مشاعره رقيقة، يحبى المحبين ويتعاطف معهم، يشاهد الأفلام العاطفية وهى قربه ويتسم، يتصل بها كل ساعة ليطمئن عليها، يغار لو نظر أحد غيره إليها، ويتباهى بها معلنا أمام الجميع ملكيته لها وواضحاً بكل الطرق والوسائل لافتات: ممنوع الاقتراب.

ويأتى اليوم الكبير، اليوم الحلم الذى تتربى كل بنت في العالم على اعتباره أهم حدث في حياتها، تحلم بتفاصيله منذ الصغر عند اللعب مع العرائس، وتقف العروس سعيدة مرعدة أغنية السيدة.

أم كلثوم " اد إيه من عمرى قبلك راح وعدى يا حبيبى، وابتديت دلوقتى بس أحس عمرى " .

ويقف قربها العريس سعيدًا يفكر فى موعده المسائى مع السعادة، ويردد أيضًا أغنية أخرى لأم كلثوم هى " ليلة حب حلوة " وتبدأ الرحلة، ويتغير الشاب المحب الولهان 180 درجة، خصوصًا بعد أن يرزقا بالطفل الأول، فى أى مكان عام تجد الرجال فى ناحية والسيدات فى ناحية أخرى، فى الشارع كل منهما ينظر فى اتجاه، فى المطعم لو أراد أن ينزع عن كتفيه الإحساس بالذنب بسبب ترددها المستمر: لماذا لم نعد نخرج معًا، ويجلس صامتًا مفكرًا، هى إن حاولت كسر حاجز الصمت اتهمت بالثرثرة، ويتحول الموضوع والفسحة إلى نكد يتهم فيها الرجل المرأة بأنها تعيد النعمة، وأنه غلطان وستين غلطان لأنه فكر فى الخروج معها، يتكرر هذا السيناريو فى 99 وتسعة من عشرة (مثل انتخابات البلاد العربية) من البيوت المصرية، يندر أن تجد رجلاً يتحدث عن محاسن زوجته، لا أنكر أنه قد يستفيض فى الحديث عن طهيها وترتيبها للمنزل وتربيتها الجيدة للأولاد، إلا أنك لا تجد من يتحدث عن الزوجة الإنسانية، وفى الغرب يطلقون على الزوجة اسم partner أى شريك، ولا تجد دعوة فى العمل أو من الأصدقاء توجه للرجل دون زوجته، حتى ولو كانت سيدة منزل لا تعمل، وتجد رجلاً كبيراً فى السن يمسك بيد صديقه الأصغر قليلاً، وقد غطى الشيب رأسيهما والتجاعيد حفرت طرقاً وكبارى على وجهيهما، ولا ينجلان من السير يداً بيد، ويتسامران، ويضحكان، أما نحن فالرجل الأشد والأقوى هو الأكثر صرامة، سيد البيت الذى يشخط

فتنتفض النساء من حوله، وتتعب زوجته وتشقى فيستخسر فيها كلمة حانية، وكأنه بهذا يعطيها حقًا فتتعود وتطالبه بالمزيد من الكلمات، لن أبحث عن الأسباب وراء معاملة الرجال لنسائهم بهذه الطريقة.

ولن أدخل في تفاصيل إلقاء التهم، المرأة مسئولة أم الرجل، فهي أمور تستغرق جهدًا كبيرًا، وقد لانصل إلى أي نتيجة. أنا فقط أتوقف، أمام ما أراه ظاهرة إنسانية وأسردها دون تحليل كبير لأنها مهمة علماء النفس والاجتماع، أنا فقط أرفع شعارًا واحدًا أردده في حياتي هو حديث رسولنا الكريم محمد عليه الصلاة والسلام " من رأى منكم منكراً فليغيره، وأنا أغير بأضعف طرق الإيمان دومًا: اللسان، وإن كان اللسان أحيانًا لاذعًا.

وأجد نفسي تقوم بتعليقات لا تعجب الكثيرين، مثل مرة زارنا صحفي صديق لزوجي، وزوجته التي جلست قربي تحسدي على أنني أعمل وأخرج، وتحكى لي عن تجاهل زوجها لها وإصراره على بقائها في المنزل، ولما نصحتها بما أنعم الله على به، يبدو أنها ذهبت ونقلت الكلام لزوجها الذي اتصل بزوجي في اليوم التالي، وحدثه بعتاب شديد عن إفسادى لزوجته التي عاشت عمرها مطيعة ولم تتمرد إلا بعد لقاءها بي.

على فكرة، منذ ذلك اليوم لم أر زوجة صديق زوجي، وعرفت أنها أنجبت طفلًا رابعًا، وبقية حديث الصديق لزوجي كان - وخصوصًا أننا كنا في بداية زواجنا - كيف أنه يجب ان يروّضنى ويذبح لي القطة، وحتى اليوم، كلما سمعت هذا المثل أسأل نفسي: ما ذنب القطة؟ ولماذا نذبح قطة ولا نذبح قطًا؟

حكاية عايدة مع براقش

أعترف لكم بأننى انهزمت، عشت حياتى أردد عبارة "المساواة بين الرجل والمرأة"، وأكرر أن القرآن قد كَرَّم المرأة وجعل لها مكانة متميزة، ففي معظم الآيات - إن لم يكن كلها - يذكر سبحانه المذكر والمؤنث معًا: المؤمنون والمؤمنات، الطيبون والطيبات، القانتون والقانتات، إلى آخره.. كنت أقرأ عن كيفية معاملة رسولنا الكريم للسيدة عائشة وحبه الكبير لها، وطلبه دومًا - صلى الله عليه وسلم - من الله محاسبته على ما يملك وعدم محاسبته على ما لا يملك، ألا وهو حبه الكبير لها، أقرأ كيف أنه كان يناقشها ويسمح لها بالرد عليه بمنتهى الصراحة، حتى أن أباهًا يومًا سيدنا أبى بكر الصديق صفعها لأنها ردت على زوجها نبينا الكريم ردًا لم يعجبه، أما هو زوجها - صلى الله عليه وسلم - فصالحها وطيب خاطرها، نقرأ كيف أنه كان يساعد في أعمال المنزل، ويخيط ملابسه، وكيف أنه عندما استشاطت السيدة عائشة غيرة من إحدى زوجات الرسول عليه السلام رمت بطعامها أرضًا، فكان تعقيبه (صلعم) أمام الصحابة الحاضرين: غارت أمكم، تحمّل غيرتها وتعامل معها نبينا الكريم برحابة صدر.

ومن ناحية أخرى.. عشت طفولتى أقرأ عبارة "وعاشا

في تبات ونبات " في ختام الروايات، وكنت دومًا أتساءل: لماذا في القصص العربية ينهونها بالتبات والنبات، وهي تعنى الخلفة الكثيرة ودونها مشاكل، بينما في القصص الأجنبية يقولون وعاشا في سعادة إلى الأبد؟

كنت أشعر أن النهاية الأجنبية أكثر بهجة وتفاؤلًا، خصوصًا أن قصص الحب التي كنت ككل الفتيات في سن المراهقة أقرأها، كانت الأجنبية منها لا تحتوي على تعقيدات كثيرة، فالمحب يلتقى بالمحوبة والصعاب من النوع الدرامي، وليس فيها عدم قدرة المحبوبة على الخروج إلا بصحبة أحد، أو عدم السماح لها بالكلام مع الغرباء كما في روايات محمد عبد الحليم عبد الله مثلاً، وكنت أقول في نفسي: المجتمع مختلف والزمن تغير، ولا بد أن الدنيا بنفس إيقاع سرعة تقليد ما يأتينا من الخارج ستتغير الأمور هنا، ولكن مع الاحتفاظ بعاداتنا وتقاليدينا، فنجد المحبين في مرحلة الخطوبة يتحدثون عن المستقبل برومانسية شديدة، شبيهة بالقصص، وبعد الزواج يبدأ الزوج في الخروج وتستغرق المرأة في واجباتها المنزلية، التي يعتبرها الزوج جزءًا أساسيًا من وظائفها، وقد قالها لي أحد الزملاء بطريقة غاية في الاستفزاز: لماذا أدفع مهرًا؟ وعندما حاولت الرد قال: كي أحصل على خدمة مدى الحياة، فأنا أتزوج كي أُخدَم، دخلت في حوارات معه، وعندما شعرت أن دمي قد غلى في عروقي وأنه لا فائدة، انسحبت.

المشكلة ليست في تفكير زميلي، وهو يدعى ياسر بالمناسبة، المشكلة في النساء أنفسهن، فمن الملاحظ الآن تراجعًا في الرغبة في

تحقيق الذات وترديد الآية الكريمة " الرجال قوامون على النساء " مبتورة دون إكمالها " بما فضل الله به بعضهم على بعض، وبما أنفقوا من أموالهم " وترديد عبارات مثل: المرأة مصيرها المنزل، وحتى عندما تكون هناك تجمعات تجد النساء جالسات في ركن والرجال في ركن، والدعوات توجه للرجال دون النساء، مع أنه في أوروبا وأمريكا، أى الغرب الذى نقلده في تقاليع الملابس والموسيقى، يتم التعامل مع الزوجين معًا، فنعرف مثلاً أن شيرى بليز هي زوجة رئيس الوزراء، إلا أنها يذهبان معًا إلى مدرسة الأولاد، ويسافران معًا في إجازات، بل وأنجبا طفلاً بعد بلوغ شيرى الأربعين، والأمثلة كثيرة، الكارثة عندنا ليست في الرجال فقط، ولكن في النساء بشكل خاص، فوجئت أخيراً بشابات يقلن لى: بعد أن نتخرج في الجامعة لو وجدنا ابن الحلال سنجلس في المنزل، ما الذى يجبرنا على البهذلة في المواصلات وتحقيق الذات؟ مش مهم، يحققه هو وأنا أستفيد، كيف للمرأة أن ترضى أن تكون هكذا، إنسان تابع، تتخلى عن كينونتها وسنوات التعليم وما صرفه أهلها عليها وتكتفى بأقل القليل، ومنذ طفولتها تربي المرأة على أنها أنثى يتم إعدادها لواجباتها، وتبدأ في خدمة أخيها ووالدها، وقد تخرج من التعليم لأن الولد أفضل فهو سيفتح البيت، أما هي فمصيرها المنزل فلم التكاليف؟ وفي منزلى شابة تساعدني في أعمال المنزل، تنظر إلى الكتب في حيرة وتقول ليتنى أستطيع القراءة، ويعاملها زوجها العامل البسيط بعنف لأنها على حد قوله جاهلة، وكأنه هو دكتور في الجامعة ويضربها أمام أولادها مرددًا: مابينى وبينك ورقة أستطيع تمزيقها في أى وقت.

عايدة وهذا هو اسمها عرفت أن الحل في العمل، وفي الاستقلال المادى، ورغم ضغوطه عليها للعودة إلى المنزل فإنها ترفض مدركة بفطرتها أنه يفعل هذا من باب القهر ليس إلّا، وبعد أن جربت حلاوة الاستقلال ترفض العودة إلى ذل الحاجة، لا زالت تعيش مع زوجها فهو أبو الأولاد، وترفض الطلاق إلّا أنها صابرة، فالنساء في بلادنا كلهن صابرات، يتعبن يوميًا، وتقول لى بسذاجتها: ألا تركضين أنت أيضًا يامدام ما بين الأولاد والبيت والعمل؟ أنت أيضًا شقيانة، والبيه مشغول ربنا يعينه ويعين الرجال كلهم، فهم يتعبون أيضًا، وعندما أسألها: ومن يتعب أكثر يا عايدة؟ تقول: الستات طبعًا، ولكن ماذا نفعل، قدر ومكتوب.

تحضرنى عبارة أحبها كثيرًا للمفكرة الفرنسية سيمون دى بوفوار قالتها منذ أكثر من خمسين عاما " لا يأتى المرء إلى العالم كامرأة، بل إنه يصبح كذلك " والنساء فى بلادنا يتحملن المسئولية الأكبر، فعلى نفسها جنت براقش، وأخريات، والقائمة طويلة.

أعباء النساء وقضية الشرق الأوسط

قال لي صديقي الشاعر أثناء إحدى زياراته لمبنى حكومى شهير، يعمل فيه عدد كبير من السيدات: " أنا مفاجأ جداً من حجم النساء، كلهن من الحجم الثقيل " وصديقى كان يقصد الحجم بمعناه الصحيح، يعنى الوزن الثقيل، أى السيدات الممتلئات، وطرح صديقى الشاعر تساؤلاً أضحكنى بشدة فى البداية، ثم دفعنى للتفكير فى الكتابة: " ألم يكن هؤلاء السيدات يوماً فى سن الثامنة عشرة وكن شابات يبحثن عن الحب والعريس؟ " مالذى غيرهن بعد هذه السنوات؟ مالذى دعاهن إلى الإهمال فى وزنهن وشكلهن لهذه الدرجة. وأنا هنا لأريد أن أكون قاسية فكل سيدة فى العالم تود أن تكون الأنحف والأكثر رشاقة.. بل ويمارس المجتمع بأسره عليها ضغوطاً كى لا تعد من الممتلئات، لدرجة أن منظمات دولية وعالمية بدأت تغذى بشدة هلع المراهقات من السمنة، مما يؤدى إلى امتناعهن عن الطعام وتهديد حياتهن.

نحن طبعاً عندنا الوضع مختلف.. فنحن حين نحب أحداً نعبر عن حبنا أكلاً.. ندعوه إلى سفرة فيها مالذ وطاب والكلام أصلاً لا يحلو إلّا على الطعام.. وخصوصاً لو كان ليلاً أمام التلفزيون..

وتصبح الدنيا في هذه اللحظات في أحلى حالاتها.. وأنا معترفة بهذا واعترف أنني أقوم بهذه الأفعال دومًا.. وبسعادة.. ولكن لكل سن حدود.. لماذا النساء في بلادنا من الحجم الثقيل؟ تعتبرن أنه مادم قد حصلن على العريس وأدخلنه القفص، ثم قمن في استراتيجية معروفة ومكررة بربطه بالعيال والأطفال ضمن بقاءه في المنزل، فقد نتفن ريشه، ريشة ريشة وإن كان الكلام عن الريش هذه الأيام خطر. المهم.. إنها قصة قديمة جديدة مكررة يوميًا... وأنا هنا لا أود أن يفهم من كلامي على الإطلاق - أرجوكم - أنني أعطى للرجل أعذارًا في النظر إلى أخريات والاستشهاد بما يقول.. فالمطلوب من الرجل أيضًا أن يهتد نفسه وألا ينسى أنه مع عوامل الزمن يظهر الكرش، ويقل الشعر وقد يقع ويصبح خلقه ضيقًا وكلامه أقل مثل صبره، وتتحول الكثير من الأمور التي من المفترض أنها عاطفية إلى أمور روتينية.

المهم.. أن كل الصحف والمجلات لا تتحدث - وفي العالم كله - إلا عن موضوعات من أمثال " كيف تحافظين على بيتك وزوجك " .. " الطريق إلى قلب زوجك " " اسعديه لتسعدى " وعناوين كثيرة أخرى يكفي تقلب أى مجلة نسائية لتجد العشرات من هذه العينات، واعتبر هذه النوعية من الصحافة والتي تلقى بالتبعات وبالمسؤولية على المرأة وحدها، هى أحد أسباب العنف والقهر الممارس مجتمعياً ضد النساء.. فالمرأة لو تعبت من مسؤوليات البيت الكثيرة مثل الطبخ والغسيل والتنظيف، وطلبت الراحة يومًا.. اعتبرت مقصرة في مسؤولياتها أو واجباتها ووجب توبيخها لا مساعدتها، كما كان يفعل رسولنا الكريم (ص. ل. ع.) الذى كان يقوم بالكثير من الأعباء المنزلية،

ولا يعترض على ما يقدم له من طعام، ولا يؤنب زوجته على تقصير أمر من هذه الأمور.. وحين اشتكت له ابنته فاطمة من تعبها من أعمال البيت نصحتها هي وزوجها "على بن أبى طالب" ببعض الأدعية للتخفيف عنهما.. أى لم ينصحها وحدها.. معتبراً أن الأمر مسئولية مشتركة بينهما، وكان عليه السلام يزور ابنته يومياً يجلس معها.. يحادثها أما فى أيامنا فأمور الأولاد كلها موكولة للأم مثل الكثير من المهام الأخرى.. أما الحياة اليومية بتفاصيلها الصغيرة الكثيرة من أمور شاقة.. فأيضاً متروكة للمرأة... ولوتعبت أو اشتكت يكون الرد دوماً.. هذا حال النساء جميعاً فلماذا تشتكين أنت بالذات؟... النساء جميعاً تلدن فلماذا أنت الوحيدة التى تتعب فى حملها؟.. الفلاحة فى الغيط تحمل وتلد دون مساعدة طبيب فلماذا أنت التى تتوافر لك كل سبل الرعاية تشتكين؟ وإذا ما أصابها الإحباط الذى يصيب معظم النساء بعد الولادة، تجد نفسها وحيدة والزوج ينظر إليها باستغراب شديد، مع أن اكتئاب ما بعد الولادة مرض معروف عالمياً.. المثلة بروك شيلدرز عانت منه لدرجة أنها قامت بتأليف كتاب عن الموضوع، وإذا ما كان على أحد الطرفين أن يضحى.. فالمرأة دائماً تفعل.. وليس غالباً..

وشهر مارس.. شهر المرأة.. فيه تتقلب كل مواجعى كامرأة.. فانتظروا منى مقالات من هذا النوع. الذى يقرأه الرجل ويقول: إحنا ناقصين يارب، أو يقول آخر دون أن يكون قد قرأ فى الشرع أو فهمه: "هذه سنة الكون فعلام تعترضين؟ أو يقول ثالث كما يقول زوجى"

الرجال يهتمون بالمشاكل الكبرى فى الحياة، مشكلة الشرق

الأوسط، النزاع العربي الإسرائيلي، احتلال أمريكا للعراق، حبس الصحفيين وحرية الرأي، أما النساء فيهتممن بصغائر الأمور وأبسطها: توصيل الأولاد، دروسهم ، تنظيف المنزل والطبخ، ومشاكل المدرسة وشراء المستلزمات، يعنى القائمة طويلة وينسى نساء من عينة مارجريت تاتشر، أو آنجيلا ميركل ، أنديرا غاندى، أو حتى جولدامائير. "... معه حق.. نساء مفتريات صحيح.

حلم الرئاسة

ماذا لو أصبحت النساء رئيسات للجمهوريات؟ ماذا لو وصلت سيدة لهذا المنصب؟ هل ستحارب إسرائيل مثلاً مندفعة بضغط شعبي وموروث حروب بين البلدين؟ أم أنها كما يقال عن النساء إنهن رقيقات، فهي بالتالي ستجنح للسلام وتنادى به وتحترم معاهدة كامب ديفيد، وتضيف عليها معاهدات أخرى؟ هل ستهتم بالصناعة على اعتبار أنها دولاب وعجلة الاقتصاد؟.. سيقول البعض إنها لن تفهم في الصناعات الثقيلة، ونرد فنقول: لا يهم ثقيلة أم خفيفة، المهم أن تكون هناك صناعة، هل ستركز على التعليم؟ طبعاً فالأم مدرسة، ليس على رأى أمير الشعراء شوقي، بل أصبحت مُدرسة مع ضمة في بداية الميم، وهى وظيفة إجبارية تقوم بها كل النساء فى منازلهن للارتقاء بمستوى أولادهن التعليمى.

ماذا عن الصحة؟ هذا أيضاً أمر مفروغ منه، فالصحة من اهتمامات المرأة، وكأنها المسئولة الأولى عن صحة أسرتها، وكل ما يجب على الرجل القيام به هو الأكل وهو يتسم موافقاً على اختياراتها، وماذا عن الخارجية والعلاقات مع البلاد الأخرى؟ النساء أكثر قدرة على زرع الجمال حولهن، لذلك ستتحسن العلاقات الخارجية مع

بلاد كثيرة بقليل من الورود، أو بغذاء عمل فيه لمسات جمالية قد لا ينتبه إليها الرجل.

ماذا عن الداخلية؟ الشرطة ستقوم بالعمل، والدفاع أيضًا، ماذا عن الإعلام؟ هنا قد تكون المشكلة، فلو جرؤ مصور وأظهرها بشعر ليس مصففًا أو حدثت مشاكل في الاضاءة كما يحدث كثيرًا أثناء التصوير فسوف تنفعل، وتغفر المرأة كل شيء إلا من يظهرها بشكل بعيد عن الجمال، وفي هذه الحالة ستحدث مشاكل بين رئيسة الجمهورية ووزير الإعلام، نصل إلى الثقافة وهنا نجد مشكلة.. فالنساء بطبعهن محبات للفنون وإلهات الاغريق من النساء الجميلات: اللاتي امتلكن الكثير من المواهب... الغريب أنني أقول ماذا لو؟ لأن الاحتمال ضعيف جدًا... ووصلت بي الأحلام إلى حد وضع السيناريو الذي قرأتموه... ولكن تبقى الأحلام أحلامًا... وتسمى أحلامًا لأنها إلى حد ما بعيدة المنال.. ففي عالمنا العربى لم تصل المرأة بعد إلى منصب رئيسة وزراء.. أو وزيرة الداخلية.. ولم تصل بالتأكيد إلى منصب رئيسة وزراء أو رئيسة جمهورية.. بل لم تصل إلى طرح اسمها كمرشح.. وهذا مفهوم بالطبع لأن الحكام العرب وصلوا إمّا بالانقلابات العسكرية أو بالوراثة.. والحمد لله أنهم أنجبوا ذكورًا وإلا ماذا سيكون مصير البلاد العربية من غيرهم؟.. ماذا لو وصلت المرأة إلى السلطة؟ الكارثة أننا عندما سألنا نساء أجبن: كن سيخربن البلد طبعًا.. ونلوم بعدها الرجال ونتحدث عن المجتمعات الذكورية.. فالنساء هن المسئولات أولاً بخضوعهن... ولو كمل الحلم.... فهو جميل، ولأسترسل فأقول:

ماذا لو أصبحتُ أنا رئيسة جمهورية؟... ووجدتني أخاف من مجرد الفكرة.. فالمسئولية كبيرة وعمر بن الخطاب كان يخشى من عقاب الله على دابة تعثرت في العراق أن يحاسبه ربه على هذا.. والعدل؟ كيف للإنسان أن يعرف كيف يحكم بالعدل؟ كيف للعواطف أن تتنحى جانباً.. كيف للمرء منا أن تكون له القدرة على التمييز الأكيد والمطلق بين الصبح والغلط.. استفت قلبك.. هذا صحيح؟ ولكن القلب يعنى مشاعر وعواطف ولا بد لأهوائنا أن تحكمنا.. والإنسان بطبعه ميال لمن يقول له كلاماً حلواً ومديحاً.. وطبعاً عندما يتولى الإنسان منصباً ما ينهمر الكلام الجميل كالمنهل، بل ويتحول إلى عسل وسكر.. على رأى الأغنية الشهيرة.. وعلى سيرة الأغاني.. سيغنون وقتها في حبي ومحاسني.. والكارثة لو صدقت.. ونظرت إلى نفسي في المرآة وبدلاً من أن أرى نفسي رأيت ما يراه الآخرون من صفات تقترب من الكمال والكمال لله وحده.

أمّا أسوأ ما في الموضوع.. فهو الجلسات الطويلة والاجتماعات اللانهائية اليومية مع المسؤولين والرؤساء والزعماء... الزائرين.. لأ.. بعد هذه الأحلام وجدتني أقول شكراً.. أنا أحب حريتي كثيراً.. أصبحو متى أشاء وأنام متى أشاء.. دون قيود أو حراس.. أحاسب على ما أرتكب في حق نفسي وعائلتي.. وزملائي في العمل، لا يعنى هذا إطلاقاً إنسحاباً.. بل نساء كثيرات يصلحن للمهمة.. هذا أمر أنا من أشد المؤمنين به وفي مقدمتي إغراءات كثيرة لتصديقي، ولكن شخصياً.. أعتقد أن المهمة صعبة على من لا يحلم بالسلطة

أرى.. أسمع.. وأنكلم

من أمثالي.. فأنا ممن يستغربون قتال الناس للوصول إلى الكرسي..
ويضحون براحة البال ويبدلون بتوترات يومية متكررة.. لن أريح
القارىء وأقول دعوها للرجال.. أبداً.. لن تصدر عني بل أقول هناك
نساء أقدر مني على رئاسة الجمهورية، وحتى يتحقق الحلم يوماً
وتصل النساء للمنصب.. لا ضير من أن نحلم.. ونسعى للتحقيق..
نحن النساء.. أتحدث باسمكن إلا أنني لا أعدكن بالمحاولة.. أترك
الأمر لكن... واحتفظن لي مسجلاً في الشهر العقارى - أنني عبرت
عن أحلامكن كتابة.. وإلى أول الطريق.

فاطمة السيوية

اسمها فاطمة.. عيناها تشعان ذكاءً.. كلماتها مرحة.. تتحدث العربية والأمازيغية بطلاقة.. والأمازيغية هي لغة أهل شمال أفريقيا خصوصًا البربر منهم ، وأهل سيوه على حدود مصر الجنوبية الغربية يتحدثونها أيضًا.

وفاطمة امرأة سيوية أى من واحة سيوة.. جميلة الملامح ، دمها خفيف أى ابنة نكتة و ومتابعة لبرامج التلفزيون، وأكملت تعليمها حتى الثانوية العامة، إلا أنها لم تحصل على مجموع عالٍ.. فزوجها أهلها وجلست مثل كل نساء سيوة فى المنزل، خلف جدران أربعة.. ممنوعة من العمل إلا فى الأعمال اليدوية مثل الملابس والطرح، كى يبيعها زوجها فى أحد المحلات.. ومسئولة عن عائلة.. وإذا ما خرجت من المنزل فعليها أن ترتدى ما يخفى كل معالمها.. عباءة رمادية ترسم عليها بألوان تكل تقلم بقم بها العمر.. وتغطى وجهها بالكامل الذى لا يسمح برؤيته إلا لزوجها والمحارم.. أما قبل الزواج فتسير الفتيات مكشوفات الوجه ، بل ويسمح لهن بالعمل وإن كن قلة من فعلن هذا ومعروفة أسماؤهن.. التقيت بإحداهن وهى تعمل فى الإرشاد الصحى، رغم أنها حاصلة على الإعدادية فإنها عملت

بسبب أنه كان لابد من فتاة للتعامل مع النساء، ومقيمة كي تعرف عادات وتقاليدها، تم اختيارها.. وفرحت بالعمل جدًا. لدرجة أنه تم تكريمها من الجامعة الأمريكية العام الماضي على جهودها.. سألتها إن كانت ستستمر في العمل بعد الزواج قالت: غالبًا لا.. وإن كانت سترتدي ما يخفى وجهها فأجابت: بالطبع نعم.. فهي عاداتنا.. ولا أستطيع مخالفتها.. والعادات في أحيان كثيرة.. تكون أقوى من أى قانون.. تتحكم فينا، تسيطر على حياتنا ومجرياتنا.. من ماضٍ أو مستقبل.. وعادات مثل إجبار المرأة على البقاء في المنزل، واعتبار أن عملها أمر مرفوض من المجتمع في واجهة مثل سيوة، والذي هو أقوى من أية محاولات تغيير.

التقيت بمرشد سياحي هناك وسألته عن وضع النساء فقال لى: دور المرأة أن تبقى في منزلها، وأن هناك قلة من المتعلّيات ممن أكملن تعليمهن حتى الجامعة، وهن بعدد أصابع اليد الواحدة وقالها معتذرًا.. وكأن وصول المرأة إلى الجامعة عيب أو خطأ وجب الاعتذار عنه.

وإذا ماعدنا إلى فاطمة.. ذات العيون الباسمة.. فاطمة ليست حزينه على قدرها.. لا تعترض على بقائها في المنزل، وخروجها مختبئة خلف عباءة رمادية.. فما يسرى على الكل يسرى عليها.. إلا أنها تقضى وقتها في تعليم ابنها.. وتمنعه من مشاهدة التلفزيون بكثرة لأنه يلهيه عن المذاكرة.. و هى تعلمت و عرفت أن العلم نور.. و أساسى فى حياة البنت و الولد.. و سيوة بعيدة جدًا عن القاهرة..

مسافة 820 كيلو مترًا.. طريقها مرصوف إلا أن هذه هي حالها اليوم، أما في الماضي فقد عاشت تاريخًا طويلًا مقطوعة عن العالم الخارجي.. مكتفية بأهلها وبزراعة النخل والزيتون.. حاول الكثير من الغزاة احتلالها وفشلوا.. لم يفلح إلا الاسكندر حين استعمل مع أهلها منطقتًا أقنعهم وهو أنه ابن الإله آمون.. اتاهم من باب الدين فاقتنعوا، ولو حاول بطريقة أخرى لصدوه وحاربوه.. قطعة من أرض مصر تشعر عند زيارتك لها كأنها خرجت من مصر.. فأهلها رغم اعتزازهم الشديد بمصريتهم فإنهم بعاداتهم وتقاليدهم خلقوا جمهورية مستقلة، ليس فيها حاكم إلا شيخ القبيلة ومجلس يعاونه، ولا يحوى بالطبع إلا الرجال.. مجتمعون سنويًا في عيد أصبح سياح كثيرون يحرصون على ارتياده في شهر أكتوبر.. عند جبل الدكروري.. عيد اسمه عيد السياحة.. أو عيد المصالحات.. ولا يسمح للنساء من سيوة بحضوره منعًا للاختلاط.

قلت لفاطمة وأنا معها في المنزل.. ألا يقول لك زوجك إنك جميلة؟! ضحكت وأجابت: بالطبع لا.. فرجالنا لا يقولون لزوجاتهم كلمات إطراء.. فخففت عنها وقلت: ولا رجالنا.. فلا تحزنى.. فضحكت عاليًا ثم خبأت وجهها سريعًا حين فتح الباب خوفًا من قدوم أي غريب.

عند قراءتي عن الواحة.. عرفت أن الباحثين والأثريين قد ضاعت منهم حوالى 700 سنة، لا يعرفون ما الذى حل بسيوة فى تلك الفترة.. انقطعت أخبارهم عن العالم ولم يهتم أحد بها.. زحفت

الطرق وأقيمت الفنادق والمنتجعات وبدأت الحضارة تزحف عليها.. فتخلت النساء عن ملابسهن التقليدية بألوانها الزاهية الجميلة، وحلت محلها ملابس عادية مثل تلك الموجودة في كل العالم.. وفوقها الطرحة الرمادية.. زحف التليفزيون والدش إلى المنازل والمحلات.. وبدأت حركة السياحة تنتعش.. إلا أن العادات.. اندثر ما هو جميل منها للأسف.. وبقي منها ما هو أقوى من أى تغيير.. العادات الخاصة بالنساء.. ترى.. هل ستصمد هذه العادات.. وهل رياح التغيير التى اجتاحت العالم لن تمر على أهل سيوة؟ أم أنها كما حدث من قبل مئات المرات.. ستنسأها وتنسى أهلها؟

مي

كل شخص على وجه الأرض يعتقد أن مصيبته أكبر مصيبة...
يعتقد أنه لو أصابه أمر ما، حتى ولو صداع، أن العالم حوله يتهاوى...
ويبدأ في التكشير والشخط والنظر متوقعًا تقديرًا من الجميع
لظروفه... وصداعه أو اعتلال مزاجه، وأنا شخصيًا... أصحو في أيام
كثيرة ومزاجي معتل لأي سبب... أعتقد أن أحد الأسباب يعود
لكونى من الذين ينتمون لبرج الميزان... أحد أكثر الأبراج هوائية...
ليس بقدر برج الجوزاء بالطبع، ولكن المزاج لأصحاب برجى يمر
بمراحل وفترات وتغيرات وانتماءات واعوجاجات، فالذنب ليس
ذنبنا بشكل كامل إذن، ولكننى فكرت بكل هذا... وشعرت بخجل
شديد من نفسى، بل وقررت أنه يجب أن أنتصر على نفسى وألا أترك
مشاكل الحياة اليومية تجرنى وتسحقنى وأنا أشاهدها تدخل.

جميلة كما هى عامة اللبنانيات... أنيقة... كما هى عادة
البيروتيات... شقراء وبابتسامة رضا من القلب.. كنت أشعر بتوتر
وأنا أنتظر لقائى بها... ليس سهلاً أن تلتقى بأحد أقطاب مهنتك...
فهى واحدة من أشهر المذيعات فى لبنان... وبسبب آرائها تم وضع
متفجرات فى سيارتها، إلا أن نعمة السماء هى التى أنقذتها

أرى.. أسمع.. وأنكلم

من الموت المحقق... وخرجت مهشمة ممزقة... وأصبح يطلق عليها في لبنان لقب "الشهيدة الحية".

ولمن لا يعرف فإن "مى شدياق" حلقة في سلسلة من الاغتيالات، طالت بعض أصحاب الرأي في لبنان... استشهد جورج حاوي، وسمير قصير الصحفي زوج الإعلامية جيزيل خوري بالطريقة نفسها، أما مى و معها الوزيران مروان حمادة وإلياس المر، فقد نجوا بأعجوبة، حولتها مى إلى سخرية وأسمت الثلاثة بنادى الرعب... أو مثلث الرعب الذى لم تطله اليد الغاشمة، قبل ساعات من الانفجار كانت مى تستضيف صحفياً لبنانياً يدعى سر كيس نعوم... كنت قد التقيته منذ سنوات في حلقة أجريتها من لبنان عن حزب الله... سألتها عن التدابير الأمنية التى تتبعها لحماية نفسها فضحكت... لم تكن تتوقع أن تكون الهدف التالى، وأن تكون أول امرأة في لبنان تتعرض لمحاولة اغتيال.

التقيت مى منذ أيام... وبادرتنى عم ستتحدث أجبت: عنك... اعترف أننى لم أكن أعرف كيف أصوغ سؤالاً بشكل لا يوقظ جروحها أو ينكأها.. وكأنها أحست بحيرتى... فابتسمت... وساعدتنى في إجاباتها... حكّت لى كيف أنها كانت قد أنهت عملها... وذهبت إلى كنيسة القديس " مارشربل " كعادتها... تصلى... وخرجت متجهة لزيارة والدتها لتحتسى معها فنجان قهوة... وهى فى السيارة عادت إلى الورااء بدلاً من الاتجاه للأمام وهذه الحركة البسيطة أنقذت حياتها... وشاهدت بنفسها يدها قد قطعت من

جراء التفجير قبل أن يغمى عليها... وصبرت على الآلام... وبدأت العمليات الجراحية.

وضحكيت وهى تقول... تعودت أن أجد نفسى فوق سرير العمليات أيام الثلاثاء والخميس من كل أسبوع... خمس وعشرون عملية جراحية، وحديد مثبت فى الظهر، يجعلنى أصفّر فى كل مرة أمر على حاجز تفتيش... وغداً أدخل غرفة العمليات من أجل عملية أخرى... غداً أدخل؟ تقولها وهى جالسة معى مبتسمة... وعندما تلحظ استغرابى تضحك وتقول... ألم أقل لك تعودت؟

أسألها عن واضع التفجيرات... هل تفكر فيه... ما الذى تشعر به نحوه... فتجيب... من المؤكد أنه يشعر بالغىظ لأنه لم يطل وجهى... فلو أن وجهى تأثر لما كان بإمكانى العودة إلى عملى أبداً... مى شدياق أصبحت فى لبنان رمزاً وظهرت صورتها على أغلفة الكثير من المجلات، ودون دخول فى أسباب محاولة اغتيالها أو من هم وراء المحاولة... ننتظر التقرير الذى أُجْرِى ومن شأنه إيضاح كثير من الأمور... نقول ونقول.... مى نجحت بسبب دعم المؤسسة التى تعمل فيها، فى أن تنسج علاقة خاصة بينها وبين جمهورها بسبب إصرار المؤسسة التى تعمل بها على دعمها فى آرائها وأفكارها، وعدم الاستغناء عنها عندما أصيبت والاكتفاء بدفع تعويض مادي... مى شدياق تقدم اليوم برنامجها "بكل جرأة" وهو أسبوعى تستضيف فيه ضيوفاً من كل أنحاء العالم.

وعندما قامت الحرب الأخيرة أصبح برنامجها مرتين،

وأحيانًا ثلاث مرات في الأسبوع... لقناعة أصحاب المؤسسة أنها الأجدر على القيام بالعمل على الرغم من يدها وقدمها، اللذين استعاضت عنهما بأطراف صناعية وأمضت شهورًا تتدرب على السير تمامًا كالطفل على حد تعبيرها... فالطفل يمر بمرحلة التعليم ويصبح الأمر طبيعيًا تلقائيًا... أما مى فعليها أن تفكر: على أن أضع قدمي الآن بهذه الطريقة، على أن أحرك طرفيَّ أو ما حل مكان يدي... أمر في غاية الصعوبة... سألتها عن السبب في قوتها... أجابت الإيمان... إيماني بالله كبير... في أحيان كثيرة تمنيت الموت، ولكنني عدت واستغفرت ربي.

مى مقتنعة أن من حماها هو القديس شربل الذي كانت تزور كنيسة قبل الحادث... لذا فإن أول ما قامت به عند العودة من رحلة العلاج إلى فرنسا، كان زيارة الكنيسة لتقديم الشكر لمن أنقذ حياتها... وعادت مى إلى بيتها... وشربت قهوتها مع والدتها... وعرفت مدى حب الناس لها خصوصًا شقيقتها التي ترافقها 24 ساعة في اليوم... ترد على مكالماتها وتحدد مواعيدها... بحب قلما تجده حتى عند الأشقاء... فأية شقيقة توقف حياتها وتضحى وتضعها في خدمة شقيقتها 24 ساعة... داخل البلاد وخارجها... في العلاج وبعده... تحية لمى... لشجاعة امرأة اختارت الإيمان طريقًا... والابتسامة سبيلًا... تحية لمى التي لم تستسلم، ورغم صعابها ومصائبها لازالت مشرقة جميلة... أنيقة... متميزة... وناجحة... هل فهتم الآن لماذا قررت أن أعيد النظر في أمور كثيرة في حياتي.

حتى لا ننسى

الاسم: فاطمة، سيدة في مقتبل العمر، محتشمة، ترتدى ملابس سوداء فوق ملابسها العادية، ذلك المعطف الطويل الذى يقفل بأزرار كثيرة، وتضع على رأسها غطاءً أسود، تسير بين النساء فتشبه الأخريات، كل النساء في قريتها الجنوبية يلبسن الطرحة نفسها المعطف نفسه، كل النساء في قريتها يتشابهن إلى حد كبير في الملامح، أو هكذا نجيل لنا عندما نراهن بغطاء الرأس الذى يعقد بالطريقة نفسها، كل النساء في قريتها يعشن الإيقاع الهادئ البسيط نفسه، عدد قليل يعملن خارج المنزل، والأكثرية يسهرن على راحة الزوج والأولاد.

فاطمة، سيدة لبنانية شيعية، كانت تعيش مع أهلها حتى أتاها شاب وسيم لكنه مقعد، أو ربما أصبح مقعداً بعد الزواج؟ لست أدري، المهم أن الزوج على كرسي متحرك ويعيش بأطراف صناعية بدلاً من الأقدام، هو الآخر تماماً مثل الزوجة، مبتسم راض بقضاء الله، غير متذمر، لست أدري إن كان المكان هو العامل المؤثر أم أن الرضا يأتي من الداخل؟ بيتها يقع فوق هضبة، ويطل على وادٍ ذى زرع كثير، تخيلت الاستيقاظ كل يوم على منظر جميل كهذا، وعندما شربت قهوتي وأنا بصحبتها أثناء زيارتي الأخيرة للجنوب

اللبناني، لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أردد: سبحان الله، الله جميل يحب الجمال، والجمال عندما يكون في الطبيعة فإنه يخلق داخل الإنسان أحاسيس جميلة، لعل على رأسها نعمة تقدير الجمال، وربما التعود عليه لدرجة كبيرة، حتى يصبح القبح بأدنى أشكاله أو صورته مرفوضاً، وتستيقظ صباحاً، تقوم بمهامها المنزلية في بيتها الصغير المتواضع، وتذهب إلى السوق وتعود محملة بالأكياس، متعبة، فإلعباء ثقيل، ولكنها مبتسمة، تعتذر عن التأخير، وتركض لتحضير القهوة، فالرجل لا يستطيع تحضيرها، وفاطمة لا تتذمر، بل تبسم، وضعت بكل حنان الدنيا يدها فوق كتف زوجها وهي تحدثنا وتحديثه، واسمع منها الحكاية، حكايتها وأستغرب، أفاًجأ، وأعجب بشدة من قوة هذه المرأة وبإيمانها، وصبرها وجلدها.

والحكاية بدأت بزواجها من محمد، بعد فترة اكتشفا أنه يعاني من عيب ما يمنعه من الإنجاب دون علاج طويل المدى، ويبدأن معا الرحلة، انتظار وترقب، وكل شهر تحلم بأن تشعر بالجنين يتحرك في أحشائها، والجنين لا يتحرك، ومرت السنوات، لتصبح خمساً، خمساً في عين العدو كما يقال، وأحست بروح تدب داخلها، وبدأت بتسجيل كل لحظة حتى صور أشعة المولود احتفظت بها، وبعد طول شوق رزق الزوجان بزینب، وأسمياها على اسم ابنة الحبيب المصطفى، السيدة زينب، وبدأت فاطمة تسجل بالصور أول ضحكة لزينب، أول ابتسامة، أول عيد ميلاد، أول مرة رأت فيها البحر، وأصبحت زينب حبيبة أمها وأبيها، وكل سنة من سنوات عمرها

تختصرها صور في ألبوم يضم لحظات وتعليقات بخط الأم، ومضت السنوات لتصبح ستاً، لكنها لم تكن هذه المرة في عين العدو، بل في قبضة يده، وتحكى لى فاطمة ما الذى حدث، بمنتهى رباطة الجأش، بكل ما أعطاه الله من قوة إيمان، بصوت من سلمت أمرها لله، ذات ليلة وأثناء القصف الإسرائيلي المستمر على لبنان، اختبأ الأهالي في أحد المنازل معتقدين أنه الأكثر أمناً، اطمأنت على ابنتها الجميلة، الشقراء ذات العيون الضاحكة زينب، اطمأنت أنها نامت، وعلى بعد خطوات منها كان شقيقها ذى السنوات الأربع حسن، نائم هو الآخر، على بعد أمتار كان ينام الرجال، ومعهم زوج فاطمة وسطهم، اطمأنت عليه أنه فى أيد أمينة يرعونه وهى مع النساء والأطفال، وفجأة دوت انفجارات هائلة، متواصلة متلاحقة، بدأت حجارة البيت تقع فوق رؤوس النائمين، وقفزت فاطمة تبحث عن أولادها، فوجدت حسن، وبسرعة حملته وركضت به لتعطيه لمن خرج من الناس من جيرانها، وعادت تبحث عن حلم العمر، عن أول فرحتها زينب، فوجدت أنقاضاً كثيرة وتحتها يد صغيرة، حاولت إزالة التراب والأنقاض الكثيرة فلم تنجح، فمسحت على يد الصغيرة آملة ألا تكون يد صغيرتها، ونادتها طفلة أخرى، فأخرجتها وعادت فسمعت زوجها المعاق يناديها، فأجابته بكل حب "أنا آتية لك يا حبيبى" وبحث عن أطرافه وسط الأنقاض، ثم نادى الشباب ليحملوه، توقفت أمام كلمة "حبيبى" أى حب هذا، أى قدرة على العطاء داخل هذه السيدة، وكم من الصدق تحمله كلمة "حبيبى" فى موقف كهذا؟

وخرجت فاطمة ومعها زوجها وطفلها حسن، وبقيت زينب، أخرجتها القوات الدولية في اليوم التالي في صورة تصدرت كل الصحف المحلية والعالمية ومعارض الفن التشكيلي.

زينب هي تلك الطفلة ذات الشعر الأشقر الجميل والوجه البريء الجميل، رغم التراب، رغم القصف، نالوا من حياتها ولم ينالوا من براءتها وجمالها، زينب هي واحدة من ضحايا مجزرة قانا التي راح ضحيتها أكثر من خمسين شخصًا، وأقاموا لهم مقابر رمزية تحمل صورهم، وداخل كل منزل هناك، كانت هناك حكاية تشبه حكاية زينب، وكل السيدات هناك يشبهن إلى حد كبير فاطمة، فاطمة التي سألتها: كيف تغلبت على حزنك؟ كيف عدت إلى حياتك الطبيعية؟ أجابتنى " عندما أيقنت أن ابنتي تحت الانقراض ولن أراها بعد اليوم، دعوت الله، وأخذت أتحدث معها وكأنها ستسمعني، وقلت لها: يا صغيرتي لا تخافي، أنت في أيد أمينة، وطلبت في دعائي أن تأتي السيدة زينب التي أسميتها على اسمها كي ترعاها، ثم نظرت إلى فاطمة وقالت: هي في رعاية السيدة زينب لذا تريني متماسكة هكذا، أي إيمان هذا؟ أي قوة إيمانية جبارة تلك التي تسكن داخل هذه السيدة؟ ولو نسي العالم كله قانا، فلا يجب أن ينسى أبدًا زينب وعشرات الأطفال الذين استشهدوا معها، آه يا فاطمة، ضاع انتظار السنوات والحلم وأول فرحة، وبقيت في القلب جذوة إيمان، لم تنجح القوات الغاشمة في إطفائها، آه يا فاطمة، الصبر في حلقك علقم، وفي الذكرى مرارة، ولكن، تبقى قوة الإيمان، فاسمحي لي أن أحسدك عليه يا فاطمة، حتى في الموت لا تخلين من الحسد.

زوجى وشيرى بلير

أثارت تصريحات شيرى بلير، زوجة رئيس الوزراء البريطانى الأخيرة ردود فعل متباينة، خصوصًا من جانب الرجال. فقد صرحت السيدة شيرى أنها طلبت من زوجها رئيس وزراء بريطانيا أن يعود إلى منزله يوميًا فى الساعة السابعة مساءً كي يقضى وقتًا مع أولاده. وهذه ليست المرة الأولى التى تصر فيها شيرى بلير على أهمية الحياة العائلية، وأهمية الأسرة فى حياتها... ولقد أنجبت طفلها الرابع وهى فوق الأربعين آملة فى أن تعطى مثلاً لبقية البريطانىات على أهمية الأولاد.... فبلادها لا تعاني مشكلة زيادة عدد سكان أو انفجار سكانى.... بلادها ترجو السيدات أن ينجبن كما هى الحال فى معظم البلاد الأوروبية... وهن لا يعلنن بسبب ارتفاع معدلات الطلاق.. وإن أنجبن فهن يعلنن هذا فى سن مبكرة جدًا، وتكون النتيجة فتيات تركزن التعليم وجلسن يربين أطفالهن، والحكومة تصرف عليهن.... وهن ناقيات على المجتمع والحكومة والدنيا، مع أن الحكومة توفر لأولادهن مدارس مجانية وعلاجًا مجانيًا ومساكن مجانية.... والفتيات غير راضيات تتبطن على النعمة وكأن النعمة تدوم... يجب أن تأتين فى زيارة إلينا وتجربن العيش فى العشوائيات، وتنتظرن فى

طوابير التأمين الصحي أيامًا وأيامًا ومعظمهم.... إما يعيش، أو يموت المريض قبل أن يأتي دوره... وهذا ليس موضوعنا.

نعود إلى شيرى بلير وتصريحاتها... والتي كانت نتیجتها أن بدأ الكتاب يردون عليها في الصحف ما بين مؤيدين ومعارضين، ومن بينهم صحفى في الصنداي تايمز... أخذ يسخر منها ويطلب منها أن توفر له إجابة يقولها لرئيسه في العمل، إن طلب منه القيام بعمل في موعد انصرافه فهل يجب أن يجيبه أنه لا يستطيع لأنه يجب أن يعطى الرضعة لابنه... يتحدث الكاتب طبعًا بسخرية لكننى استغربت كلامه لأن ساعات العمل في بريطانيا معروفة و محددة... ويجب الالتزام بها، وأى عمل إضافى يكون مدفوع الثمن، واستغرب من ناحية ثانية طلب شيرى بلير لسبب بسيط، أن زوجها يقضى يومين كاملين عطلة نهاية الأسبوع معها ومع أولادها، يسافر معهم على الأقل مرتين سنويًا، فى إجازة الكريسماس أو عيد الميلاد، وقد تعود أخيرًا قضاءها فى شرم الشيخ فى مصر، وأجازة الصيف التى تمتد لثلاثة أسابيع فى فرنسا أو فى إيطاليا، حقيقة "الطمع وحش" كما يقال، فمع كل هذا تريده أيضًا، أن يعود فى السابعة مساءً، ولكن بصراحة استوقفنى طلبها واحترمتها، وبدأت أقارن بين ما تطلبه هذه السيدة، وما اعتبرته مطلبًا شرعيًا وحقًا بين ما يحدث فى بلادنا، إن ذهبت إلى أى نادى تجد النساء يركضن وراء أطفالهن، والرجال جالسين يقرأون الصحف، وفى اجتماعات المدارس المفترض أن أولياء الأمور يحضرون، تجد الأمهات فقط وعددًا قليلًا من

الآباء، أنظر أنا دوما إليهم بإعجاب شديد على اقتطاع جزء من وقتهم الثمين من أجل أولادهم.

والرجال في عالمنا العربى بشكل خاص، لا يتذكرون أن للمرأة عقلاً وإحساساً، وأنها تود أن تكون الشريك وكى أكون محقة وعادلة: النساء أيضاً في أحيان كثيرة يعتبرن الرجل جيباً، تظل الواحدة تبحث عن زوج وحين يأتى، تصبح كل مهمته في الحياة الإنفاق عليها وعلى أولادها، أو الممول كما جاء في المسرحية الشهيرة، وتحته على مزيد من العمل، بل وتفرح مع كل قرش إضافى دون اعتبار لتعبه وإرهاقه مع أن الحياة مشاركة، وفي مجتمعاتنا ما إن تُدعى عائلياً حتى تجد النساء وقد أخذن جانباً والرجال جانباً آخر، و الزواج عملية شديدة التعقيد، يجب على كل فرد أن يحترم خصوصية الآخر، ولكنه في الوقت نفسه يجب أن يشارك الآخر همومه، وحياته بتفاصيلها، ولكن ما يحدث عادة هو حضور الزوج في وقت متأخر، يتناول طعامه، ويجلس ليكمل عمله، إما على الموبايل، أو أمام الكمبيوتر، ينسى تماماً أن هناك زوجة، حتى ولو كانت عاملة، تنتظر منه حواراً إنسانياً، وأولاداً يمرون بمراحل سنية مختلفة يتوقعون منه اهتماماً وصداقة ومتابعة، ويترك الأمور للأم، ولو أنها قصرت تلام وتسأل، وكأن الزوجين اختزلا في الأم، والرجال في بلادنا لا يعرفون معنى الاستمتاع بالحياة، ولا يعنى هذا أنهم يقتلون أنفسهم عملاً، وإلا لأصبحنا مثل الصين وأحسن، ولكنهم باسم العمل يقضون ساعات طويلة في تفاصيل صغيرة، وأى زيارة لأى منشأة قطاع عام تشرح لكم ما أعنيه، تفاصيل صغيرة تستغرقهم واليوم عندهم بسنة.

ومن ناحية أخرى لدى صديقة متزوجة من إيطالي يعمل في شركة خاصة، يحرص على الانتهاء من عمله في الخامسة أو السادسة، ثم يذهب إلى النادي لممارسة الرياضة ويعود إلى المنزل ليستمع بصحبة أولاده، هذا الرجل في الخمسين لكنه يبدو أصغر كثيرًا من رجال أصغر منه يقضون حياتهم في الركض واللهات، ويضحون بحياتهم الأسرية مقابل نجاحاتهم المهنية، أضمت صوتي لصوت شيرى بلير، إلا أنني لا أستطيع أن أطلب المستحيل، فأحدثت عن عودة زوجي في السابعة مساءً، المعقول والمقبول أن أقول له قبل منتصف الليل، وقصص المشاركة الرومانسية على أن أنساها ككل امرأة مصرية، وأود أن أشكر شيرى بلير التي تحدثت باسم نساء كثيرات، وعزائي أن حالي من حالها، ولا عزاء للسيدات.

النساء.. وأحوالهن

في كل مرة تقدم المرأة في التاريخ، تقدم على اعتبار أنها السبب في كل الخطايا التي يرتكبها البشر، ومنذ قديم الأزل والمرأة تعامل أسوأ معاملة، مثل شريعة حمورابي التي نصت على أن من حق الزوج معاملة زوجته كالجارية، إن لم تطعه، بل كان له أن يرفع أمرها للقاضي لو أخطأت، وإن ثبت الجرم وثبت أنها أخطأت بمعنى أسرفت في تدبير البيت أو بذرت، وأنا لا أقصد أخطأت بمعنى زنت، كان للزوج الحق في إغراقها في الماء، أما في عهد الإغريق فكانت مسلووبة الإرادة، ممنوعة من القراءة والكتابة، لا تستطيع الحصول على إرثها بحكم القانون، ولهذا فإن الفيلسوف أرسطو، كان عاكساً لنظرة مجتمعه للمرأة عندما قال عنها " إن الطبيعة لم تزود المرأة بأى استعداد عقلى يُعْتَدُّ به " أما في إسبرطة فقد كان وضع المرأة أفضل بسبب خروج الرجال للحروب، مما أفسح أمامها المجال لقليل من الحرية، وفي عهد الرومان حققت المرأة مكاسب عديدة، وكان هناك نوعان من الزواج، إمّا مع السيادة، بمعنى سيادة الزوج، أو بدون سيادة بمعنى مشاركة زوجها مع وجوب طاعته، وتحسنت الأحوال بحيث أصبح للمرأة الحق في الاحتفاظ بأموالها التي ترثها أو تأتيها من عملها.

وفي العصر الفرعوني كانت أحوال النساء أفضل كثيرًا، كن يخرجن سافرات، وكان لهن دور كبير بل إنها كانت أيضًا إلهة، والآلهة إيزيس إلهة الجمال هي خير دليل، وأنا من أشد المعجبات بالملكة حتشبسوت، وقرأت كثيرًا من الكتب عنها، ومعبدتها لا يزال حتى اليوم واحدًا من أجمل المعابد في العالم.

أما في الحضارة الصينية فكان يطلق على المرأة اسم "فو"، بعد الزواج، أى "خضوع"، اسم يعكس واقعًا مريعًا، وفي الحضارة الهندية كان على المرأة أن تحرق نفسها إذا مات زوجها، وفي الفارسية أعطى زرادشت بعض الحقوق للمرأة، التي فقدتها فور أن مات، إذا كان صوت المعارضين أعلى، وفي اليهودية وصف بعض علمائهم المرأة بأنها لعنة والصالح من ينجو منها، وهى المسئولة الأولى عن أفعال الرجل الشريرة، وهم الذين روجوا لفكرة أن حواء هى التى وسوست لآدم فأخرجته من الجنة، وكانت المرأة اليهودية تعتبر نجسة بعد الولادة فتخرج من بيتها، ولا يحق لها طلب الطلاق، ومن حق زوجها أن يطلقها متى شاء.

أما المسيحية فكانت أرحم كثيرًا مع النساء، فقد أوصى المسيح عليه السلام بالنساء، ودعا إلى حسن معاملتهن حتى ولو أخطأن، وأعطى درسًا عندما سامح مريم المجدلية، ولكن أتباعه لم يكونوا بمستوى سماحته نفسها، والقديس طالب بصمت النساء فى الكنائس لأنه من المعيب لهن الكلام فى الكنيسة، وفى إنجلترا أصدر هنرى الثامن أمرًا ملكيًا بمنع النساء من قراءة الكتاب المقدس.

أما في الجاهلية فكانت الأنثى يتم وأدها، وكان تعدد الزوجات منتشرًا بشكل كبير.

وعندما أتى الإسلام كرم المرأة، بأن جعل من معظم الآيات القرآنية تتحدث عن الرجال والنساء على حد سواء، وأوصى رسولنا الكريم بالنساء خيرًا، و لكن المجتمع من بعده استنَّ عادات وأعرافًا كانت لها قوة أكثر تأثيرًا من الدين.

فكرت بكل هذه الأمور بمناسبة الحج، ولقد كتبت سابقًا في هذا الموضوع لكنه يطيب لي التحدث فيه، يأتي موسم الحج، وبمراسمه المختلفة، وينسى الناس أن وراء كل هذه المراسم والشعائر سيدة، السعى بين الصفا والمروة بسبب سعى السيدة هاجر عندما تركها زوجها النبي إبراهيم عليه السلام، في وادٍ غير ذي زرع، ونفذ الماء، وكان طفلها إسماعيل رضيًا، صحيح أنها قالت إن الله لن يضيعها ما دام قد أمره بتركها، وهو منتهى الإيمان والتسليم، وتبحث عن أى نقطة ماء، فتحول سعيها إلى ركن من أركان الحج، والوقوف بعرفة.

حكاية أن الجبل هو أول مكان التقى فيه آدم بحواء، بعد أن خرجا من الجنة ونزلا الأرض متفرقين، وبحث كل منهما عن الآخر فالتقيا فوق قمة الجبل، هذا ما قيل لي عندما كنت أؤدي شعائر العمرة، وأردت مشاهدة جبل عرفات في غير أوقات الحج، آملة أن أراه يومًا عندما أدى أؤدي الفريضة، إذن امرأة أخرى تقف وراء أحد الشعائر المهمة، بل أهمها، فالحج عرفة، وأنا أؤيد حكاية اللقاء، فاللقاء كان بداية حياة جديدة ومختلفة، بعد أن أخطأ آدم وحواء واعترفا بذنبيهما، فنزلا الأرض لبدأ حياة جديدة.

لست أدري لماذا يُغفل دومًا دور النساء، ولا يتذكر الناس الدور الكبير الذى قمن به من أجل الإنسانية، ويكون الرد أن الله سبحانه وتعالى قد جعل من كل أنبيائه ورسله رجالاً، ورأيت أنا - لو سمح لى - أنه أعطى للسيدة مريم ما لم يعطه لأى من نساء الأرض، أن تنجب دون أن يمسيها بشر، وهذه المعجزة وحدها تثقل كفة الميزان، فالله تعالى لم يتجاهلهن، بل على العكس تمامًا، كان دائمًا هن دور أغفله البشر، ما يزعجنى حقًا هو تردد أن وراء كل رجل عظيم امرأة، والحديث عن مساندة النساء للرجال، لماذا لا يقال قرب أو جنبًا إلى جنب الرجل العظيم امرأة، على كل مناسبة عيد الأضحى، تحية للسيدة هاجر، وللسيدة حواء.

أمى

عندما كنت صغيرة... كنت مختلفة عن بقية الأطفال.. لم أكن ألعب بالعرائس أو بأدوات الطبخ كما كانت تفعل شقيقتى، وكل من أعرفهن من صديقات.. كنت أفضل على كل هذا قراءة كتاب.. وكانت أمى هى المحرك الأساسى وراء تلبية احتياجاتى.. لم أسمعها يوماً تتذمر من أى قرش أنفقته على كتاب أو مجلة.. كانت تأخذنى من يدى وتجلس صابرة حتى اختار وتدفع دون حتى مناقشة أو طرح سؤال مثل: وهل ستقرأين كل هذا؟ أو لماذا وأنت فتاة.. أو أى من التساؤلات الأخرى التى كانت تطرحها الأمهات عن ضرورة توفير هذه النقود لأشياء أكثر قيمة.. أذكر جيداً أنه فى الصيف كان لابد أن أذهب إلى بائع مجلات عجوز فى محطة الرمل فى الإسكندرية، ومهما كانت المشاوير مهمة كان مشوارى للبائع هو الأهم.

عودتنى أمى على مشاهدة السينما... كانت تحبها فنقلت هذا الحب إلى.. رغم أننا نختلف فى الأذواق فإننا جميعاً هى وأنا وأولادى من بعدى من عشاق السينما، وهو الأمر الذى يتفق عليه جميع أفراد العائلة.. أمى من أصول لبنانية سورية.. فعلمتنى ألا أحكم على شخص بجنسيته، وأن أوسّع مداركى فأحب العرب جميعاً وأتعاطف مع قضاياهم كأنها قضيتى.

أمى متدفقة.. تقول ماتفكر دون حسابات.. وأخذت الأمر عنها لدرجة أننى ألام بشدة عليه ممن لا يفهمنى جيداً... أمى عاطفية لدرجة كبيرة.. وأنا أيضاً رغم أننى قضيت سنين طفولتى وأنا أعاتبها على حساسيتها المفرطة وألعب دور الحكيمة، التى تفهم الكثير من أمور الدنيا، وسن المراهقة يهىء لى كما يهىء لكل أنهم يعرفون كل شىء، وأن كل مايقولونه هو الحق.

ومرت السنوات.. وإذا بى مع الأيام أتحول فى أمور كثيرة إلى نسخة منها.. أولادى يسخرون من عاطفتى الشديدة ويلوموننى على صراحتى، ويقومون معى بدور الناصحين الذين يعرفون كل شىء، ويتهموننى بأننى لم أفهم الدنيا "صح" وهم فهموها...!! الدنيا دوارة كما يقال.. وما كنت أفعله فى أهلى يفعل به أولادى اليوم.. كنت (ومازلت.. يجب أن أعرف) شديدة العند وأفسر كل اعتراض على رأى بانه قهر وتحطيم... ابنى اليوم يقول لى: "أنا حر" وأنا مقتنع أننى على صواب "أو" لا تفرضى رأيك على " فأغضب وأسحب كل نظرياتى القديمة وأبدأ فى حجج تصب فى أن الديمقراطية فوضى، والديكتاتورية أسلم خصوصاً للأولاد.. لم آخذ من أمى صبرها.. وساعات نقاشها الطويلة معى.. لم آخذ قدرتها على العطاء التى لا تنضب أبداً. وكأنها نهر يتجدد يومياً بمياه جديدة منعشه، لم آخذ من أمى تقبلها لى بكل علاتى ومساوئى، وقدرتها على جعلى دوماً أحس بأننى مختلفة وأن اختلافى نعمة.. لم آخذ من أمى كم الحنان الذى تغدق به على وعلى زوجى وأولادى.. هلعها عندما يمرض أحدهم وشجارها معى، حتى اليوم إن خرجت دون جاكيت فى

البرد، وكأننى طفلة لم تكبر بعد... لم آخذ من أمى قدرتها على الإدارة فهى أكثر صرامة منى... وعندما كانت تقول " لا " لم تكن تتراجع عنها، أمّا أنا فأتراجع عند أول " عشان خاطرى " وغضبى يتحول إلى ماض.. سبحانه الله... قد يحب البعض أمه، قد يرفضها أو قد يكرهها لا أتخيل كيف يكون هذا إلا أن صفحات الحوادث وتكرار عمليات قتل الأبناء لأهلهم تجعلنى أضع هذا الاحتمال، إلا أننا امهما حاولنا تغيير أنفسنا نبقى بشكل أو بآخر صورة من أهلنا.. وعندما نجد فى أولادنا أمراً نحبه ننسبه إلينا.. أما العيوب فهى دومًا مأخوذة من الطرف الآخر.. لكن السنين تنجح فى أمر قد تحقق فيه محاولات الأهل المتواصلة... الفهم.. عندما نرزق بأولاد نتفهم أكثر أهلنا.. بل ونحبهم أكثر.. لم أشعر بمعاناة أمى إلا فى ليالى السهر التى قضيتها قرب أولادى.. وفى كل مرة يمرض أحدهم أو أشعر بالقلق عليهم، أنظر إليها بإعجاب كيف تحملت كل هذا وحدها.. ووالدى توفى وأنا فى أكثر المراحل احتياجاً إلى أب.. مرحلة المراهقة.. أمى لها تعبير شامى أحبه كثيراً تقول " كل شبر بنذر " أى أن الأهل يندرون كى يكبر أولادهم بسلام.. واستغرب ممن تأخذهم الأيام بعيداً عن أهلهم.. يزورهم فى المناسبات أو يعاملونهم بقسوة... أنا عندى يغضب العالم كله منى وترضى أمى علىّ فى رضى الله... ورضى أمى.

الواد قلبه بيوجعه

لست أدري من كان أول من قال إن الخيانة تسرى في دم الرجال؟ وأنه من المستحيل أن يقضى أى رجل عمرًا بأكمله مع امرأة واحدة، دون أن ينظر إلى غيرها (ولو خلسة)، أو يخونها ولو مرة (قولاً أو فعلاً) على الأقل؟ إلا إننى أعرف اثنين فقط لم يفعلوا هذا... حتى اليوم لا بالنظر ولا بالفعل... ربما يجب أن يتم عرضهما على طبيب نفسى، لكن غالبية الرجال في الشرق يعتبرون أن التلميح والغزل، أو حتى استقبال الغزل من الطرف الآخر، من الأمور العادية، ولا تندرج تحت بند الخيانة. نحن الشعوب التى كانت يوماً تعتبر أن الشاعر الذى يمدح فتاة لا يحق له الزواج بها، لأنه كشف للآخرين ملامحها. ما الذى بقى لنا من أخلاق الفرسان؟ رجال البادية الذين كانوا يحاربون بالسيف والقلم.... ماذا بقى فينا من الذين فتحوا بلاداً ووصلوا إلى الاندلس مروراً ببلاد عدة؟ ماذا بقى فينا من رجال أسهموا في العلم والفنون حتى أخذ العالم كله عنهم؟

الإجابة لست أدري... كى لأخرج أحداً... ما الذى تغير فينا؟... الكثير... الرجل الذى يقبل أن يعاكس امرأة في الشارع يستبيح لنفسه حقاً ليس له... أو يلتصق بها في مكان ضيق، أو المسئول

الذى يستغل سلطانه ويسمح لنفسه باستغلالعاملات معه دون قانون يردعه... كما هي الحال في الخارج حيث يوجد قانون يدعى "التحرش" ليعاقب بالحبس أو الغرامة كل من تسول له غرائزه، أن يقول أو يفعل ما يؤذى مشاعر أنثى... وقد يصل الأمر إلى حد اعتبار المديح غير اللائق تحرشاً... أنا أسمى هذا تحضراً... اسمى تصرفاتنا همجية... وتخلّفاً.

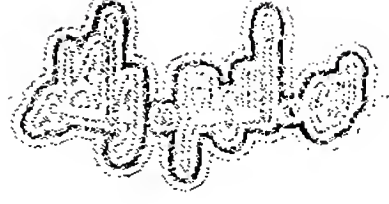
وليسأعني القراء ولكن ازدواجية معاييرنا تغضبنى... فالرجل سبع في منزله بشنابات أو بدون و.... العكس تماماً عندما يتعلق الموضوع بالنساء... أو برؤسائه أو بمن يكون له مصلحة معهم.... ولو طبقنا قانون التحرش على السياسة.... فس نجد الأمر مشابهاً... تسمح لدولة مثل أمريكا ودولة أخرى مثل إسرائيل... بأن تستبيح بلاداً مثل العراق وفلسطين، وتصل الاستباحة إلى حد الاغتصاب... ونصمت ما دام الأمر لم يصل إلينا... ما دام التحرش لم يطلنا... ما دمنا مازلنا في أماكننا سالمين.... المشكلة اعتبارنا للعبب أمراً طبيعياً... وفي قناعتنا بأن التغيير مستحيل... وانتظار المخلص... المسيح القادم الذى سيأخذ بيدنا ويقودنا إلى النور... نقبل العيب على أنفسنا وعلى بيوتنا... نمد أيدينا بحجة أن الراتب لا يكفي... نحلل الرشوة... بحجة أن الأسعار غالية... نحلل المعاكسة بحجة أن البنت.. ترتدى فستاناً قصيراً وإن كانت المعاكسة لا تستثنى حتى من ترتدى غطاء الرأس... ندافع عن أهمية الصلاة ونهاجم السفارات ونعدهنّ بجهنم... وبئس المصير.. ونبيح لأنفسنا إفراغ الكبت في

أمور عديدة مرفوضة... والقانون والدولة في حق الرجل... فالزاني لا يعاقب إلا لو كان على فراش الزوجية فقط... وكأن الخيانة تفرق بين مكان وآخر... وكأن الخيانة في الفندق شرعية وفي المنزل حرام... مع أن الشرع قال عكس ذلك، والأديان السماوية كلها حرمت الزنى... ولو قتلت الزوجة زوجها الزاني لعدم أو تحصل على المؤبد... بينما لو قتل الرجل زوجته الزانية يحصل أقصاه على شهور قليلة، وربما مع وقف التنفيذ... فقد كان يدافع عن عرضه... أما المرأة فلا عرض لها تدافع عنه، أو أقول إن الزنا للرجل حلال... للمرأة حرام... مع أن الأديان السماوية كلها حرمتها على الاثنين ولم تفرّق.

مللت من عبارة "عالم ذكوري" من كثرة ترديدها، فالعالم ذكوري والقانون ذكوري والدولة بمسئوليتها معظمهم من الذكور.. وقانون التحرش إذا ما عدنا إليه يتيح للمتضرر - وعادة تكون متضررة - رفع دعوى للحصول على تعويض مادي، لماذا؟... لأن خسارة الفلوس توجع وتجعل الفاعل يفكر مرة واثنين قبل الإقدام عليها مرة أخرى... تجعله يُجبر على احترام زميلاته في العمل... أضف إلى الوجع... الفضيحة.

أعرف كثيرًا من الرجال الذين يعتبرون الإصرار على الغزل واعتذر من الكلمة فهي أرقى من الطريقة المستخدمة من هؤلاء، يعتبرون أن كل امرأة تنتظره منهم... وهنا أفرّق بين الإطراء على عمل وبين أمور أخرى... أعترف - كي أكون منصفة - أن هناك نساء يستمتعن بهذا... ولا يجدن غضاضة... وهذا أيضًا خطأ...

فمن استباححت لاذنيها كلامًا لا يليق، أعطت القائل فرصة قول المزيد... والقانون لا يساعد... فبعض النساء تسكتن خوفًا وخشية، لأن الرجل خصوصًا المدير في العمل حين تصده المرأة يدخل مرحلة جعلها "تدفع الثمن"... ناسيًا أن لها حرية الاختيار وأن احترامه لها... جزء من احترامه لنفسه... المشكلة كلها قلت آنفًا إننا أصبحنا نعتبر العيب أمرًا عاديًا... وهذا ينطبق على الكثير من أمور حياتنا... هذا يجعلنا نقبل الكثير من التنازلات... انتهى عصر الفرسان والفروسية... يبدو أن المواصلات والتكنولوجيا قد حلت محل الخيل، وأى شيء يضع منا لم تعد له قيمة في نظرنا... حتى الأخلاق أصبحت غالبًا موضوعة قديمة عفا عليها الزمن... وأصبحنا كمن رقص على السلم... لانحن كالغرب في قوانينه واحترامه للحريات... ولا كالشرق في احترامه للقيم والأصول... المشكلة أن الرقص طال والوسط تعب... لا الحقيقة... فالقلب هو الذى تعب... وعلى رأى من قال... الواد قلبه بيوجعه... وعائز حد يدلعه... هذا عن الرجال.... أما النساء... فلازلنا فى مرحلة "ظلموه".



7

شخصيات وأحداث

حُبِّ الجميع، ثِق في الجميع،
ولا تؤذِ أحدًا

وليام شكسبير

FARES_MASRY
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الابتسامة

عمر الخيام

كلنا لا يعرف عن عمر الخيام إلا رباعياته، وعلاقته بالخمير وأشغاره التي كتبها عنها، لكن الخيام في الحقيقة كان حكاية، كما يقال، انبهر به الناس في الغرب، وترجمت الكثير من مؤلفاته، وأنا أقرأ هذه الأيام كتاباً فرنسياً عنه، أعطاه حقه وحوّله إلى أسطورة، والأسطورة في كونه وجد في عصر اشتدت فيه قوى التطرف على يد من أسماهم التاريخ بالحشاشين، وهم في حقيقة الأمر ينسبون إلى حسن صباح، صاحب الفكر الأصولي المتطرف، والذي أنشأ فرقة كانت أول فرقة استشهادية في التاريخ، تقتل الحاكم أو المسئول الظالم، ويقف القاتل لا يفر منتظراً الموت على يد من يلقون القبض عليه.

وإذا ما عدنا إلى الخيام فاسمه أبو الفتح عمر بن إبراهيم الخيام، ولد في نيسابور عاصمة خراسان، ولم يكتشف العالم عبقريته الشعرية إلا بعد سبعمائة سنة من وفاته في مسقط رأسه عام 1123، لقب بالخيام لأنه كان في بداية حياته يصنع الخيام، حتى التقى بنظام الملك وزير السلطان ملك شاه، والذي كان يترك كل الأمور بيده، ثم انقلب عليه في النهاية، المهم أن نظام الملك خصص لعمر الخيام راتباً سنوياً، وأجزل له العطاء وأعطاه فرصة البحث العلمي، وأنشأ له

مرصداً إذ كان الخيام من علماء الفلك والرياضيات، وأشهر مؤلفاته في هذا المجال " الجبر والمقابلة " الذى ترجم إلى لغات عدة وأعد تقويماً فى الفلك يعتبره العلماء أدق من التقويم الجريجورى.

الخيام ظلم كثيراً، فلقد اتهم بالإلحاد والتشكيك فى وجود الله، على الرغم من أن شاعراً مثل أحمد رامى ترجم أعماله وقال عنه إنه كان موحداً بالله ومصلياً، أدى فريضة الحج، هو ما دعا الصوفية الذين كانوا ألد أعدائه إلى إدخال شعره فى أورادهم فهو الذى قال:

" نصوم عن الفحشاء جهراً وخيفة

عفاً وإخطاراً بتقديس خاطرى "

والصورة التى قدمت للغرب عن عمر الخيام، فيها الكثير من المغالطة، فرغم تأثر الكثير من الشعراء به، وعلى رأسهم الإنجليزى فيتزجيرالد، الذى ترجم أعماله فعرف العالم به فإن الصورة المقدمة له تبقى صورة الماجن الذى يحتسى الخمر.

وعمر الخيام نموذج لما يحدث حتى يومنا هذا، مع اعترافى بأن الخمر حرام، وهذا أمر لا نناقشه، وليس موضوعنا، لكن قضيتى هى فى كل شخص ينصب نفسه حاكماً على الآخرين يكفر ويفرق، ونحن فى مجتمعاتنا أساتذة فى الحكم على الآخرين، ونطلق أحكامنا ونوزعها ونشرها دون رحمة، نخلق الأكاذيب ونصدقها، نحكم من خلال المظهر، ولا نحاول الدخول فى الجوهر، صحيح أنه فى أحيان كثيرة يكون الاثنان متسقين معاً، إلا أننى من أصحاب نظرية

قديمة لست أدري من اخترعها أو قالها: وهى أن الإنسان خير بطبعه ومهما ارتكب من آثام فهذا غضب اللحظة، صحيح أنني فى أحيان كثيرة أراجع نفسى، فهناك أشرار مع سبق الإصرار والترصد، لكننى أحاول تجاوز المحنة والتمسك بقناعاتى، ولو اتهمنى البعض بعدم الواقعية.

وإذا ما عدنا للخيام فهو مثال صارخ لما يمكن أن يحدث فى أى زمان ومكان، حكم عليه الناس بالإلحاد وأحرقوا كتبه، اتهموه بالهرطقة وبالكفر، وعينوا أنفسهم حراساً على فكره، ناسين أن الله سبحانه وتعالى هو من يحاسب، نصبوا أنفسهم قضاة وأصدروا أحكاماً بالإعدام على كتبه وفكره ورأيه، وما حدث للخيام حدث للكثيرين غيره، لا أذكر الآن إلا كتاب "إحياء علوم الدين" للشيخ الغزالي والذي أصبح فيما بعد واحداً من أهم الكتب الإسلامية، وابن رشد الذى أحرقت كتبه وكان عددها 109 كتب عام 1189، واعتبر الحدث والتاريخ بداية خروج العرب من العالم المعاصر، ونكوصهم إلى الماضى السحيق، وكتاب طه حسين "فى الشعر الجاهلى" الذى أحرق عام 1926 كان علامة على عدم وجود فكر تنويرى، ومنع كتب مثل "أولاد حارتنا"، لنجيب محفوظ و"نقد الفكر الدينى" لصادق جلال العظم و"فقه اللغة العربية" للويس عوض، حتى كتاب "النبي" أحد أجمل كتب جبران خليل جبران، بعد أن قرأته مرات ومرات فى طفولتى تمت مصادرتة عندنا منذ عامين تقريباً.

ومع احترامى الكامل لكل مبدع ومفكر، واعترافى

بحقه في كتابة ما يشاء، أجدني أعترض على كُتّاب مثل سلمان رشدي الذي اشتهر بسبب هجومه المستمر على الإسلام والمسلمين، وتقديمه شخصية المسلم دومًا على أساس أنه المتطرف كما حدث في آخر رواياته " شاليمار البهلوان " والتي تحكى عن سياسى يهودى يتعرض للقتل على يد سائقه المسلم، وبغض النظر عما إذا ما كانت أسباب القتل سياسية أو شخصية، فإن تقديم صورة اليهودى الضحية والمسلم المجرم صورة أرفضها، وتقديمها للغرب تكريس لفكرة قديمة جديدة، فكيف إذا ما شهد شاهد من أهلها، أى كان الكاتب مسلمًا، وربما يعود هذا إلى إفلاس الكاتب الذى أصبحت زيجاته ومغامراته العاطفية تغطى على أخباره الأدبية، إلّا أننى هنا وقعت مثل غيرى في فخ الحكم عليه، وأنا أتحدث فقط عن آخر جزء، أى الخاص بالمغامرات النسائية، أما كتاباته وموقفى منها فأنا أتمسك به، ولكن دون أن أرحب بفكرة منع كتبه أو إهدار دمه، ولو فعلنا هذا لوجب تعيين سيف لقطع رقاب كل من يقول رأيًا لا يعجب المنوط به، في وقت من الزمان في ظرف ما القيام بهذا الدور، أنا ضد أى حجر على عقل المتلقى، ولكن - وكى لا أفهم خطأ، أنا أيضًا يحكم على أحكام سلبية - لا ينطبق الأمر على الكتب العلمية، وأدخل في هذه الشريحة الكتب الدينية، فالكتب الموجودة والمنشرة فوق الأرضية، والتي تتحدث عن عذاب القبر وما ينتظرنا في الآخرة من أهوال، تدرج تحت بند الكتب العلمية، لذا وجب مراجعتها من المختصين، الوضع نفسه ينطبق على الكتب المسيحية، يجب أن تمر على أساتذة من الأزهر والكنيسة كى لا تفسد عقول الشباب.

وأعود إلى ما بدأت به، عمر الخيام، الذى كتب الكثير عن
الخمر، وكتب رباعية جميلة تقول:

يا عالم الأسرار علم اليقين

يا كاشف الضر عن البائسين

يا قابل الأعذار فتنا إلى

ظلك فاقبل توبة التائبين

عمر الخيام الذى كفروه وأحرقوا كتبه، مات بعد أن صلى ركعتين
لربه حسبما يقول المؤرخون.

نوستراداموس

في كل مرة نقرب فيها من نهاية العام أتذكر نوستراداموس، مع أن العالم كله يتذكره عند الكوارث فحسب، وأنا شخصيًا مهتمة بقراءة كل ما يخص هذا العالم الشهير، لأنه نجح بعد مرور قرون عديدة في أن يظهر اسمه دومًا، ودون كلل أو ملل، جرب فقط كتابة اسمه على صفحات البحث على الإنترنت، وسوف تجد مئات الموضوعات عنه وبكل اللغات، فهو واحد من أشهر الشخصيات في التاريخ.

ونوستراداموس هو اسم لاتيني لطبيب ومنجم فرنسي، نسبة للمكان الذي كان يسكن فيه من مواليد عام 1503 م، يهودي الأصل، ولكن أسرته تخلت عن اليهودية واعتنقت العقيدة الكاثوليكية وكان وقتها ميشيل، وهذا هو اسمه، في التاسعة من عمره، تأثر كثيرًا بجده الذي علمه قواعد اللاتينية والإغريقية والعبرية، وأصول الرياضيات والتنجيم وبرع في العلوم الطبية، واهتم بشكل خاص بعلم التنجيم، ورغم أنه اشتهر بقدرته على شفاء الأمراض فإنه لم ينجح في إنقاذ زوجته وطفليه من مرض الطاعون، الذي كان منتشرًا في تلك الفترة، ثم تزوج بعد عدة سنوات من أرملة ثرية ساعدته في التفرغ لتأليف كتبه عن الغيبات ونشرها وأشهرها كتابه "القرن" وقرن عند نوستراداموس لا تعني مائة سنة، بل مائة نبوءة.

كانت له نظريات جديدة في الطب والعلاج، من بينها

رفضه استنزاف دماء المريض الذى كان منتشرًا بشكل كبير فى ذلك الوقت، وقد نشر عام 1552 وصفاته العلاجية فى كتاب، وفى عام 1550 كان يزور مدينة سالون الفرنسية فرأى طفلاً صغيراً وتنبأ بأنه سيصبح ملكاً على فرنسا فى يوم من الأيام، مع أن ملكة فرنسا كاترين كان لها ولدان على قيد الحياة، وأصبح هذا الملك هو هنرى الرابع أحد أشهر ملوك فرنسا، والذى أنهى سنوات من الحروب الدينية عندما وقع اتفاقية وهو واحد من الذين أظهروا تسامحاً دينياً كبيراً، فى وقت كان الدين هو مشعل الحرائق الأول، لذلك أصبح اسمه هنرى العظيم.

كان نوستراداموس يكتب نبوءاته فى شكل رباعيات شعرية، وعبر التاريخ تحققت نبوءات عديدة له، ولعل أشهرها نبوءاته بصعود نابليون بونابرت، وهزيمته ويقال إن الإمبراطورة جوزفين هى التى لفتت نظر زوجها بونابرت إلى الكتاب، وأنه عندما وصل إلى الرباعية الخاصة بهزيمته أحرق الكتاب، وزوجة جوبلز وزيرالدعاية فى عهد هتلر أعطت زوجها أيضاً الكتاب، وتم استغلاله، فكانت الطائرات الألمانية تلقى بنبوءات نوستراداموس فى كل الأراضى التى هاجمتها ألمانيا خصوصاً فى انجلترا، فتكلفت انجلترا ربع مليون جنيه استرليني لمقاومة نبوءات نوستراداموس، بأن نشرت نبوءات أخرى له ولكن مضادة، ونبوءات منجمين آخرين، وهذا الأمر ثابت فى سجلات الحرب البريطانية، وتنبأ نوستراداموس بمقتل كيندى الرئيس الأمريكى عندما قال " الرجل العظيم فى أعظم دولة تصرعه صاعقة فى عز الظهر وأخوه بعد ذلك " وهو ما حدث، وتوقع نوستراداموس استيلاء اليهود على أرض فلسطين.

وفى نهاية الثمانينيات أنتجت هوليوود فيلمًا ناجحًا ظهر

فيه نوستراداموس وهو يتنبأ بالثورة الفرنسية، وظهور هتلر وصدام حسين، وعندما انهار البرجان في الحادى عشر من سبتمبر ازدادت مبيعات الكتب التى تتحدث عن نوستراداموس فى الولايات المتحدة، والعالم كله، باحثين عن رباعية تتنبأ بها حدث، وكان يكتب نبوءاته فى كل مكان وكان يردد " إن عندى موهبة، هذه الموهبة هى عبارة عن قوة، والقوة تملأ جسدى كله، تهزنى بعنف، وأسمع صوتًا، وأرى نورًا "، وسواء اعترفنا بنوستراداموس، أم لم نعترف، لا نستطيع أن ننكر رغبتنا فى معرفة الغيب، ربما لأن الإنسان بطبعه يخاف من المستقبل، وقصص كثيرة حاولت منع القدر بسبب معرفة الغيب وفشلت، مثل حكاية أمير سمعتها أثناء زيارة قمت بها إلى اسطنبول منذ عدة أعوام، الأمير كان مولعًا بابنته ولعًا شديدًا، فأحضر عرافًا تنبأ له بموت ابنته وهى فى سن الشباب، فجزع الأب وقرر أن يبعدها عن أى خطر، فأقام لها قصرًا فوق جزيرة فى وسط نهر البوسفور، وكان على من يريد الوصول إليها أخذ مركب، وأحاطها بحراسة شديدة وكبرت الفتاة وحيدة تقضى وقتها فى النظر من النافذة حزينه متسائلة عما تحمله لها الأيام، وذات يوم طلبت أن تأكل عنبًا، فأحضره لها، إلا أن ثعبانًا سامًا كان قد تسلل وسط الفاكهة، وما إن مدت يدها حتى قرصها وتموت وسط برجها العالى، صحيح، لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع، ولكن مع قدوم كل سنة نجدنا نحاول قراءة الطالع، والتوقعات، نبحث عن الخير وعما يحمله المستقبل، رغمًا عنا نجدنا نفسر ونقلق ونتوتر، لو كانت الكلمات مثل " قلق " أو " توتر " فى علاقة عاطفية، أو مشاكل فى محيط العمل، ونفضل الانفراجات والمفاجآت السارة.

وإذا ما عدنا إلى نوستراداموس فقد عانى داء النقرس، مما أدى إلى داء الاستسقاء، فأدرك بوصفه طبيباً أن نهايته أصبحت وشيكة، فكتب وصيته في السابع عشر من يونيو عام 1566، وفي الأول من يوليو طلب القس المحلى ليجرى له الطقوس الأخيرة، وفي اليوم التالى وجدت جثته تماماً كما توقع، أى قوة هذه التى كانت تحكم هذا الرجل.

وتوقعات نوستراداموس لعام 2007 حسبما جاء فى كتاب حقق مبيعات ضخمة فى العالم للكاتب "مايكل راسفورد" أن قائداً من الشرق الأوسط ينجح فى الحصول على سلاح نووى وسوف يستخدمه، إلا أن قبلة سوف تستقر فى البحر الأبيض المتوسط مما سوف يتسبب فى تسمم الأسماك، وسوف تندلع حرب أخرى، الولايات المتحدة ستعرض لكوارث طبيعية كثيرة خصوصاً زلازل وفيضانات مسببة خسائر فادحة، فى إيران سوف تحدث مشاكل عديدة، وبسبب خطأ سوف تسوء العلاقات بين دولتين عظميين، وفى بلاد العالم الثالث كما أسماها الكاتب سوف يصعد شاب أسمر البشرة كقائد محبوب، هدفه توحيد بلاد العالم الثالث لمحاربة الدول العظمى، ويشير الكاتب أيضاً إلى أن الكتب المقدسة قد أشارت إلى أحداث مماثلة فى منطقة الشرق الأوسط، هذه النبوءات حصل عليها الكاتب من وثائق كانت مخبأة واكتشفها أعضاء المكتبة الوطنية الإيطالية فى مايو من عام 2004.

على كل، كذب المنجمون ولو صدقوا، أو صدقوا، ولا يعلم الغيب إلا الله.

ملوك الطوائف حكاية حب

من لم يشاهد مسلسل "ملوك الطوائف" قد فاته الكثير، هو مسلسل سورى من إخراج حاتم علي، يحكى حكايات آخر ملوك الأندلس قبل سقوطها، للأسف لم أتابع المسلسل منذ بدايته واكتشفته بعد انتصاف الشهر الكريم، إلا أنني منذ زمن بعيد، لم أشعر بارتباط بعمل مثلما حدث لى مع "ملوك الطوائف" كنت أحرص على البقاء فى المنزل ساعة إذاعته، ومتابعة الحوار والانبهار بالأمكن التى تنوعت ما بين الأندلس فى إشبيلية وغرناطة ومرورًا بالمغرب.

والحكاية ببساطة تنطبق على أحوالنا اليوم، ملوك يتصارعون ولا يتحدون، وتسقط الأندلس فى النهاية ضحية لضعفهم، ففى الاتحاد قوة لم يعرفوها، وفى الفرقة ضعف أوهن قوتهم، أما أجمل ما فى الموضوع وسط هذا الزخم من الأحداث السياسية، فهو حكاية محمد الملك الذى أحب جاريته اعتماد، كان محبًا للشعر يقرضه دومًا وذات يوم وهو واقف مع ابن عمار مستشاره وصديق عمره الذى خانته فيها بعد، يحاول إيجاد كلمات تكمل أبياته سمع صوتًا ناعمًا يعطيه الإجابة، فوجد جارية تغسل الملابس رائعة الجمال تجيب، فأحبها من النظرة الأولى وكى أساعدكم فى عيش اللحظة الجميلة أقول إن

الجارية قامت بدورها أجمل ممثلات سوريا في رأيى على الإطلاق «سلاف فواخرجي» أما المعتمد فقام بدوره ممثل شديد التميز يدعى «تيم حسن».

لم أكن أعرفه قبلاً، وتعرفت عليه عندما قدم دور الشاعر نزار قباني في شبابه، وقع محمد في حب الجارية وأحبها لدرجة أنه اختارها زوجة له، لم يرض لحبيته أن تبقى جاريته ولو في قصره، أرادها حرة سيدة، ومملكة، والأكثر أنه تزوجها، وكان من المتعارف عليه أن من يصبح ملكاً يأخذ لنفسه لقباً فاشتق لقبه من اسمها «اعتماد» ليصبح «المعتمد»، الملك الذى أحب كل هذا الحب الذى لم يفهم بشكل صحيح، وعندما سقطت مملكته كانت الحجة التى تقال، وماذا ينتظر من ملك اتخذ لقبه من اسم امرأته؟ وكأن الحب عيب أو المرأة عورة أو كائن ناقص، وبدأوا يهتفون ضدها وضده فخافت وذهبت باكية تسأله: أكانت فالاً سيئاً عليه؟ فأجابها: أى شر فى العشق؟ تنقضى الممالك ويبقى سلطان القلوب ولا قبل لأحد به.

ثم قال، عاش محروماً من لم يذق حلاوة العشق، وأجمل الممالك هى مكانها القلب، وأضاف، لو كانوا ذاقوا حلاوة عشقى لك لما لامونى على اتخاذ لقبى من اسمك، نموذج بسيط لحوار دار بين الزوجين الحبيين، حوار أشبه بروايات الأمس التى تربينا عليها، وتجعل نخيلتنا تعمل وقلوبنا تدق ونتابع كلمة بكلمة ما يقوله الأبطال، والمرأة دوماً وفى كل مكان وزمان مظلومة، ولا يجب أن نستغرب رد فعل الشعب والناس فى ذلك العصر فالدنيا كانت مختلفة، ولم تكن هناك

مناداة بأى نوع من الحقوق أو المساواة، الغريب هو أننا لو كررنا السيناريو اليوم لو ظهر رجل ناجح وبجانبه زوجته، لو بحث عن حبه لها، بأى شكل أو ظهر فى علاقته بها أى قدر من الشاعرية لاتهم بالجنون أو أنه ليس كباقي الرجال، ولهوجم وعوقب واعتبر كائنًا ضعيفًا، ولصورت المحبوبة بأنها القوية المفترية، فى مجتمعاتنا العربية غير مسموح بتعبير الأزواج عن مشاعرهم لزوجاتهم، إلا فى الغرف المغلقة، فلم يتعود الأولاد فى العالم، العربى سماع كلمات حب من أبيهم لأهمهم أو العكس، والمعتمد كان مدرّكًا للأمر فقال لزوجته يومًا أرأيت رجلاً يشتاقي إلى زوجته عند بعده عنها، ويكتب لها شعرًا؟ فأجابته «لا إلا فيما ندر» فقال لها «فكيف إذا كان هذا الزوج ملكًا؟ تحية لرجل احترم مشاعره ودافع عنها ورفع من قيمة زوجته ليجعل منها حبيبة دائمة.. فالنساء فى بلادنا ما إن يصبحن زوجات حتى يتحولن إلى الحبيبات السابقات، ويلغى لقب الزوجة صفة الحبيبة.. رحم الله المعتمد ومعه اعتياده.. حب كهذا لا تعرفه الأزمنة كثيرًا للأسف.. فنحن من يخلق الشاعر بيديه. وإلا لكانت حال الدنيا قد تغيرت، فالحب يرفعنا درجات وينقى نفوسنا، لو أصبح مذهبنا، ولكن رجلاً مثل المعتمد لا يجود به الزمان كثيرًا.

المحتويات

7	إهداء
9	مقدمة
13	1- شئون مصرية
15	الغلبة والموت
18	حرام ومعلّش
21	كل مرة أشوفك فيها يبقى نفسى آه.. آه
25	الرحمة
28	تساؤلات افتراضية
31	علامات استفهام
35	الدين لله وحده
38	عن الموت فعذرًا
41	نظرية عزت
45	طه يعقوبيان وزين الدين زيدان
49	إلى الدكتورين "نظيف والطيب"
53	دماء ملوثة
57	العلم وأهله
61	أسئلة إلى عواد الذى باع أرضه

67	2- ثقافة الشعب المصرى
69	ثقافة الاعتذار
73	سكة السلامة
78	عن التحرش
82	المساجد وأهلها
86	حاضر
89	3- أحوالنا ومشاعرنا
91	رائحة المكان والزمن
94	عدو أم حبيب؟
97	السعادة
101	عدوك ابن كارك
104	نظرة وابتسامة
108	هلاً أسقطنا الأقنعة
112	عادى
115	Happy New year
118	عن الكلام
122	هتلى وراسبوتين وما بينهما
126	الدنيا ربيع
130	النجاح
135	4- شئون عربية
137	حزينة أنا
142	أضاعات أحلام
147	كلام قديم بمناسبة العيد
151	صدام الإنسان

- 156 هوامش على محاكمة صدام
161 العراق
165 حكاية لبنانية
169 5- العلاقة مع الآخر
171 حكاية عمر وطوم
174 ماذا بعد؟
178 حميمة المدونين
182 ابسطها يا عم
187 6- النساء
189 اذبح لها القطة
192 حكاية عايدة مع براقش
196 أعباء النساء وقضية الشرق الأوسط
200 حلم الرئاسة
204 فاطمة السيوية
208 مى
212 حتى لا ننسى
216 زوجى وشيرى بلير
220 النساء وأحوالهن
224 أمى
227 الواد قلبه بيوجعه
231 7- شخصيات وأحداث
233 عمر الخيام
238 نوسترا داموس
242 ملوك الطوائف.. حكاية حب

FARES_MASRY
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الابتسامة



أرى .. أسمع .. وأتكلم

فى البدء كانت الكلمة، والكلمة مسئولية.. وكما يقول عبد الرحمن الشرقاوى، الكاتب الكبير "بعض الكلمات نور، وبعض الكلمات قبور" .. والكلمة تعنى البحث والإيضاح، ومن يكتب إنما يفعل بحثاً عن حقيقة ما.. عن اكتشاف ما، لذلك فلا يجب إذا أن نؤمن بأن مانقله كله صادق؛ لأننا لا يمكن - حسب رأى جبران خليل جبران - أن نقول "وجدت الحقيقة"، بل نقول "وجدت بعض الحقيقة"، والكتابة متعة ومشاركة وفتح لأبواب مُخلقة، بدلاً من الاكتفاء بالعيش داخل النفس، مسجونين فيها، لانجد من يفهمنا أو يستمع إلينا، فى زمن ضُمَّت فيه الآذان .. ولم تعد فيه للجمال الخارجى مساحات واسعة.. وأصبح الخلُ الوفى، كالعُنقاء، من عجائب الدنيا ومستحيلاًتها...

فى زمن صعب كهذا .. لابد أن نبحث عن السعادة والراحة فى داخلنا...

رولا خرسا



Exclusive
For
www.ibtesama.com